

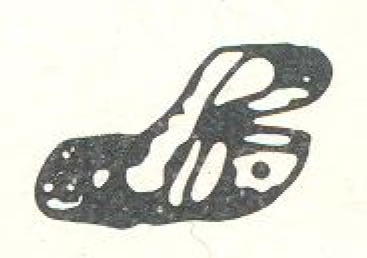
حمدان حجاجي

أستاذ بجامعة الجزائر

# حياة وآثار

# ابن زمرك

« شاعر الحمراء »



ديوان المطبوعات الجامعية

الساحة المركزية ـ بن عكنون ـ الجزائر

المؤسسة الوطنية للكتاب

ENTREPRISE NATIONALE DU LIVRE

حمدان حجاجي

أستاذ بجامعة الجزائر

# حيـاة وآثـار

# ابن زمرك

« شاعر الحمراء »



ديوان المطبوعات الجامعية

الساحة المركزية - بن عكنون - الجزائر

المؤسسة الوطنية للكتاب

3 ، شارع زيروت يوسف

الجزائر

طبعة مشتركة بين
المؤسسة الوطنية للكتاب
و
ديوان المطبوعات الجامعية


رقم النشر: 4/09/2223

رقم النشر: 123/89/01/08

إلى أستاذي الجليل
بالمدرسة الثعالبية بالجزائر
الشيخ المشري عويسي
الذي أحاطني بمودة خالصة
ولاسيما في أيام كانت علي عسيرة

# مقـــدمـــة

فى القرن الرابع عشر الميلادى الموافق للقرن الثامن الهجرى شاء القدر أن تحقق الجيوش المسيحية انتصارات عديدة فى غزوها الجيوش الإسلامية وهذا ما سمح لها بأن تستولى على معظم القطر الإسبانى وجعلها على قاب قوسين من بلوغ غايتها المتمثلة فى القضاء على الدولة الإسلامية بصفة نهائية . ولكن الرياح ــ كما قاله الشاعر ــ قد تجرى بما لا تشتهى السفن . فهذه المسيرة الطويلة الشاقة المضنية قد توقفت أمام جدران مملكة غرناطة . ويعود الفضل فى ذلك إلى الغرناطيين أنفسهم إذ بصمودهم استطاعوا أن يردوا هجومات العدو فأعلنوا تارة حروبا قاسية ولجأوا تارة أخرى إلى إبرام عقود سلمية فضمنوا هكذا لغرناطة وأهلها أن تبقى فى رعاية الإسلام لمدة تزيد على القرنين .

وإذا ألقينا نظرة على خريطة بلاد الأندلس قبل أن تغيرها هذه الحوادث الأخيرة تبيّن لنا أن معظم الأندلس فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى كان بيد بنى هود الذين حطموا الدولة الموحدية دولة كانت فى الاحتضار منذ زمن طويل . كما يتبين لنا أن شرق الأندلس كان بيد بنى مردنيش القائمين آنذاك ببلنسية .

ولما لاحظ محمد بن يوسف ــ أول بنى نصر ــ ضعف بنى هود عقب الانهزامات المتكررة القاسية أمام الجيوش المسيحية رأى من اللائق أن يغتنم هذه الفرصة المواتية لتحقيق رغباته فنادى بالبيعة له سنة 629 / 1232 وذلك بأرغونة فى ضواحى جيان ثم استولى على غرناطة بعد مغامرات عديدة[1] وجعل من هذه المدينة عاصمة مملكته وذلك سنة 635 / 1238 .

---

(1) انظر التفاصيل فى إسبانيا الإسلامية فى عهد بنى نصر ، ص ، 56 و 57 .

وإن غرناطة ــ خلافا للمدن الأخرى ــ مدينة حديثة العهد إذ لم يعثر عليها فى كتب التاريخ الأندلسى إلا فى بداية القرن الخامس الهجرى إبان عهد ملوك الطوائف وإن مركز هذه المنطقة كان فيما مضى المدينة العتيقة « البيرة » التى استوطنها بنو زيرى وهؤلاء ينتمون إلى أصل بربرى وقد جاءوا من شمال إفريقيا ولعبوا دورا هاما فى الجيوش الأندلسية وإن الخليفة سليمان المستعين ــ زعيم الحزب البربرى ــ هو الذى تكرم عليهم بهذا المركز جزاء على ما قاموا به فى تمهيد السبيل له لارتقائه على العرش[2] .

ومدينة البيرة ــ الواقعة فى أعلى الوادى الشنيل ــ كانت ذات أهمية ما والمعروف أنها كانت تتمتع بالسعة والرخاء بفضل ثرواتها المعدنية والزراعية ولكن سرعان ما فقدت دورها كعاصمة فحلت محلها قرية صغيرة حقيرة من ضواحيها ألا وهى غرناطة آنذاك . وهذا الأمير عبد الله الصنهاجى[3] آخر أمراء بنى زيرى الذى يطلعنا فى « مذكراته » على الأسباب التى دفعت الأسرة الملكية إلى الهجرة من البيرة إلى غرناطة إذ يقول :

« فأفتنهم المكان وعملوا عليه كل حساب ورأوا أنه فى وسط النعم وجمهور الرعايا وأن العدو متى نازله لم يطق له إحضاراً ولا منعه داخلا ولا خارجا البتة فى كل ما يحتاج إليه الناس من المرافق فشرعوا فى بنيانه وتولى كل امرىء منهم إقامة داره من أندلس وبربر وخربت عند ذلك البيرة[4] .

وإن محمد بن الأحمر أول بنى نصر المعروف بالشيخ كان يعد من الشخصيات البارزة وقد خصه بالذكر المؤرخ الشهير ابن الخطيب فأثنى عليه مشيرا إلى مهارته وذكائه ومؤكدا على ما كان يتمتع به من خصال حربية إذ كان على

---

(2) أعمال الأعلام : ص ، 139 .

(3) هو عبد الله بن بولكين بن باديس بن حبوس بن زيرى بن مناد الصنهاجى ولد سنة 447 هـ . وخلعه المرابط يوسف بن تاشفين سنة 483 هـ . وهو الأمير الرابع لغرناطة .

(4) « الأندلس » 7 ص ، 6 - 1941 .

حد تعبيره « جنديا ثغريا شهما أبدا عظيم التجلد رافضا للدعة والراحة .. جافى السلاح شديد الحزم موهوب الإقدام عظيم التشمير محتقرا العظيمة فظا فى طلب حقه مباشرا للحرب بنفسه[5] » فهذا الزعيم الفذ ــ بعد ما تلقب بلقب أمير المسلمين ــ قصد مع حاشيته إلى برج بنى زيرى القديم وجعل منه مستقرا له . وكان هذا البرج ــ المعروف بالقلعة الحمراء أو الحمراء باختصار ــ منصوبا على الحافة اليسرى للوادى الكبير وسبب وصفه بهذا اللون يعود ــ حسب ما يبدو ــ إلى احمرار تربة موقعه أو مواد البناء التى استعملت لتشييده .

وما كان يهم محمد بن الأحمر بعد استيلائه على العرش هو الاحتفاظ به والذود عنه حتى يثبت له فلا ينافسه فيه أحد . فرأى أن السبيل الوحيد الموصل إلى تدعيم مملكته الصغيرة هو توسيع هذه بتحقيق فتوحات جديدة وشاء القدر أن يوفق فى سعيه إذ أصبحت مدينتا مالقة والميرية خاضعتين لحكمه . ولا حاجة إلى الإشارة إلى أهمية هاتين القاعدتين من حيث موقعهما على شاطىء البحر الأبيض المتوسط . وبقى من جهة أخرى لمحمد بن الأحمر أن يتقى شر عدوه الألد ألا وهو العدو المسيحى القوى إذ كانت الجيوش المسيحية تشكل خطرا حقيقيا على المملكة الغرناطية وهى فى حداثتها . فالانتصار عليها عسكريا أمر مستحيل آنذاك لم يخطر ببال الأمير فكان عليه أن يجد حلا آخر والحل الوحيد الذى كان لديه هو أن يصبح « تابعا » للأسرة الملكية القسطلية . وهذا ما يسمح له فى نفس الوقت اتّقاء عدوان منافسيه من المسلمين[6] .

وبهذه الطريقة بلغ ابن الأحمر غايته فعرفت الدويلة النصرية الاستقرار والهدوء طيلة عشرين سنة ورغم ذلك فإن الأمير لم يكتف بما حصل عليه إذ رأى من اللائق ــ لتدعيم مملكته ــ أن يستمر فى البحث عن حلفاء آخرين أقوياء يستند إليهم عند الحاجة ففكر فى الدولة الحفصية بتونس من جهة وفى الدولة المرينية

---

(5) انظر الإحاطة ج 2 ص ، 65 واللمحة ص ، 30 .

(6) انظر ليفى بروفنصال فى الحوليات الجامعية الجزائرية رقم 5-6 سنة 1937 .

بفاس من جهة أخرى وقد توصل إلى أن كانت له معهما علاقات طائلة وثيقة(7) .

وبعد وفاة محمد بن الأحمر لم يشهد التاريخ للأمراء الذين توالوا على العرش بما هو جدير بالذكر إذ لم يكونوا فى مستوى أولهم غير أنهم قد استطاعوا أن يحافظوا على ما ورثوه ضامنين للمملكة الغرناطية البقاء رغم الأجواء المضطربة السائدة آنذاك وهذه النتيجة المعتبرة كانت ثمرة سياسة التوازن التى انتهجوها بين الأطراف المعنيين فاعتمدوا تارة على الدولة المرينية ضد المسيحيين وتارة أخرى على هؤلاء الأخيرين ضد تدخل حلفائهم بالأمس فى شؤون دولتهم .

بإن سمحت هذه السياسة لأصحابها أن يبلغوا الغاية المنشودة فإنها قد كانت فى نفس الوقت تكن فى طياتها أخطارا مما لا تحمد عقباه . وبالفعل فإن بنى مرين قد اجتازوا المضيق مرات عديدة كما كان الأمر فيما مضى بالنسبة للمرابطين لاستجابة دعوة ملوك الطوائف للدفاع عن الإسلام المهدد من طرف الكفار تأدية لفريضة الجهاد فى سبيل الله ولكن هذا لم يمنعهم من التفكير فى حقوقهم العاجلة فطالبوا فى مقابل مساعدتهم بأن يسمح لهم بالإقامة بالجزيرة الخضراء وطريف بالمضيق وكذلك برندة داخل البلاد وذلك حسب ما كانوا يدعون لبلوغ هدفين : أولهما الانتهاء من الذهاب والإياب بين العدوتين والثانى أن الإقامة عسكريا فى حد ذاتها تهديد مستمر بالنسبة للعدو المشترك . فكونت إثر ذلك « ميلشيات » معروفة بالغزاة وهؤلاء كما لاحظه المستشرق ليفى بروفنصال ما « هم إلا أحداث يرغب فى إبعادهم ومغامرون أصبحت إقامتهم ببلادهم غير مستحبة(8) » . ومن جهة أخرى فإن أبا يوسف المرينى كما علق عليه المؤرخ شارل ديفورك قد بين لقشتالة والأراغون أنه من المحتمل أن يشكل المغرب خطرا حقيقيا عليهما(9) .

---

(7) انظر آربى ف : إسبانيا النصرية ، ص ، 64 .

(8) انظر : الحوليات الجامعية الجزائرية رقم 5 - 6 سنة 1937 .

(9) انظر : ديفورك فى كتابه : إسبانيا الكتالنيا ص ، 196 .

وينبغى أن ننتظر السنة 733 هـ / 1333 ميلادية لنشاهد الارتقاء على العرش لشخصية بارزة تتمثل فى أبى الحجاج يوسف الأول المؤيد بالله الأمير السابع من أسرة بنى نصر فهذا الشاب ـــ إذ كان فى الخامسة أو السادسة عشرة من العمر ـــ كان « بدر الملوك وزين الأمراء » على حد تعبير المترجم له ابن الخطيب[10] ويرى عبد الله عنان من جهته أنه كان أعظم ملوك بنى نصر وأبعدهم همة وأجمعهم خلالا وكان عالما شاعرا يحمى الآداب والفنون[11] . ففى أيامه بنيت المدرسة العجيبة بكر المدارس بحضرته[12] . فإن اشتهر بالشجاعة والذكاء فلقد كان معروفا أيضا بميله إلى الهدنة والصلاح والخير فكانت من أعماله الأولى أن سعى إلى تحقيق معاهدة سلمية بينه وبين الملك القشتلى من جهة وبينه وبين السلطان المرينى من جهة أخرى وهذا ما جعل مملكته تتمتع بالهدوء والاستقرار ولكن مع الأسف عليه لم تساعده الظروف حتى يتجنب حربا قاسية عليه وعلى رعيته إذ اضطر إلى الاستنجاد بالخليفة المرينى أبى الحسن ليؤازره ضد جيوش ملك قشتالة الجرىء ألفونس الحادى عشر ولكن التاريخ لا يعاد فالأميران المسلمان لم يعرفا سعادة الانتصار كتلك التى عرفها المعتمد بالله ملك إشبيلية وحليفه المرابطى يوسف بن تاشفين فى واقعة الزلاقة . بل ذاقا مرارة انهزام جيوشهما بطريف وذلك سنة 741 هجرية / 1340 ميلادية فالتحق كل من الأميرين النصرى والمرينى بعاصمته وحق للمنتصر المسيحى أن يفرض عليهما شروطا محرجة لعلمه أنها ستقبل لا محالة من طرف منافسيه وهكذا اضطر هذان الأخيران إلى دفع غرامات باهظة فى مقابل سلام مشكوك فيه وبالفعل فما مرت سنتان حتى أصبح المتوقع حقيقة إذ نشبت حرب ثانية بين الجيشين الإسلامى والمسيحى سنة 743 هـ / 1343 م . وبعد سنة توقف القتال بين الخصمين وذلك بعد سقوط الجزيرة الخضراء فى يد الملك القشتلى

---

(10) انظر : اللمحة البدرية ، ص ، 89 .

(11) انظر : مقدمة عنان لكتاب الإحاطة .

(12) انظر : اللمحة ، ص ، 96 .

ألفونس الحادى عشر الذى رضى عندئذ بإبرام عقد سلام بينه وبين جاره لمدة عشر سنوات ولكن لم يتمتع أهل غرناطة بهذه الهدنة الطويلة إلى غايتها حسب ما يرام . إذ لم تمرّ عليهم إلا أعوام قليلة حتى شاء القدر أن يعكر عليهم الجو من جديد بما بلوا به من محنة الوباء الذى عمّ البلاد شرقا وغربا من سنة 749 هـ إلى سنة 751 هـ أى ثلاث سنوات لا نهاية لها قد شهدت خسائر ضخمة وضحايا عديدة ونخص بالذكر من بين هذه الملك القشتلى نفسه والوزير ابن الجياب ووالد المؤرخ الشهير ابن الخطيب . وقد خلّفت هذه المحنة الأليمة آثارا عميقة فى نفوس الناس ولا سيما الشعراء الذين تحركت أقلامهم للتعبير عما كان يختلج بصدورهم من عواطف بنغمات حزينة أمام تلك المشاهد الرهيبة التى كانت نصب أعينهم فابن الخطيب من جهة وابن خاتمة الأنصارى[13] من جهة أخرى خلّفا لنا رسالتين يغمرهما التحسّر والتأسّف فى وصف هذه الكارثة وما عاناه الناس من جرّائها .

وإنه رغم هذه الآفة الطبيعية ورغم الانهزام الشديد بطريف فإن المؤرخين بدون استثناء يعتقدون أنّ الدولة النصرية قد بلغت أوجها فى عهد أبى الحجاج وأن غرناطة قد عاشت فعلا أسعد أوقات تاريخها . لقد كان أبو الحجاج « كلفا بالمبانى[14] » ويعود الفضل إليه وإلى مساعديه الحاجب رضوان والشاب ابن الخطيب فى الإضافة إلى قصر الحمراء أعظم منشآته . « وفى أيامه بنيت المدرسة العظمى وفى عهده بنى الحصن السّامى الذّروة فى الجبل المتصل بقصبة مالقة[15] » . وفضلا عن هذا فقد كان أبو الحجاج مثقفا حاميا للآداب والعلوم مقرّبا الشعراء والفنانين متذوقا إنتاجهم فليس من الغريب إذن أن ازدهرت فى عصره الحركة الأدبية والفكرية ، عصر أنجب عددا بالغا من

---

(13) هو أبو جعفر بن خاتمة ولد بالمريّة سنة 724 وتوفى سنة 770 وكان أديبا وشاعرا مبرزا .

(14) انظر : اللمحة البدريّة ، ص ، 89 .

(15) انظر : اللمحة البدرية ، ص ، 96 . وأعمال الأعلام ، ص 5 - 4 - 3 .

الشخصيات البارزة له أن يفتخر بها ولو اقتصر على ابن الجياب وابن الخطيب لكفى وهذا عبد الله عنان الذى يلخص لنا ما يستحب أن يقال فى حق هذا العصر قائلا : « بلغت العلوم والآداب الأندلسية أوج التقدم والازدهار وسطع بلاط غرناطة وكاد يعيد بفخامته وبهائه ذكريات بلاط قرطبة[16] » ورغم هذا فإن هذا الأمير مات قتيلا بيد أحد عبيده يوم عيد الفطر سنة 755 هـ / 1354 م .

من بين أبنائه الثلاثة محمد الخامس الملقب بالغنى بالله هو الذى خلفه على العرش وقد استمر هذا الأمير الشاب فى طريق أبيه فحذا حذوه فاحتفظ هكذا بالحاجب رضوان وبابن الخطيب ــ الذى صار فيما بعد وزيرا له ــ لخبرتهما السياسية فتأتّى للمملكة الغرناطية أن استمرت تعيش متمتعة بالهدوء والسلام .

إن الغنى بالله يعدّ من أعظم رؤساء الدولة آنذاك وإن المترجمين له وبالخصوص المؤرخ ابن الخطيب[17] الذى أطال الكلام عنه فى كتابه الإحاطة ــ قد أكدوا على ما كان يتميز به من خصال إذ كان رجلا سياسيا بأتم معنى الكلمة كما كان ذا ثقافة واسعة ــ وإن حبّه للعدل كان يدفع به إلى الجلوس بنفسه خمسة عشر يوما فى الشهر حسب تصريح ابن الخطيب ليستقبل الناس ويصغى إلى شكاويهم وينظر فى قضاياهم كما اشتهر بالحلم والكرم فكان يساعد الفقراء والمساكين واليتامى والإماء ويعود الفضل إليه فى الأمر ببناء المارستان بغرناطة .

## غرناطة : موقعها الجغرافى :

إن المملكة النصرية التى وصفها المستشرق ليفى بروفنصال بالصغر المفرط تقع فى جنوب مملكة قشتالة وتفتح على البحر الأبيض المتوسط من مضيق جبل

---

(16) انظر : عنان فى : لسان الدين بن الخطيب ، ص ،.

(17) انظر : الإحاطة ج 11 ، ص ، 2 إلى 59 .

طارق إلى مدينة الميرية وتمتد داخلا إلى مدينتى جيان ورندة الواقعتين على الحدود الطبيعية التى تكونها الجبال العالية .

وإن غرناطة عاصمة المملكة تنتصب على ستمائة متر علوا فى أسفل الجانب الشمالى الغربى لجبل « السييرة نيفادة » المعروف بجبل الثلج حسب تعبير الحميرى[18] .

إن جميع المؤرخين والجغرافيين وبالأحرى من الشعراء الذين كانت لهم صلة بإسبانيا الإسلامية قد أثنوا على غرناطة وعبروا عن إعجابهم بجمالها مشيرين إلى ثرواتها وخصوبة سهولها وكثرة مياهها واعتدال جوها . وقد قال ابن الخطيب نقلا عن كتاب البيرة لأبى القاسم الفلاحى ما يلى : فهى ( غرناطة ) فى وقتنا هذا قاعدة الدنيا وقرارة العليا وحاضرة السلطان وقبة العدل والإحسان لا يَعْدِلُها فى داخلها ولا خارجها بلد من البلدان ولا يضاهيها فى اتساع عمارتها وطيب قرارتها وطن من الأوطان ولا يأتى على حصر أوصاف جمالها وعدّ أصناف جلالها قلم البيان[19] .

وهذا عبد الله بن بولكين الزيرى الذى يصور لنا أحسن تصوير المشهد الرائع الذى عرضته غرناطة على الزيريّين يوم وصولهم إليها فقال هو الآخر : « فوقعت أعينهم على بسيط جميل قد أجمع الأنهار والأشجار وجميع ما يليه من البلد كله ينسقى من وادى شنيل[20] » .

ولا يفوتنا بطبيعة الحال أن نشير إلى ابن الخطيب الذى خصص لغرناطة أجزاء من مؤلفاته فعرّفنا بها من جميع الجوانب وتأتّى له مرة أن يتأمل المساحات الشاسعة المكتسية بالنباتات والكروم فخطرت بباله هذه الصورة البليغة إذ قال :

---

(18) انظر : الروض المعطار ، رقم 19 ، ص ، 29 .

(19) انظر : الإحاطة ، ج 1 ، ص ، 13 .

(20) انظر : « مذكرات » فى مجلة الأندلس ج ص ، 6 سنة 1941 .

« والعنب بحر لأناقة كرومه[21] » .

إن غرناطة وسهولها التى تمتد مساحتها على 44 ألف هكتار[22] تتمتع بهذه المنزلة الممتازة بفضل نهر الفلوم الذى ينحدر من جبل الثلج فيقطع المدينة بعد اختلاطه بمياه الشنيل ويزوّد الديار والحمامات والأسواق قبل أن ينطلق نحو الجنات الغاصة بأشجارها المثمرة المتنوعة من أجاص وخوخ وحب ملوك وتفاح وتوت تلك الأشجار التى تزيد البساتين رونقا ويناعة أطال الشعراء فى وصفها .

وإن أغلبية سكان غرناطة كانوا مزارعين فاهتمامهم بالأرض والفلاحة أدى بهم إلى ابتكار تقنيات وأساليب زراعية فى غاية التقدّم بالنسبة لزمنهم وهذا ما ساعدهم على تطوير وتنويع البقول والفواكه المستعذبة إلى حدّ بعيد وهذا الجغرافى عبد المنعم الحميرى الذى نستشهد به فى هذا المجال إذ قال : « وفحص البيرة أطيب البقاع نفعة وأكرم الأرضين تربة ولا يعدل به مكان غير غوطة دمشق وشارحة الفيوم ولا تعلم شجرة تستعمل وتستغل إلا وهى أنجب شيء فى هذا الفحص وما من فاكهة توصف وتستظرف إلا وما هناك من الفاكهة فوقها ويجود فيها من ذلك ما لا يجود إلا بالساحل من اللوز وقصب السكر وما أشبههما وحرير فحص البيرة هو الذى ينتشر فى البلاد ويعمّ الآفاق وكتان هذا الفحص يربو جيده على كتان النيل ويكثر حتى يصل إلى أقاصى بلاد المسلمين[23] .

ولمن المعروف أن « فلورانس » كانت أهم مدينة مستوردة للحرير الغرناطى حرير ـــ كما علق عليه ابن الخطيب ـــ لا يماثله إلا حرير العراق وذلك إلى نهاية القرن التاسع الهجرى ، وتجدر الإشارة إلى أن جميع المغروسات المعروفة

---

(21) انظر : اللمحة 28 .

(22) انظر : آربى فى إسبانيا النصرية ص ، 38 .

(23) انظر : الروض المعطار رقم 19 ص ، 24 .

حول البحر الأبيض المتوسط موجودة بغرناطة وإلى جانب حقول مترامية الأطراف من شجر الزيتون كانت توجد حقول شاسعة من الكروم بمالقة كروم لازال عنبها مشهورا إلى يومنا هذا كما كان يغرس القطن الذى أدخله العرب إلى الأندلس مثل النباتات العطرية والطبية .

وليست مملكة غرناطة بلدا زراعيا فحسب إذ كانت تحظى من جهة أخرى بثروات معدنية غزيرة سمحت لها بإنشاء وتطوير صناعة يدوية عرفت هى الأخرى ذروة الازدهار ، وبالفعل فإنه كان يوجد بباطن أراضيها ـــ فضلا عن الذهب والفضة ـــ الحديد والنحاس والرصاص وحجر التوتيا . وقد تميزت غرناطة فى ذلك العهد بصناعة الأسلحة وهذا ما جعلها ـــ حسب ما يبدو ـــ قوية عسكريا . كما تميزت بصناعة الأوانى القيمة النادرة من الفخار المذهب ـــ ولا سيما مدينة مالقة ـــ وبصناعة الورق وأمور أخرى متنوعة سواء من الحديد أو الجلود أو الزجاج خاصة بمدينة الميرية[24] .

وإن هذه المنتـجات كلها كانت هى الحافز الأساسى لفتح المجال أمام تجارة مزدهرة ولا سيّما فى الخارج ، كما تدلّ عليه الحركة الشديدة التى عرفها المرسيان « مالقة والميرية » لتصدير هذه البضائع المتنوعة نحو المغرب والشرق ونحو إيطاليا وجنوة وقد أصبحت غرناطة أثناء القرن الثامن والتاسع الهجرى أهم مركز تجارى فى جنوب أوروبا .

وإنه لمن الطبيعى أن تعكس هذه الحالة الاقتصادية الزاهرة ـــ التى كانت توفر لغرناطة عائدات ملموسة ـــ حالة اجتماعية فى نفس المستوى . وأهل غرناطة [illegible] شرقا وغربا فى القرون الوسطى ينقسمون إلى طبقتين « الخاصة » من جهة « والعامة » من جهة أخرى وكان يقدر آنذاك عدد الجميع بنصف مليون يسمح بتجنيد 150 ألف رجل إذا ما اقتضى الأمر ذلك . وإن هذا العدد ليبدو هائلا بالنسبة لمملكة ذات مساحة محدودة كما لاحظناه سابقا . ولكن إذا ما

---

(24) انظر : النفح ج 1 ص ، 140 - 141 - 142 .

تأملنا هذه الظاهرة تجلّى لنا ما يفسّرها ، ففى القرن الثامن الهجرى قد أصبحت غرناطة الملجأ الوحيد للمسلمين الذين غادروا ديارهم ومدنهم فارّين أمام العدو القشتلى فبهم تعززت غرناطة اقتصاديا وثقافيا . فانضاف هؤلاء إلى الأهالى ذوى الأصول المختلفة عرب من دمشق وبربر من شمال إفريقيا ومولدون إلى جانب أقلية معتبرة من اليهود . فالكلّ كان يرى فى الإسلام أداة توحيد المجتمع فكوّنوا هكذا أمّة غرناطية متماسكة سمحت لغرناطة أن تقاوم العدوّ المسيحى وتضمن بقاءها . وهذا المؤرخ عبد الله عنان يحاول أن يفسر لنا سبب هذا التضامن بين أفراد وطبقات مملكة غرناطة فقال : إن ذكرى المظالم السابقة وآلام المطاردة المحزنة وأمل الانتصاف ... فكان الاندماج السياسى لهذه الجماعات المنفية المضطهدة هو الذى عاون على حفظ مملكة غرناطة[25] . وأما المستشرق ليفى بروفنصال فإنه أدلى برأى آخر وقد ذهب إلى القول بأن هذه الأمّة كان يعوزها « الشعور بشخصيتها و لم يخالجها أبدا ـــ حسب ما يبدو ـــ أى وعى وطنى بأتم معنى الكلمة[26] » .

ومهما كان الأمر فإن المؤرخين وعلى رأسهم ابن الخطيب متفقون على القول بأن سكان غرناطة الذين كانوا يتمتعون بمستوى معيشة مرتفع يتميزون بانشراح الصدور والبشاشة والانبساط وعدم المبالاة والميل إلى الحياة الرغدة . إذ كان لا يرى هذا الشعب الحياة إلا أعيادا متوالية يسعدون بها[27] فإلى جانب الأعياد الإسلامية التى يحتفل بها فى الأبهة والزهو تضاف حفلة النيروز . وهو غرة السنة الإيرانية وفى المهرجان ـــ موسم قطاف العنب ـــ يغادر السكان المدينة لينتشروا فى الأرياف مرتدين أجمل ثيابهم بألوانها الزاهية . « كأنهم الأزهار المتفتحة فى البطاح الكريمة[28] » ، ويلاحظ ابن الخطيب مرة أخرى أن

(25) انظر : نهاية الأندلس ص ، 53 .

(26) انظر مقالة : غرناطة الإسلامية ص ، 12 .

(27) انظر : ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 ،ص ، 143 .

(28) انظر : اللمحة ، ص ، 27 .

الغناء كان فاشيا بهذه المدينة ـــ وحتى بدكاكين الحرفيين ـــ وكان يقصد إليها العديد من الشبان للهو والنزهة . إن السيدة آربى ـــ معتمدةً على المؤرخ لافونت الكنترة ـــ قد لاحظت « أن الاحتفالات كانت تستغرق شطرا كبيرا من الليل . فشوارع غرناطة كانت مكتظة بجمهور غفير فالرجال والنساء كانوا يرشون بعضهم بعضا بالماء المعطر ويترامون بالبرتقال والليمون وباقات الأزهار بينما يزعج الغناء والضجيج والرقص الأتقياء فى نومهم[29] » .

وتجدر الإشارة إلى تطور المرأة التى أصبحت ـــ حسب ما يبدو ـــ تتمتع بالحرية الاجتماعية[30] التى تسمح لها بالمشاركة فى الحياة العمومية . وهذه السيدة آربى تقول فى هذا الشأن[31] « بأن علامات عديدة تدلّ على أن الرجال والنساء فى الأحياء الشعبية الأندلسية كانوا يرغبون فى الالتقاء بالأماكن العمومية أو أوقات الصلوات أو فى مناسبات الزفاف وذلك منذ العهد المرابطى » . وهذا ما أدى بليفى بروفنصال[32] إلى تعليل هذه الظاهرة معتقدا أن تطور المرأة الأندلسية راجع إلى بقايا غامضة لنظام الأمومة . وقد ذهب بعد مدة إلى الجزم بنفى هذا التطور فقال : فى الاحتفالات وفى الاستقبالات كانت النساء لا تختلط بالرجال ـــ من دون شك ـــ أبدا وذلك رغم ما قيل فى هذا الموضوع . فالوسط الغرناطى إلى يوم نهايته ـــ حسب ما يبدو ـــ قد أبدى تمسكا كبيرا بالمبادىء الإسلامية . ومع هذا فإن ابن الخطيب الذى عاش فى هذا المجتمع يذكر لنا ما عاينه بنفسه إذ يقول فى كتابه خطرة الطيف[33] أنه بمدينة وادى آش سنة 755 هـ / 1354 م كانت نساء سافرات يختلطن بالرجال يوم قدوم يوسف الأول بحيث لا يدرى أينظر إلى لمعان العيون أم لمعان الرماح إلى حمرة البنود أم حمرة الخدود .

---

(29) انظر : إسبانيا النصرية ، ص 401 وتاريخ غرناطة ، ج 3 ، ص7 - 166 .

(30) انظر : نهاية الأندلس ، ص 192 .

(31) انظر : إسبانيا النصرية ، ص ، 366 .

(32) انظر : إسبانيا الإسلامية ج 3 ، ص 3 - 402 .

(33) انظر : خطرة الطيف ، فى مشاهدات لسان الدين ص 50 .

فيسوغ لنا إذن أن نلاحظ أن تطور العادات والتقاليد فى المجتمع الأندلسى لا يتنافى ومبادىء الإسلام كما يدّعيه ليفى بروفنصال . فإنّ المذهب المالكى السائد آنذاك رغم حرصه الشديد على التمسك بالدين لم يعارض هذا التطور الذى مسّ ــ حسب ما يبدو ــ الطبقات الاجتماعية كلها وقد يعتبر هذا تقدما ملحوظا بالنسبة للقرون السابقة حيث كانت المرأة المتطورة لا تنتمى إلا إلى الخاصة وحدها . فابن الخطيب عندما يصف الوسط الغرناطى يلاحظ أن « أحوال أهل هذا القطر فى الدين وصلاح العقائد أحوال سُنّية والأهواء والنِّحل فيهم معدومة ... وطاعتهم للأمراء محكمة وأخلاقهم فى احتمال المعاون الجبائية جميلة[34] » وقد يبدو أن الشعب كان شعبا مسالما محبّا للحياة الرّغدة ميّالا للهو والتمتع بالحاضر . فإنّه كان يشكل مجتمعا يذكرنا من شتى الجوانب بمجتمع عصر الطوائف .

ومن الجلى أن ظروفا اجتماعية واقتصادية مثل التى أشرنا إليها بإيجاز تساعد الإنتاج والتطور الثقافى بصفة ملموسة . وإن مؤرخى غرناطة قد أجمعوا على القول بأن القرن الثامن الهجرى هو القرن الذى عرفت الدولة النصرية فيه عصرها الذهبى فى هذا الميدان . وهذا ما سمح لابن الخطيب أن يخصص كتابا كاملا ذا عنوان يغنينا عن أى تعليق ألا وهو « الكتيبة الكامنة فيمن لاقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة » الذى اقتصر فيه صاحبه على الشعراء والكتاب الذين عاشوا فى هذا العصر وبعد التعريف بهم انتقى المؤلف جواهر أشعارهم أو نثرهم ليبرهن على المستوى الذى توصلوا إليه فى الفن والأناقة والرقة . ولا يفوتنا أن نشير إلى الشقندى[35] الذى يأتينا فى رسالته بما يلخص كل ما قيل

---

(34) انظر : اللمحة ، ص ، 27 .

(35) هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد توفى سنة 629 وهو صاحب الرسالة المشهورة فى تفضيل أهل الأندلس على العدوة ، انظر النفح ج 1 ص ، 147 تعليق 4 .

فى حق هذا الزمن بغرناطة فقال : أمّا غرناطة فإنها دمشق بلاد الأندلس ومسرح الأبصار ومطمح الأنفس ولم تخل من أشراف أماثل وعلماء أكابر وشعراء أفاضل .

وهكذا يتبين لنا أن المرأة لعبت دورا معتبرا فى العالم الأدبى . إلا أنه مع الأسف لم يحتفظ لنا التاريخ إلا بمقطوعات شعرية مختارة أورد أكثرها المقرى فى كتابه نفح الطيب . وما تجدر الإشارة إليه لكونه أمرا نادرا هو وجود نساء عالمات بغرناطة فابن الخطيب يذكر أم الحسن[36] بنت الحكيم الشهير أبى جعفر الطنجلى[37] .

والمستشرق برانشفيق يلفت النظر من جهته إلى الشاعرة أم العطاء السيدة العبدرية[38] اللاجئة بتونس مع أبيها والتى اختصت بالتعليم إلى يوم وفاتها .

فهذه الحركة الأدبية والفنية نشأت وترعرعت بفضل الأمراء النصريين الذين كانوا يقربون الأدباء والشعراء لميلهم إلى هذه الفنون إذ كان البعض منهم يقرض الشعر ولنذكر من بينهم الأمير يوسف الذى خلف لنا ديوانا يبرهن على ما قيل فى حق هؤلاء . وفيما يخص القرن الثامن فإنه كان من الطبيعى ـــ إن سمح لنا بهذه العبارة ـــ أن يزخر بشعراء عظام كانوا ولا زالوا مفخرة الثقافة العربية وكفاك بذكر ابن خاتمة الأنصارى[39] وابن سلبطور[40] وكلاهما من الميرية ومحمد بن الجزىء[41] شاعر وكاتب فى خدمة السلطان الحجاج قبل أن يلتحق ببلاط أبى عنان المرينى ، وافته المنية وهو فى عنفوان الشباب وأبو سعيد ابن لب[42] الذى يعتبر من أشهر أساتذة المدرسة الغرناطية ، ومن بين الوزراء

---

(36) انظر : الإحاطة ط . عنان ، ص ، 39 - 438 .

(37) المتوفى سنة 750 هـ / 1349 م .

(38) انظر : إفريقيا الحفصية ج 2 ، ص 175 ، ونفح الطيب ج 6 ، ص 25 .

(39) ولد بالميرية سنة 724 وتوفى بها سنة 770 .

(40) تاريخ نشأته مجهول وتوفى بمراكش فقيرا سنة 755 .

(41) ولد بغرناطة سنة 721 وتوفى بمراكش سنة 757 .

(42) ولد سنة 673 وتوفى سنة 747 بالطاعون .

الذين كانوا فى نفس الوقت شعراء يقتدى بهم فلنذكر ابن الجياب[43] وخليفته ابن الخطيب ـــ المشهور أيضا بصفته مؤرّخا ـــ والذى خلف لنا ديوانا عنوانه : « الصيب والجهام والماضى والكهام[44] » الذى لم يعثر عليه إلا منذ قليل ، وأخيرا الوزير ابن زمرك الذى هو موضوع بحثنا ومن بين الأمراء نقتصر على أمير مالقة المعروف بابن الأحمر صاحب « نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان » و « نثير الجمان فى شعر من ضمّنى وإياه الزمان » .

وما تجدر الإشارة إليه هو أن الشعر لم يبق داخل القصور والأندية الخاصة ليسلى ويطرب ممثلى الأرستوقراطية وإنما تخطى الجدران والحواجز ليصل إلى العامة وينتشر فى الطبقات الاجتماعية كافة ، فلم يكن من الضرورى أن يتمتع الإنسان بثقافة واسعة ليستحسن الشعر ويتذوقه ويرجع ذلك إلى الانتشار الهائل للموسيقى التى لعبت دورا هاما فى جعل الشعر متداولا بين الناس يتغنى به الجميع ، وما يؤكد ذلك هو أن ابن الخطيب قد لاحظ بنفسه أن الشعر كان يسمع حتى فى دكاكين غرناطة وهذه الظاهرة تذكرنا بعصر مضى ألا وهو عصر ملوك الطوائف حيث كان من الشعراء المغنين ـــ المحترفون والفلاحون والتجار الصغار الذين كانوا يقرضون الشعر طيلة النهار وهم يعملون .

فهذا الإقبال الشديد على الشعر دفع الأندلسيين إلى التحرر من القيود المحرجة للقصيدة الكلاسيكية ذات القافية الواحدة ، وفتحوا هكذا أمامهم مجالا واسعا سمح لهم بإبداع واختراع ألوان جديدة من الشعر كانت الغاية منها التغنى بها ونعنى بذلك الموشحات التى ـــ وإن كانت معروفة بالأندلس ـــ تبوأت منزلة عظيمة آنذاك بحيث أصبح الشعراء وحتى الفحول من بينهم مهتمين بهذا اللون بحماس بالغ كما كان لا يفوت شعراء البلاط أن يضيفوا إلى قصائدهم المدحية

---

(43) ولد بغرناطة سنة 701 .

(44) حققه وقدم له شريف قاهر الجزائر 1973 .

موشحات إرضاء لحماتهم وإجابة لذوق الجماهير .

وإن شاعرنا ابن زمرك ليعتبر شاعرا موشحا مجيدا ، فشعره الذى سنتعرض لدراسة ما تبقى منه فيما سيأتى لا زال يتغنى به إلى اليوم فيما جرت العادة بتسميته : « الموسيقى الأندلسية » .

وإلى جانب الموشحات ينبغى أن نلفت النظر إلى نشأة لون جديد من الشعر انفردت به الأندلس وهو ما يسمّى بالزجل وهو شعر شعبى بأتم معنى الكلمة لما اتسم به من أسلوب بسيط باللهجة الدارجة مع استعمال مفردات وعبارات رومانية غربية أصبحت اليوم غامضة المعنى لدينا لعدم الاهتمام بتدوينها وشرحها وهذا ما جعل دراسة هذا اللون من الشعر فى غاية الصعوبة[45] ، كما اعترف به الأهوانى من جهة وغارسية قوماس من جهة أخرى ، ومهما كان الأمر فهذا الشعر كان يستميل الأندلسيين إلى حدّ بعيد ، ولقد تمتع ممثله ابن قزمان[46] بشهرة لم يتمتع بها الكثير من الشعراء الفصحاء .

إلا أن الزجل ككل إنتاج جاءباللهجات المحلية لم يحتفظ و لم يبلغنا منه إلا النزر القليل ما عدا ديوان ابن قزمان الذى توجد منه نسخة فريدة بلينتقراد هى فى انتظار من يهتم بها حتى تكون فى متناول اليد . وقد يعود هذا الإهمال إلى اعتقاد الباحثين بأن الإنتاج الذى لم يأت باللغة الفصحى لا يستحق أن يعتنى به فتبذل فى سبيله جهود مرهقة ولعل وجهة النظر هذه ستتغير فى مستقبل قريب .

وإنه لمن الجلىّ أن تطوّر وانتشار هذه الألوان الجديدة من الشعر لم تمنع الشعر الكلاسيكى ولا سيما شعر البلاط من السيادة ، إذ بقى هذا الأخير محتفظا بجميع حقوقه المتمثلة فى الأغراض المطروقة بدون استثناء بمفاهيمها الموروثة عن الأجيال السابقة . إلا أنه ينبغى أن نلاحظ أن شعراء الأندلس لم يقتصروا على المدح والفخر عقب انتصارات الجيوش الإسلامية على النصارى . وإنما كان عليهم أن

---

(45) انظر : الأهوانى فى كتابه : الزجل ، ط . القاهرة .

(46) ابن قزمان : توفى سنة 505 هـ .

يتأسفوا ويذرفوا دموعاً حارة عقب فقْد مدن أصبحت من نصيب العدوّ المسيحى . وهذا ما سمى « برثاء المدن » وصلتنا منه مقطوعات تضمنتها كتب التاريخ .

وقد سايرت هذه الحركة الأدبية الزاهرة حركة دينية ليست دونها نشاطاً كان لها أن تفتخر هى الأخرى بممثلين ذوى صيت بعيد . فإن كان القرآن وتفسيره والفقه وتحليله ــ ولا سيما المذهب المالكى ــ هما الشغل الشاغل لعلماء الدين والفقهاء فإنه من الجدير الإشارة إلى الاهتمام بالتصوف الذى أصبح موضوع بحوث واسعة أقبلت عليها شخصيات بارزة أمثال ابن فرحون القرطبى[47] صاحب « الديباج المذهّب » وابن يحيى الأنصارى[48] وابن مرزوق التلمسانى الذى سنخصه بالذكر فيما يلى . ولكن هؤلاء الفقهاء والمتصوّفين قد أحسنوا التصرف حتى وفّقوا بين الدنيا والآخرة فحبهم للآجلة لم يجعلهم يفرطون فى مزايا العاجلة . وإن دورهم السياسى كانت له أهمية كبرى وكلمتهم كانت مسموعة يخشاهم القوى والضعيف . وكم من مرة استعملوا سلطتهم لبلوغ غايتهم . وإن ابن الخطيب الوزير رغم قدرته ومنزلته فى عهد محمد الخامس قد ناله ما ناله منهم وأصبح ضحيتهم ! ألم يتهم بالكفر حتى قضى عليه ؟

ومن جهة أخرى فإن بنى نصر قد تميزوا بما قاموا به من تشييد المبانى . فإن غرناطة ــ نظراً لكونها عاصمة سياسية للمملكة ــ قد توسعت بصفة هائلة إذ أضيف إليها بناء ربض ثالث وهو النجد شمالا أصبح مستقر الأعيان بدوره الفخمة وجنّاته اليانعة ــ وربض رابع وهو المعروف بربض البيازين جنوبا أصبح مستقر البسطاء .

---

(47) توفى بغرناطة سنة 799 .

(48) توفى سنة 751 .

وإنّ غرناطة لم تكن ما كانت عليه بدون حمرائها الرائعة ذلك الحصن المنصوب فى قمة نتوء صخرى والمشرف على الأحياء السفلى للمدينة . ولقد كان فى عهد مضى قليعة صعبة المنال لا يُتوصل إليها إلا بشقّ الأنفس فبها التجأ العرب فرارا من المتمردين الذين ثاروا فى عهد الأمير الأموى عبد الله وشاء القدر أن تصبح فى عهد بنى نصر حاضرة الحكومة متميزة عن مدينة غرناطة فى حد ذاتها . فكان لها حسب تعبير ليفى بروفنصال[49] بأسوارها وبروجها ومَراقبها الدفاعية وأبوابها وممّراتها السِّرية وفى داخلها تحت ظل القصر الملكى أهمّ مكونات حاضرة إسلامية مغربية ، مسجد أعظم ومتاجر ومنازل فاخرة يسكنها أفراد الخاصة إلى جانب ديار متواضعة يسكنها أفراد من العامة .

ويبدو أن كل الجهود قد بذلت لجعل الحمراء الرمز الحى للحركة الفنية فى عهد بنى نصر . وإن حذاقة الفنانين المهندسين ـــ المعماريين منهم والنقاشين الذين ضمتهم غرناطة آنذاك ـــ قد أثارت إعجاب المستشرق الإسبانى غارثيه غوماث إعجابا أدّاه إلى أن يصرح قائلا : « وأغلب الظن أنه لم يتأت قط لبناء ماهر أن يبرز للوجود أعجوبة ذات عطوبية أبهر ... ، وإن الحمراء بأنوثتها العذبة تعد من أبدع المبانى[50] » . وهذا المستشرق جورج مارسى الاختصاصى فى الفن الإسلامى بالمغرب الذى يعبر عن الحركة الفنية بصفة عامة فى عهد بنى نصر قائلا : « إن عهد بنى نصر بغرناطة يمكن أن يعتبر العهد الكلاسيكى للفن الإسلامى المغربى والذى يدل إذن على المدى الواسع لانتشاره . فالأسلوب قد أصبح ثابتا والمزخرفون أكثر مهارة وأشدّ حذاقة على الإطلاق[51] » .

فمن الطبيعى إذن أن يستولى هذا الأثر الفنى على قلوب الشعراء والكتاب الذين أطلقوا العنان لخيالهم عبر القرون لذكر جماله ولطافته وأنوثته الخلابة .

---

(49) انظر مقالته : غرناطة الإسلامية .

(50) فرنسية بالحمراء ، ص ، 107 .

(51) إيسبيريس 1956 ، ص ، 493 .

وإن الحمراء لم تثر إعجاب المسلمين فقط ولكن تأتّى لها كما يشير إليه « غارثيه غومات » أن تجمع مدائح كتّاب المغرب انطلاقا من أندريى نفاجييرو [Andrea Navagiero][52] .

وفى الوقت الحاضر فإن الحمراء التى تعتبر تحفة عالمية « قد أصبحت مقاما يزوره الذين لهم رغبة فى المزيد من المعرفة والذين يستعذبون الفنون الإسلامية الإسبانية فى أوج ازدهارها[53] » .

○ ○ ○

---

(52) فرنسية بالحمراء ، ص ، 109 .

(53) دائرة المعارف الإسلامية 1 ، 1040 .

# البـــاب الأول

## شباب ابن زمرك وتكوينه

□ □

من حسن الحظ أن التاريخ قد احتفظ لنا بمصدرين هامين لدراسة حياة ابن زمرك . فالأول يعود الفضل فيه إلى معاصره ابن الخطيب فى كتابه الإحاطة فى أخبار غرناطة[1] وهذه الترجمة تشمل سنوات الطفولة والشباب إلى غاية سنة 770 هـ . وهى السنة التى انتهى فيها ابن الخطيب من تأليف كتابه . وبعد مرور سنوات عاد ابن الخطيب إلى كتابة ترجمة ثانية لهذا الشاعر فى كتابه « الكتيبة الكامنة[2] » . فإن اتفقت الترجمتان فى الأسلوب المسجع فهما على طرفى نقيض من ناحية مضمونهما فالأولى كلها مدح وإطراء والثانية كلها شتم وذم . وسنرى فيما بعد ما دفع ابن الخطيب إلى الوقوع فى هذا التناقض .

والمصدر الثانى فهو من تأليف الأمير ابن الأحمر حفيد الملك النصرى الغنى بالله . وقد جاءت هذه الترجمة توطئة لديوان ابن زمرك المعنون بالبقية والمدرك من شعر ابن زمرك . ومن المؤسف أن هذا الديوان لم يحفظ لنا إلّا أن المؤرخ المقرى قد أورد هذه الترجمة فى كتابيه « نفح الطيب[3] » و« أزهار الرياض[4] » مسبوقة بترجمة ابن الخطيب فى الإحاطة[5] . وتتّسم هذه الترجمة هى الأخرى بالأسلوب المسجع ورغم الغلوّ فى الإطراء وتراكم العبارات الرنّانة الخالية من كل فائدة ما عدا الزخرفة والموسيقى . فإنها تسدّ فراغا إذ تأتى متمّمة لترجمة ابن الخطيب لما تتضمنه من حوادث تتعلق بحياة ابن زمرك فى الكهولة والشيخوخة إلى أن وافته المنيّة . وإن ابن الأحمر هذا قد ألّف هو أيضا ترجمة ثانية لابن زمرك فى كتابه « نثير فرائد الجمان[6] » إلّا أنها دون الأولى فائدة إذ اكتفى صاحبها فيها باختصار ما كان لنا علم به .

---

(1) الإحاطة ، ج 2 ص ، 221 .
(2) الكتيبة ، ص ،282 .
(3) نفح الطيب : ج 7 ، ص ، 162 إلى 170 و 183 .
(4) أزهار الرياض ، ج 2 ، ص ، 11 إلى 21 .
(5) نفح الطيب ، ج 7 ، ص 145 إلى 147 ، وأزهار الرياض ج 2 ص ، 7 إلى 10 .
(6) نثير فرائد الجمان ، ص ، 327 .

ولنشر في النهاية ــ على سبيل التذكير ــ إلى مصدرين آخرين لم نفاجأ فيهما بما هو جدير بالذكر إذ اقتصر فيهما مؤلفاهما على رواية مقالة ابن الخطيب فى الإحاطة مع إضافة تفاصيل ثانوية وأقصد بذلك أحمد بابا التنبكتى فى كتابه « نيل الابتهاج[7] » وابن القاضى فى كتابه « جذوة الاقتباس[8] » .

وفى الرابع عشر من شهر شوال سنة 733 هـ . 1333 م ــ وهى السنة التى ارتقى فيها على العرش الملك النصرى السابع أبو الحجاج ــ ولد ابن زمرك بربض البيازين الواقع فى الناحية الشمالية الغربية من غرناطة تجاه الحمراء وكان اسمه محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصريحى وكنيته أبو عبد الله المعروف بابن زَمرك أو زُمرك بفتح الزاى أو بضمها[9] .

وقد اضطرت أسرته التى كانت قاطنة بشرق الأندلس إلى الهجرة إلى غرناطة بعد تغلب العدو المسيحى على المسلمين مغتصبا أملاكها وأراضيها[10] وهذا ما يدل على أن هذه الأسرة كانت تتمتع بالرخاء وسعة العيش قبل لجوئها إلى غرناطة حيث تجرعت الأمَرَّين . وإذا جاز لنا أن نصدق ما صرح به ابن المؤرخ ابن الخطيب فإن والد ابن زمرك كان « حمّارا مكاريا حدادا بالبيازين[11] » .

فما هو مصير طفل نشأ فى أسرة لاجئة تعانى من الحرمان بعد ما اغتصبت أموالها ... ؟ فالجواب عن هذا السؤال يبدو بسيطا إذ من المتوقع ــ فى ظروف كهذه ــ أن يلاقى ابن زمرك صعوبات جمّة تمنعه من التمتع بما يتمتع به أطفال سنه . ويبدو أن ما كان فى متناول اليد هو أن يتعلم مهنة أبيه ليخلفه فى معمله .

---

(7) نيل الابتهاج ، ص ، 282 .

(8) جذوة الاقتباس ، ص ، 184 .

(9) قد أوردت النشرات الحديثة ابن زمرك بفتح الزاى وإذا رجعنا إلى عنوان الديوان الذى وضعه ابن الأحمر « البقية والمدرك من شعر ابن زمرك » بدا لنا من المحتمل أن تكون الزاى مضمومة . وقد ذكر ابن خلدون فى كتابه التعريف ، ص ، 274 . تعليق 3 . هذه التسمية بفتح الزاى والميم وتسكين الراء .

(10) انظر غارثيه غومث فى : خمسة شعراء ، ص ، 189 .

(11) يلاحظ المقّرى أن القول المنسوب لابن الحسن قد أضيف فى الهامش إلى ترجمة ابن زمرك التى كتبها ابن الخطيب فى الإحاطة كما أشرنا إليه سابقا . ويلفت أنظارنا إلى هذا التعليق بالإضافة إلى تعاليق أخرى قد ورد بعد قتل ابن الخطيب فعلينا إذن ألا ننظر إليها إلا بحذر . راجع النفح : ج 7 ، ص ، 162-160 .

ولكن هذه المهنة تتطلب القدرة البدنية وابن زمرك ــ حسب المترجمين له ــ كان نحيل الجسم قصير القامة[12] . فقرّر أنه لا يستطيع أن يقوم بالأعمال الشاقة . ولكن إلى جانب ذلك فإن ابن زمرك كان ذكيا جدا[13] فقرر أن يتابع الدراسة ــ رغم عدم مجانيتها ــ حتى يصبح فى المستقبل أديبا .

وهكذا تأتّى لابن زمرك أن يتابع المناهج التعليمية السائدة آنذاك فبدأ كجميع أقرانه الصغار بالتردد على الكتّاب حيث أبدى مواهب نادرة سرعان ما استرعت انتباه معلمه الذى قربه وحاباه عن غيره[14] . وإن كلاً من مترجميه ــ ابن الخطيب مثل ابن الأحمر ــ قد أثنى عليه وأطال مرددا أبلغ الصور لإبراز مميزاته وللتأكيد على شغفه بالعلم وحرصه على نيل القسط الأوفر منه . ويشير ابن الأحمر إلى أن ابن زمرك قد أصبح يتمتع بمعلومات واسعة فى الحديث وذلك قبل سن البلوغ[15] وإلى جانب هذا فإنه كان ملازما أشهر العلماء مترددا عليهم يوميا فدرس هكذا النحو واللغة والفقه والتصوف . وبعد ما أصبح إماما فى هذه الفنون بدا له أن يهتم بالأدب . وبالشعر خاصة . وبرهن مرة أخرى على مقدرته الشعرية كما شهد له بها ابن الخطيب[16] الذى أدى إعجابه به إلى أن أشار إلى ما قاله ابن زمرك من أول نظمه مقتصرا فى ذلك على ذكر مطلع القصيدة الطويلة إذ قال : « أما وانصداع النور من مطلع الفجر » .

ولنتساءل الآن عن الذين يرجع إليهم الفضل فى تكوين ابن زمرك وأمثاله حتى نتعرف عليهم فيتراءى لنا من ورائهم الجو العلمى والثقافى لذلك العصر .

ومن حسن الحظ أن كلا من ابن الخطيب وابن الأحمر قد فكّر فى ذكر قائمة أسماء أساتذة ابن زمرك . فجاءت قائمة الأول بأحد عشر اسما وقائمة

---

(12) انظر المقرى عن ابن الأحمر فى الأزهار ، ج 2 ، ص 14 .

(13) انظر إحاطة ج 2 ، ص 221 والأزهار ج 2 ، ص ، 8 .

(14) انظر المقرى عن ابن الأحمر ، الأزهار ، ج 2 ، ص ، 14 .

(15) انظر نفس المرجع .

(16) انظر إحاطة ، ج 2 ، ص ، 223 .

الثانى بثمانية مع إضافة اسم ابن الخطيب نفسه .

وإن تكوين ابن زمرك فى الفقه وتفسير القرآن واللغة يعود معظمه إلى الأستاذ الشهير المفتى أبى سعيد بن لبّ[17] الذى « كان معظما عند الخاصة والعامة » . ويشهد له بالفضل أبو زكرياء السرّاج فى فهرسته حيث يقول : « قل من لم يأخذ عنه فى الأندلس فى وقته وله تواليف وفتوى[18] » .

وتجدر الإشارة إلى الأستاذ الثانى فى الأصول ونعنى بذلك أبا على منصور الزواوى[19] الذى لم نوفق إلى التعرف عليه فى كتب التراجم .

أما فيما يخص النحو فإن الشاب ابن زمرك قد درس على يدْ أبى عبد الله بن الفخار[20] بغرناطة أو بمالقة ــ حسب ما يبدو ــ حيث استقر بعد استيلاء المسيحيين على مدينة شريش وكان ابن الفخار آية فى العربية ويذكر ابن الخطيب فى الإحاطة أنه ألّف عدة كتب جاء أغلبها فى النحو وإلى جانب هذا فإنه كان يتعاطى الشعر وجاء شعره « شهير الشان » حسب تعبير ابن الخطيب فى كتابه الكمينة .

وأما الأستاذ الثانى فى النحو والفنون اللسانية فهو أبو القاسم محمد الشريف[21] قاضى الجماعة بغرناطة وتذكر المصادر أن ابن زمرك تابع دروسه

---

(17) هو أبو سعيد فرج بن أحمد بن لب نشأ بغرناطة سنة 701 / 1301 وتوفى بها سنة 782 / 1382 ــ انظر النفح 8 ، 24 - 28 . والبغية 372 . وأما ابن الخطيب فلم يثن عليه فى الترجمة الثانية الواردة فى « الكمينة » ، ص ، 67 ، بخلاف الترجمة الواردة فى الإحاطة .

(18) انظر : نيل الابتهاج ، ص ، 211 .

(19) انظر : أزهار ، ج 2 ، ص ، 9 .

(20) انظر : الكتيبة الكامنة ، ص ، 70 . ونفح الطيب ج 3 ، ص ، 185 - 197 - 200 . وولد ابن الفخار بالبيرة فى سنة غير معينة ، وتوفى بغرناطة سنة 754 / 1358 .

(21) هو أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف ولد بسبتة سنة 697/ 1297 تولى القضاء بغرناطة سنة 734 / 1337 ، ثم عزل سنة 747 / 1347 فاستوطن وادى آش وبعد ذلك عاد إلى منصبه بغرناطة حيث توفى سنة [illegible] / [illegible] . انظر : الإحاطة ج 2 ، ص 129 ، ونفح الطيب ج 3 ، ص 104 . وأزهار 2 - 14 .

سنوات عديدة وقد أداه إعجابه بأستاذه إلى رثائه عند الوقوف على ضريحه بالقصيدة الفريدة التى مطلعها « أغرى سراة الحى بالإطراق[22] » .

وقد كان أبو عبد الله بن بييش العبدرى[23] الأستاذ الثالث الذى لازمه ابن زمرك للأخذ عنه فى النحو . فهذا العالم الغرناطيِّ الأصل قد تفرغ فى البداية للتدريس ثم « اقتصر على التجارة فى الكتب » . وهذا ابن الخطيب يقول فى شأنه : فى الكتيبة « صحبنى فى بعض خطراتى بسبتة رسولاً فأعدته إلى بلده يقيم به الإقراء » .. وكان هذا العالم النحوى يتذوق الشعر ويقرضه ويبدو أنه كان يتمتع بالشهرة فى هذا الفن . ويذكر ابن الخطيب « أنه كان له فى الشعر نصيب وبين الخواطر سهم مصيب[24] » . فاستشهد له بأبيات من نظمه تعليلا لقوله .

فبعد ما تضلّع ابن زمرك فى النحو واللغة التفت إلى علم الحديث فكان أول من لقّنه مبادىء هذه المادة هو أبو البركات بن الحاج[25] الذى نشأ بالمرية وأقام بمالقة وبجاية وفاس ثم عاد إلى مسقط رأسه حيث تولى القضاء . وكان هذا العالم ممن أثار إعجاب معاصريه . أمثال ابن خلدون وابن الخطيب . ويقول هذا الأخير فى الكتيبة : « وبالجملة فكان هذا الشيخ فى سلف واهتمام وكلف وعدم خلف بمنزله أبى دلف ... ولّت الدنيا على أثره وقلّ أن ترجع » .

ونلاحظ هنا أيضا أن اهتمام هذا العالم واختصاصه فى السنّة والحديث لم يمنعه من قضاء ساعات في رفقة الأدب والشعر وقد برهن على مقدرته وإحساسه

---

(22) انظر : أزهار ، ج 2 ، ص ، 14 .

(23) نشأ بغرناطة سنة 680 / 1281 ، وتوفى بها سنة 753 / 1353 ، انظر : نفح الطيب ج 6 ص ، 244 . والبغية ، ص ، 100 . والكتيبة ، ص ، 90 .

(24) انظر الكتيبة ، ص ، 90 .

(25) هو أبو البركات محمد بن محمد بن الحاج البلفيقى السلمى توفى سنة 771 / 1369 . انظر : نفح الطيب 3 ، ص 248 ، إحاطة 2 ، 101 كتيبة 127 ، التعريف 71 .

بما أدى ابن الخطيب إلى أن يقول إن لأبى البركات « فى الأدب عليا الدرجات[26] » . واستدل على ذلك بنماذج من شعره .

ومن بين أساتذة ابن زمرك ينبغى أن نخص بالذكر الخطيب أبا عبد الله بن مرزوق التلمسانى[27] للدور الذى لعبه فى شتى الميادين . ولا سيما فى الميدان السياسى . فهذا المعاصر لابن الخطيب ولابن خلدون وغيرهما من الشخصيات البارزة قد عانى هو الآخر من تقلّبات الدهر فكانت حياته مضطربة إلى حدّ بعيد . فذاق طورا سعادة المقربين وطورا شقاء المعتقلين . ويجدر بنا أن نلاحظ أن ابن مرزوق لم ينفرد بهذه المعاملة . فكان هذا سلوك السلطات المتتابعة نحو من خاض خضم المغامرات السياسية والمؤامرات البلاطية المتتالية آنذاك .

وكان ابن مرزوق مقيماً بالقاهرة فعاد إلى تلمسان وقتما استولى على العرش أبو الحسن المرينى . فعين خطيبا بمسجد العبّاد وكاتبا لأبى الحسن . وبعد وقعة طريف سنة 741 / 1340 حيث شاهد انهزام المسلمين فى رفقة أبى الحسن كلّفه هذا الأخير بالقيام بمهمة لدى الفونس الحادى عشر ملك قشتالة وهكذا تم توقيع السلم بين المملكتين . وبعد عودته إلى فاس لم تمر إلّا أيام قلائل حتى تغير الوضع إذ وقع انقلاب فوثب على العرش ابن أبى الحسن أى أبو عنان المرينى . فكان ابن مرزوق آنذاك بتلمسان فزجّ به للمرة الأولى فى السجن . ثم نُفى إلى الأندلس سنة 753 . فاستقبله أبو الحجاج بن يوسف الذى كان قد تعرف عليه شخصيا أثناء حادثة طريف . فقرّبه وسمّاه خطيبا بالحمراء فتفرغ ابن مرزوق لتدريس

---

(26) انظر : الكتيبة ، ص ، 127 .

(27) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق المعروف بالجد والرئيس والخطيب ولد بتلمسان سنة 710 / 1310 وتوفى بالقاهرة سنة 781 / 1379 . وقد خلف لنا « المسند » وهو كتاب وضعه فى تاريخ الدولة المرينية . حققه ونشره المستشرق ليفى بروفنصال فى مجلة ايسبريس ج 7 سنة 1925 ، ص ، 408 — راجع أيضا دائرة المعارف ج 3 ، ص ، 820 الطبعة الجديدة ترجمته بقلم حاج صادق .

الحديث ومناهج الصوفية ، مغتنما الفرصة لربط علاقات وثيقة مع المرينى أبى سالم الذى نُفى هو الآخر إلى الأندلس بعد وفاة أبى الحسن[28] .

وهكذا تأتّى لابن زمرك ــ وهو فى العشرين من عمره ــ أن يتردّد على هذا العلامة لمدة سنة مهتديا به فى فنّ الخطبة وعلم التصوف . فنشأت بين الرجلين مودّة سمحت لابن مرزوق أن يطلب من تلميذه نظم قصيدة[29] يمدح فيها « كتاب الشفاء » للقاضى عياض[30] وبالتالى مدح شارحه وهو ... ابن مرزوق نفسه . فيقول فى حقه :

10) لقد حُزْتَ فضلاً ياأبا الفضلِ شاملاً فيجْزيك عن نصحِ البرايا شفيعُها

11) ولله ممّنْ قد تصدّى لشرحهِ فلبّاهُ من غرّ المعانى مطيعُها

12) فكم مجملٍ فصّلتَ منه وحكمةٍ إذا كَتَمَ الإدماجُ منهُ تشيعُها

وبعد سنة أيْ فى 754 هـ هبت الرياح بما يشتهيه ابن مرزوق . إذ استدعاه الملك المرينى أبو عنان إلى فاس فأصبح من الأعيان المعدودين فى حاشية السلطان ولكن سرعان ما تُوفى مقرّبه وحاميه . فماذا بقى لابن مرزوق أن يعمل ؟ فقد رأى من حينه أن الحل الوحيد للوضعية الجديدة هو استرجاع أبى سالم صديقه من المنفى الأندلسى . فبذل كلَّ ما فى وسعه لتحقيق هذه الغاية وهكذا استنجد بالمؤرخ ابن خلدون وطلب منه تأييد أبى سالم[31] فنجح ابن مرزوق فيما قام به وبفضله وصل أبو سالم إلى العرش . ولكن من سوء الحظّ لم يتمتع ابن مرزوق طويلا بحلاوة هذا الانتصار إذ فاجأه الخبر بقتل ملكه أبى سالم وألقى به هو مَرّة أخرى فى السجن حيث قضى به سنتين كاملتين .

وبعد إطلاق سراحه سنة 762 / 1361 رأى من اللائق أن يغادر المغرب فاستوطن تونس حيث عُيّن هناك أيضا خطيبا بمسجد الشماعين وذلك إلى سنة

(28) انظر ابن خلدون ج 7 ، ص ، 635 .

(29) انظر الديوان رقم 97 . قصيدة تضمنت عشرين بيتا .

(30) أصله من سبتة . وقد توفى سنة 544 . وخلف لنا هذا الكتاب المخصص فى مدح النبى ﷺ .

(31) انظر التعريف ، ص ، 68 .

771 وبعد ما عزل قصد القاهرة حيث تولى القضاء إلى يوم وفاته سنة 781 / 1379 .

واهتمام بن زمرك بالتصوف أدّاه إلى التردّد على أكبر ممثلي هذا العلم أمثال أبي جعفر بن الزيات وأخيه المهدى وبالأخصّ أبي عبد الله المقّرى[32] جدّ مؤلف « نفح الطيب » الذى تولى القضاء بفاس سنة 749 / 1347 فى عهد المرينى أبي عنان وكان قد قام برحلة إلى الأندلس قاصدا الملك النصرى سنة 757 / 1356 . وأثناء إقامته تعاطى التدريس وقد أصغى إليه الكثير فكان ابن زمرك من بين تلامذته[33] وإنه لينبغي أن نلاحظ مع المستشرق بلاشير أن ميل ابن زمرك إلى التصوف لم يصدّه عن الطريق الذى خطّه لنفسه . « فإنه ــ كمن اهتدى بهم فى هذا العلم ــ قد استطاع بدون صعوبة أن يوفق بين نزعاته الزهدية وطموحاته الاجتماعية[34] » والدليل على ذلك كونه أصبح بفضل أستاذه وصديقه ابن مرزوق من المقربين لدى الأمير المرينى أبي سالم الذى سرعان ما عينه كاتبا له .

وأما تكوين ابن زمرك فى الأدب والشعر فإنه يرجع إلى الأساتذة السابق ذكرهم وإلى أدباء وشعراء عصره الذين تفطّنوا لذكائه ومواهبه فى هذا الفن وينبغي أن نخصّ بالذكر أبا عبد الله اللوشى[35] الخطيب البليغ الناشىء « بلوركة » والذى امتدّ صيته إلى بغداد . فهذا الكاتب الوزير كان شاعرا مثيرا إعجاب الجميع وهذا المترجم له ابن الخطيب ــ وقد كان يتمنى أن يعدّه من بين أصدقائه ــ يقول فى حقه معبّرا عن قيمته الشعرية : « إنه شاعر مفلق وشهاب فى البلاغة » ... وقد مدح الملوك « بما يزرى بجواهر السلوك من

---

(32) نشأ أبو عبد الله المقرى بتلمسان فى سنة غير محققة وتوفى بفاس بعد عودته من الأندلس . انظر نفح الطيب ، ج 5 ص ، 279 .

(33) انظر نفح الطّيب ج 5 ، ص 340 . والإحاطة ، ج 2 ، ص ، 197 « الكتيبة » ص ، 175 .

(34) انظر بلاشير فى مجلة AIEO الجزائر ص 291 وما بعدها .

(35) هو أبو عبد الله محمد بن محمد اللوشى اليحصبى نشأ سنة 678/ 1278 وتوفى سنة 752 / 1352 بغرناطة . انظر الإحاطة ج 2 ، ص ، 197 والكتيبة ص ، 175 .

إحسانه .... وشعره شهير الإجادة وطراز مذهّب على عاتق المجادة[35] » ولكن لم يبق من هذا الإنتاج الشعرى ــ مع الأسف ــ إلا القليل النادر ما لا يسمح لنا بأن نتذوقه ونقدره حق قدره حتى نشارك إعجاب ابن الخطيب به .

والأستاذ الثانى لابن زمرك كان ابن الخطيب[36] وما أدراك من هو . تلك الشخصية البارزة ذلك العالم والسياسى الفريد من نوعه تشهد على تضلعه وثقافته المترامية الأطراف الكتب التى ألفها فى شتى الميادين : فى التاريخ والأدب فى التصوف والفلسفة . فهذا الممثل الجليل للسياسة والآداب بغرناطة النصرية كان شاعرا وموشِّحا مفلقا . وإن ديوانه « الصيب والجهام والماضى والكهام » جاء تصديقا لكلٍّ ما قيل عنه . ويجد فيه مُتصفِّحه كل الأغراض الشعرية الكلاسيكية التى تعرض لها ابن الخطيب .

فإن الحياة السياسية لابن الخطيب معروفة ، فبمجرد وفاة أبيه بطريف سنة 1340/741 ، التزم بالملك أبى الحجاج يوسف بصفته كاتباً له تحت رعاية الوزير ابن الجياب . وبعد وفاة هذا الأخير بالوباء عيّن ابن الخطيب خليفة له فارتقى إلى الوزارة[38] ولما تولّى الحكم الملك الغنىّ بالله ابن أبى الحجاج سنة 1354 / 755 احتفظ ابن الخطيب بمنصبه ولقب بذى الوزارتين .

وإن ابن الخطيب كأساتذة ابن زمرك فى شتّى الميادين لم يفتْه أن ينتبه إلى ذكاء تلميذه ومواهبه الفطرية . ألم يقل فى حقه : « هو الفاضل صدر من صدور طلبة الأندلس وأفراد نجبائها .... شعلة من شعل الذكاء ... ثقيب الذهن أصيل الحفظ ... بعيد مدى الإدراك جيّد الفهم[39] » فهذا ما أدّى بابن الخطيب إلى

---

(36) انظر : الكتيبة ، ص ، 125 .

(37) ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد ... على بن أحمد السلمى نشأ بلوشة سنة 713 / 1313 ومات قتيلا بفاس سنة 776 .

انظر مقالة : بوشفيل فى دائرة المعارف الطبعة الجديدة ح 3 ، ص ، 859 .

(38) انظر : ابن خلدون العبر ، ج 7 ، ص ، 689 .

(39) انظر : الإحاطة ، ج 2 ، ص ، 221 .

الاهتمام بطالبه فقرّبه وعامله معاملة حسنة فساعده معبّدا له السبيل ومسقطا الحواجز أمامه فأوصله إلى البلاط المرينى . وليس أحد أدرى من ابن زمرك بالدور الذى لعبه ابن الخطيب فى انتصاره وشهرته . وقد صرّح شاعرنا مرارا باعترافه لأستاذه مغتنما كل الفرص لمدحه وشكره على ما فعل مبديا فى ذلك تواضعا كبيرا . وقد تأتّى له أن يقول[40] :

30) وبوّأتنى من ذروةِ العزِّ مُعْتَلًى وشرّفْتنى من حيث أدرى ولا أدْرِى

31) وسوَّغْتَنى الآمالَ عذبا مسلسلاً وأسْمَيْتَ مِنْ ذكرى ورفَّعت مِنْ قدْرِى

32) فدهرى عيد بالسرورِ وبالمنى وكل ليالى العمرِ لى ليلةُ القدْرِ

33) فأصبحتُ مغبوطاً على خيرِ نعمةٍ يقلّ لأدناها الكثيرُ مِنَ الشكْرِ

## ابن زمرك : أخلاقه

فإذا صدّقنا ما ورد فى الترجمتين السابق ذكرهما كان من المفروض علينا أن نقول بدورنا إن ابن زمرك كان يتمتع بشخصية غنية جذّابة وإنه كان يتميز ــ فضلا عن مواهبه العلمية وعبقريته الشعرية ــ بالأخلاق المحمودة واللباقة وحسن المعاشرة ، وإن ابن الخطيب وابن الأحمر متفقان على الاعتراف له بالفضل وانشراح الصدر وعذوبة الحديث ولطافة السلوك كل ما كان يثير إعجاب من يخالطه وينادمه بحيث قد أصبح من أولئك الذين يطيب البقاء فى رفقتهم .

ومن جهة أخرى فإنه يشهد له بالتقوى والتمسك بالدين فكان يُعدّ من الذين إذا ذكر اسم الله أمامهم فاضت عيونهم دموعا ومن الذين يتصبّب جبينهم عرقا إذا استمعوا إلى الموعظة[41] فكان يفضل أن يقضى معظم أوقاته فى رفقة الصالحين الأتقياء وقد أكد ابن الخطيب على عفته وصفاء سريرته وجاء صدى لهذا القول ما صرّح به ابن زمرك نفسه فى أبيات إذ قال مفتخرا[42] :

---

(40) انظر : الديوان رقم 37 . وانظر كذلك رقم 102 .

(41) انظر : أزهار ، ج 2 ، ص ، 16 .

(42) انظر : ديوان رقم 8 .

— لقـد علـم اللـهُ أنّـي امــرؤٌ أجـرّرُ ذيـلَ العفـافِ الـــقشيبْ
— فكـم غــمضَ الدهــرُ أجفانَــهُ وفـازتْ قداحى بـوصلِ الحبــيبْ
— وقيـــل رقيـــبُكَ فى غفلــــةٍ فقـلتُ أخـافُ الإلــهَ الرقــيبْ

## زمــان الغربــة

ففى اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان سنة 760 هـ أى 12 أغسطس سنة 1359 م . وفِّق إسماعيل — الولد الثانى للمرحوم أبى الحجاج — فى سعيه — وذلك بمساعدة الرئيس أبى عبد الله إذ استولى على العرش بغرناطة فاضطر الملك المخلوع الغنى بالله إلى اللجوُ إلى وادى آش مخلفا وراءه حاجبه رضوان قتيلا ووزيره ابن الخطيب سجينا فلم يبق للغنى بالله إلا أن يستنجد بالملك المرينى أبى سالم المقيم آنذاك بمدينة فاس فوجد أذنا صاغية لدى من كان بالأندلس لاجئا فى ظروف مماثلة فاتصل أبو سالم — بعد أن حثه على ذلك ابن مرزوق — بالسلطات الغرناطية الجديدة وطلب منها أن يسمح للغنى بالله بالالتحاق بفاس مرفوقا بوزيره ابن الخطيب وهكذا تأتّى للملك المخلوع أن يغادر وادى آش فى اليوم الثانى عشر من شهر ذى الحجة سنة 760 هـ ، أى 4 نوفمبر 1359 م رفقة مؤيديه والجدير بالذكر أن صاحبنا ابن زمرك قد انضم إلى الركب فى رحلته إلى فاس مغادرا هو الآخر وطنه . ولقد خصص البلاط المرينى استقبالا حافلا للاجئين فى اليوم السادس من شهر محرم الموافق للثامن والعشرين نوفمبر[43] وهذا المؤرخ الشهير ابن خلدون — الكاتب آنذاك للملك المرينى أبى سالم — يذكر هذا اليوم العظيم معبرا عما شاهده بنفسه فقال : « ثم انفضّ المجلس وانصرف ابن الأحمر إلى نُزُلِه وقد فرشت له القصور وقربت الجياد بالمراكب الذهبية وبعث إليه بالكسي الفاخرة ورتبت الجرايات له ولمواليه من المعلوجي وبطانته من الصنائع وانحفظ عليه رسم سلطانه فى الموكب والرجل لم يفقد من ألقاب ملكه إلا الآلة أدبا مع السلطان[44] » .

---

(43) انظر الإحاطة ، ج 2 ، ص ، 18 .

(44) انظر أبن خلدون . العبر ج 7 ، ص ، 642 .

فأُسكن إذن الملك المخلوع فى قصر رائع بمدينة فاس وبقى منتظرا ما سيأتيه به القدر ليخفف عنه من حدة هذه المحنة الأليمة وأمّا ابن الخطيب فقد رأى من اللائق له أن يتجول عبر المملكة المرينية ويزور آثار الملوك القدماء فغادر إذن مدينة فاس بعد ما استأذن الغني بالله ولما انتهى من رحلته قادته قدماه إلى مدينة سلا فاستقر بها .

وأما ابن زمرك فماذا كان مصيره آنذاك ؟ إنه قد وجد بفاس من كان يضمر له مودة وصداقة خالصة فاستغل بطبيعة الحال علاقاته مع الخطيب ابن مرزوق ذلك العالم الذى اهتدى به فى علم التصوف وقتما كان مقيما بالأندلس وابن مرزوق هذا كما نعلمه كان يحظى بمنزلة عليا فى بلاط أبى سالم للدور الذى لعبه فى فائدة هذا الأخير . وهذا المترجم ابن الأحمر يصف لنا الملاقاة بين الرجلين مبينا ما كان يضمره ابن مرزوق لتلميذه من محبة وإجلال إذ أهدى إليه عمامة بها أصبح ابن زمرك معدودا فى صفوف العلماء والأساتذة والقضاة[45] وهذه الهدية القيمة أنطقت شاعرنا ببيتين مدح بهما شيخه فقال[46] :

— توجتنـــي بعمامـــة	توجت تاج الكرامـةْ

— فروض حمدك يزهـي	منّي بسجْـع الحمامـةْ

ومن جهة أخرى فإن ابن زمرك لم يكن مجهولا لدى الملك المرينى وقتما كان هذا الأخير لاجئا بغرناطة ألم يكن كاتبا له ؟ فلا غرابة إذن أن نجد صاحبنا في البلاط من المقرّبين فتأتّى له هكذا أن يشارك فى جميع الاحتفالات والاستقبالات ومن بين هذه ينبغي أن نخصّ بالذكر استقبال الوفد الحبشي[47] الذى قصد أبا سالم لتقديم هدايا له من طرَف ملكهم ومن بين تلك الهدايا زرافة استغربها الحاضرون فطلب الملك المرينى من الشعراء أن يرتجلوا قصيدة يصفون فيها هذا الحيوان الغريب . وهذا ما أدّى ابن زمرك إلى وصف الزرافة

---

(45) انظر ابن الخطيب : الإحاطة ج 2 ، ص 142 فى مدلول العمامة .

(46) انظر أزهار ج 2 ، ص 15 .

(47) انظر ابن خلدون ج 4 ، ص 340 .

مغتنما هذه الفرصة لمدح أبي سالم فجاءت القصيدة في 27 بيتا من الطراز الأول أثارت إعجاب السامعين والتي قال في حقها ابن الخطيب إنها « بديعة » وها مطلعها[48] .

ـــ لــولا تألُّــقُ بـــارقِ التّـــذكارِ ما صابَ واكِفُ دمعي المِــدْرارِ

ولقد رأى ابن زمرك من المفيد له أثناء إقامته هذه بفاس أن يزيد في معلوماته فلازم لذلك وبصفة مستمرة العالم الشريف أبا عبد الله العلوي التلمساني فدرس عنه بعض العلوم العقلية .

## العـودة إلـى غرناطـة

فبينما كان ابن زمرك مهتما بتوسيع ثقافته ومتعاطيا إلى قرض الشعر ومغتنما الفرص لمدح أولي الأمر سعيا وراء ما يساعده على بلوغ غايته وتحقيق أمانيه وبينما كان ابن الخطيب قاضيا أوقاته فيما قصد إليه بسلا بعيدا عن السلطة المركزية بفاس فإنّ الملك المخلوع كان ينتظر الساعة التي سيفرج الله عنه فيها فيعود إلى وطنه ويستعيد عرشه وقد دامت هذه الحالة سنتين كاملتين كانت بعدهما نهاية الغربة .

لم يتولّ إسماعيل الثاني الأمر إلا بضعة أشهر فقد قتل في مؤامرة قام بها الرئيس أبو عبد الله السابق الذكر الذي حل محل ضحيته وتلقب بمحمد السادس . ولكن من سوء حظ هذا الأخير أن الملك القشتلي ـــ لأسباب سياسية داخلية بين مختلف الأسر المسيحية[49] ـــ رأى من فائدته أن يساند محمداً الخامس ـــ الملك المخلوع ـــ ضد محمد السادس وهكذا تأتى للغني بالله أن يعود إلى غرناطة . ولقد أشار المقرى إلى هذا اليوم قائلا نقلا عن ابن الخطيب : « وفي صبيحة يوم السبت السابع عشر من شهر شوال عام 762 كان انصرافه إلى الأندلس وقد ألحّ صاحب قشتالة في طلبه وترجح الرأى على قصده فقعد السلطان بقبة

---

(48) انظر الديوان رقم 38 .

(49) انظر : آربي في أسبانيا النصرية ، ص ، 110 .

العرض من جنة المصارة وبرز الناس وقد أسمعهم البريح واستُحضرت البنود والطبول والآلة وأُلبس خلعة الملك وقُيدت له مراكبه فاستقل وقد التَفَّ عليه كل من جلا عن الأندلس من لدن الكائنة فى جملة كثيفة[50] » . فكانت رندة المرحلة الأولى فى طريقه إلى غرناطة فاستقل بها وبجهاتها « وقد قام له برسم الوزارة الشيخ القائد أبو الحسن بن كماشة الحضرمى » لأن ابن الخطيب بقى بالمغرب ولم يلتحق بغرناطة مع أسرة الملك إلا فى نهاية شهر شعبان سنة 763 هـ أى جوان سنة 1352 م[51] . كما قام بكتابته الفقيه أبو عبد الله بن زمرك[52] وقد استفاض عنه من الحزم والتدرب والتيقظ للأمور والمعرفة بوجوه المصالح ما لا ينكر[53] » فأدرك محمد السادس أمام هذا الوضع الجديد أن أيامه على العرش كانت معدودة فلم يبق له إذن الخيار فاضطر إلى الخروج من غرناطة طالبا الحماية من الملك القشتلى ولكن لما وقف بين يدى هذا الأخير قضى عليه فأصبح الطريق الموصل إلى غرناطة مفتوحا فخاضه محمد الخامس ودخل غرناطة فى يوم مشهود حقق فيه أمنيته وكان ذلك يوم العشرين من شهر جمادى الثانى سنة 763 هـ أى السادس عشر فى مارس 1362 م فلقد حان بهذه المناسبة وقت مكافأة الأوفياء . فابن الخطيب وكان قد عاد إلى غرناطة آنذاك عُيّن من جديد وزيرا وابن زمرك استقل بمنصب الكتابة وأصبح كاتب سر للملك بظهير كان من تأليف ابن الخطيب نفسه[54] وهكذا تأتى لابن زمرك وهو متوّج بلقبى الرئيس والفقيه ، أن يحتل فى البلاط المكان الذى كان يتمنى من صغره أن يتمتع به فما كان حلما قد أصبح واقعاً .

---

(50) انظر : المقرى فى النفح ج 5 ، ص 84 وفى أزهار ج 1 ، ص 201 .

(51) انظر : أزهار ج 1 ، ص 209 .

(52) قد شاركه فى هذه المهنة أبو الحسن الجذامي المالقي حسب ما ورد فى « اللمحة » ص 108 .

(53) انظر النفح ، ج 5 ، ص 90 - 89 .

(54) انظر نفح الطيب ج 5 ، ص ، 134 - 136 .

ويبدو أن قيام ابن زمرك بفاس قد ترك فى نفسه آثارا عميقة فعاد إلى غرناطة غنيا بذكريات عذبة ويتجلّى لنا ذلك بعد سنوات فى رسالة[55] وجهها إلى ابن خلدون[56] الذى كان مقيما آنذاك بالقاهرة فيذكر بحنان الأيام التى قضاها فى الوسط المريني والاستقبال الحافل الذى وجده ثم يخصّ مراسله بالذكر ليشكره على ما أحاطه به من عناية معترفا له بالجميل فى أبيات رقيقة غنائية . فيقول :

51) أتيتك فى غـربٍ وأنتَ رئـيسه وبـابك للأعـلام مجتمـع الوفـدِ

52) فآنستُ حتى ما شكوت بغربـة وواليتُ حتى لم أجد مضضَ الفقدِ

53) وعدتُ لقطرى شاكراً ما بلوتـه من الخلقِ المحمودِ والحسبِ العـدِّ

54) إلى أن أجزْت البحرَ يابحرُ نحونا وزرت مزارَ الغيثِ فى عقبِ الجهدِ

واستمرت العلاقات حسب ما يرام بين الوزير القوى ابن الخطيب وابن زمرك وبين هذا الأخير والأمير النصرى محمد الخامس فقد يرجع هذا إلى حسن تصرف شاعرنا للحفاظ على هذه العلاقات إذ أنه كان يغتنم كل الفرص لإهداء هذا وذاك قصائد أو مقتطعات يمدحهما فيها مؤكدا ما هو مدين به لهما .

وإن القاضى أبا العبار أحمد بن القاسم الحسنى قد أورد خبرا يبرهن على صفاء الجو والتفاهم التام الحاصل بين ابن الخطيب ومقرّبه فقال : حدثنى شيخنا ... أن الرئيس أبا عبد الله ابن زمرك دخل على الشيخ ذى الوزارتين أبى عبد الله ابن الخطيب يستأذنه فى جملة مسائل مما يتوقف عادة على إذن الوزير وكان معظمها فيما يرجع إلى مصلحة الرئيس أبى عبد الله ابن زمرك . قال الشريف فأمضاها كلها له ما عدا واحدة منها تضمنت نقض عادة مستمرة فقال له ذو الوزارتين ابن الخطيب لا ، والله يارئيس أبا عبد الله لا آذن فى هذا لأنّا ما استقمنا فى هذه الدار إلا بحفظ العوائد[57] » .

---

(55) انظر الديوان رقم 24 .

(56) انظر : دائرة المعارف مقالة الأستاذ طالبى ، ج 3 ، ص 849 .

(57) انظر : المقرى فى النفح ، ج 6 ، ص 147 .

إن هذا الفضل الذى كان يتمتع به ابن زمرك قد أثار بطبيعة الحال غيرة أولئك الذين لم يوفقوا مثله فى سعيهم فأصبح همّهم الوحيد تحطيمه بأى وسيلة كانت ويشير ابن الأحمر فى أسلوب يغلب عليه الغموض أحيانا إلى ما كان يهدّد ابن زمرك من طرف أعداء أقوياء مصممين على النيل منه . وكان هذا الأخير شاعرا بالأخطار المحيطة به فرأى من الأليق له فى ظروف كهذه أن يهتم بالتعليم . فجلس أول الأمر للتدريس بمالقة ثم التحق بمسجد الحمراء حيث التف حوله للإصغاء إليه جمهور غفير وينبغى أن نخص بالذكر من بين المترددين عليه الشاطبى[58] وما أدراك من هو فإنه يطلعنا فى كتابه « الإشارات والإفادات » على الفنون التى يتعرض إليها ابن زمرك كما يبدى مدى تضلعه فى اللغة فيقول : « أفادنى صاحبنا الفقيه الكاتب أبو عبد الله بن زمرك إثر إيابه إلى وطنه من رحلة العدوة فى علم البيان فوائد أذكر منها الآن ثلاثاً : الفقه فى اللغة وهو النظر فى مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب ... تحرى الألفاظ البعيدة عن طرفى الغرابة والابتذال ... اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أو تشوش عليه ...[59] » .

ويلاحظ ابن الأحمر أن ابن زمرك كان معتنيا بتفسير القرآن أكثر من اعتنائه بالفنون الأخرى فيقول : « وكان التفسير أغلب عليه لفرط ذكائه وما كان قيده وحصله أيام قراءته وإقرائه فما شئت من بيان وإعجاز قرآن وآيات توحيد وإخلاص ومناهج صوفية تؤذن بالخلاص يوم الأخذ بالنواص[60] » .

وقد ورد فى رسالة[61] ابن زمرك إلى ابن خلدون ما يؤيد ـــ إن كنا فى حاجة إلى ذلك ـــ قول ابن الأحمر ، فمن بين الكتب الموجودة بالقاهرة يود ابن زمرك أن يحصل على كتب التفسير التى لم يتح له أن يطلع عليها فيطلب

---

(58) إبراهيم بن موسى الغرناطى المتوفى سنة 790 / 1388 . انظر : نيل الابتهاج ، ص 46 - 50 .

(59) انظر النفح ج 7 ، ص 279 .

(60) انظر : أزهار الرياض ، ج 2 ، ص 17 .

(61) انظر : الديوان رقم 24 .

من مراسله العلامة الجليل قائلا : « والمرغوب من سيدى أن يبعث لي ما أمكن من كلام فضلاء الوقت وأشياخهم على « الفاتحة » إذ لا يمكن بعث تفسير كامل لأنى أثبت فى تفسيرها ما أرجو النفع به عند الله وقد أعلمتكم أن عندى التفسير الذى أوصله إلى المغرب عثمان التجاني من تأليف الطيبي[62] والسّفر الأول من تفسير أبى حيان[63] وملخص إعرابه وكتاب المغنى لابن هشام[64] وسمعت عن بدأة تفسير الإمام بهاء الدين عقيل[65] ووصلت إليّ بدأة من كلام أكمل الدين الأثيرى[66] رضى الله عن جميعهم ولكن لم يصل إلا البسملة وذكر أبو حيان فى صدر تفسيره أن شيخه سليمان النقيب[67] أو أبو سليمان لا أدرى الآن صنّف كتابا فى البيان فى سفرين جعله مقدمة فى كتاب تفسيره الكبير فإن أمكن سيدى توجيهه .

وإن هذه الرسالة التى كتبها ابن زمرك وهو فى السادسة والخمسين من العمر لدليل قاطع على اهتمامه المستمر طيلة حياته بالقرآن وما يساعد على تفسيره من نحو وبيان .

وأما فى الميدان الأدبى فليست لدينا معلومات كافية عن الأدباء والشعراء ــ من الشرق كانوا أو من الغرب ــ الذين اقتدى بهم ابن زمرك وتذوق شعرهم ورغب فى مماثلتهم ما عدا ابن الخطيب طبعا وشاعرا ثانيا ألا وهو مواطنه ابن خفاجة[68] . فلا مجال للشك فى أن ابن زمرك قد تأثر تأثرا عميقا بابن الخطيب الذى كان آية فى الشعر وفن التوشيح كما هو معروف . وأما الثانى فيبدو أن ابن زمرك كان معجبا به إلى حدّ بعيد وما اشتهر به ابن خفاجة هو شغفه

---

(62) هو الحسين بن عبد الله شرف الدين توفى سنة 743 : انظر الدرر الكامنة 2 ص 68 والبغية ص 228 .

(63) أثير الدين محمد بن يوسف الغرناطى (654 - 745) درس بالقاهرة : انظر الدرر الكامنة 4 ، 302 ، والبغية 161 .

(64) أبو عبد الله بن عقيل القرشى الهاشمى النحوى المشهور (698 - 769) ، انظر الدرر الكامنة 2 ، 266 ، البغية 284 .

(65) جمال الدين بن عبد الله بن هشام الأنصارى (708 - 761) : درر 2 ، 308 ، بغية 293 .

(66) أكمل الدين الأثيرى توفى سنة 786 . انظر التعريف تعليق 1 ، ص 274 .

(67) جمال الدين أبو عبد الله المعروف بابن النقيب (611 - 698) انظر التعريف .

(68) هو أبو اسحاق إبراهيم ابن خفاجة نشأ بجزيرة شقر سنة 1058/450 وتوفى بها سنة 533 ، الديوان ط . غازى الإسكندرية 1960 .

بالطبيعة ومناظرها الخلابة وقد سبق لنا أن قلنا فى دراسة لحياة وشعر ابن خفاجة « إنه كان شاعر الطبيعة فنانا ماهرا فجاء شعره محلى بكل ما تسمح به البلاغة من بيان فطار صيته فى المشرق والمغرب واعترف له بالفضل فأثنى عليه وعدّ من زعماء الغزل ومن الجنانين النادرين[69] » ولا شك أن رقّة شعر ابن خفاجة وجودته الشكلية وعذوبته الأسلوبية هى التى استلفتت نظر ابن زمرك فاعتبر هذا الشعر شعرا راقيا ومثلا يقتدى به فلم يحرم نفسه من تقليده . وهذا ما أدى ابن الخطيب إلى القول بأن ابن زمرك كان « خفاجى النزعة[70] » وأمّا أبو الحسن على بن لسان الدين فقد أورد آراء تخالف تماما آراء والده ، والجدير بالذكر أن أبا الحسن ذكر ابن زمرك بالسؤ رغبة فى الحط من قيمته وذلك بعد الدور الذى لعبه هذا الأخير فى المؤامرة التى انتهت بمقتل ابن الخطيب كما سنرى ، ففى هذه الظروف الخاصة ذهب أبو الحسن إلى القول فى شأن القصيدة :

« معاذ الهوى أن أصبح القلب ساليا »

« بأن والده هو الذى نظّم له منها النسيب كلّه » ثم لم يتردد أن يضيف إلى هذا أن أباه هو الذى كان ينظم له قصائده السلطانية . ويبدو أن فى هذا القول مبالغة وهذا ما جعل المقرى يشك فى ذلك فقال رغبة منه فى الإنصاف « أما ما ذكر ابن لسان الدين من أن أباه كان ينظم لابن زمرك فذلك والله أعلم كان فى ابتداء أمره وإلا فقد جاء ابن زمرك فى آخر أيام لسان الدين وبعد موته بالبدائع التى لاتنكر[71] » .

وأما بالنسبة لابن خفاجة فإن أبا الحسن لم يقف عند تأثير ابن زمرك به فاعتمد على طردية[4] حيث يقول :

---

(69) انظر : حياة وآثار ابن خفاجة الأندلسي لحمدان حجاجي .

(70) انظر : الإحاطة 2 ، ص 222 .

(71) انظر :النفح 7 ، ص 403 .

(72) انظر : ديوان ابن زمرك رقم 39 .

« وجوارح سبقت إليه طلابها »

ليجزم « بأن ابن زمرك سرق طردية ابن خفاجة[73] طالبا منا أن نعود إلى الأصل لنتبين ـــ حسبه ـــ أنه سرق المعانى والألفاظ مع أن والدى نظم له أكثرها على حسب عادته » . وقد استجاب إلى هذه الدعوة المستشرق غارثية غومات فقال : « إن التشابه ثابت لا نقاش فيه فكلتاهما رائية القافية وبحرها الكامل « إلا أن قصيدة ابن زمرك أقصر من قصيدة ابن خفاجة فالأولى تتضمن 74 بيتا والثانية 98 بيتا ، ويلاحظ أن التشابه ـــ فى أربعة مواضع ـــ يشمل الشطر الثانى بأكمله كما يلاحظ بيت مماثل تماما ما عدا ثلاث مفردات مخالفة . فالمطابقة النغمية إذن واضحة غير أن تفوق ابن خفاجة كان عظيما : فالتقليد قد محا البديهة الحية والجرأة الاستعارية للمقتدى به ولكن الاحتفاظ بالجانب التقنى كان عجيبا . فهذه المقارنة الغريبة تؤيد التهمة المعاصرة ولكن تؤكد لنا فى نفس الوقت مدى التأثر الشديد فى التكوين بالشعر الكلاسيكى الجديد للقرن الحادى عشر وللنصف الأول للقرن الثانى عشر شعر كان ابن خفاجة من أبرع ممثليه[74] » .

## معاداته لابن الخطيب وارتقاؤه إلى منصب الوزارة

إن العلاقات بين غرناطة وفاس كانت حسنة مرضية منذ عودة محمد الخامس إلى الحمراء إلى غاية سنة 773 / 1372 فقد استعاد الملك النصرى رندة وفتح من جديد الجزيرة الخضراء بمساعدة المرينيين فهذا الاتفاق الودى السائد بين الدولتين كان من صنع ابن الخطيب الذى برهن هكذا على مهارته وحسن تدبيره فى شؤون المملكة[75] بصفة عامة وفى شؤونه بصفة خاصة ، مفكرا دائما فيما سيأتيه به الغد . فإن ابن الخطيب[76] كان يتمتع بثروات هائلة طائلة إلا أنه كان غير مرتاح البال خاشيا فى كل يوم أن تنفلت من يده إثر كارثة من الكوارث

---

(73) انظر : ديوان ابن خفاجة رقم 2 ، ص 33 ، ط . غازى . الإسكندرية .

(74) انظر : خمسة شعراء ، ص 226 .

(75) انظر : آربى ق : إسبانيا الإسلامية فى عصر بنى نصر ، ص 117 .

(76) انظر : ابن خلدون : عبر ج VII ، ص 794 وما بعدها .

فكيف يكون عندئذ مصيره . وهذا ما جعله ينظر دائما إلى المغرب حتى يجد به من يساعده ويلجأ إليه لو اضطر إلى مغادرة الأندلس . ولذلك فإنه لم يترك فرصة لتعبيد السبيل الموصل إلى الملوك المرينيين . فسعى دائما لإرضائهم وتلبية رغباتهم فحظى لديهم بمنزلة عالية إذ عدّوه من أوفيائهم .

وإن هذه السياسة لم تخف عن الحساد والأعداء الذين كان همهم الوحيد النيل منه حتى يفسح أمامهم المجال فأصبحوا يسعون به عند الأمير ولكن الغنى بالله لم يصغ إليهم فى البداية لثقته التامة بوزيره . ولكن لسان الدين بدأ يشعر أن ما كان ينقل إلى محمد الخامس باستمرار أخذ يخامر ذهن هذا الأخير وتظاهر له نوع من التغير نحوه . ألم ينجح الوشاة فى مهمتهم ؟ فمهما كان الأمر فإن ابن الخطيب خاف على نفسه فاغتنم فرصة رحلة تفقدية فى الناحية الغربية للمملكة لاجتياز جبل طارق قاصدا سبتة ومنها تلمسان حيث استقبله السلطان المرينى أبو فارس عبد العزيز استقبالا حافلا وعامله معاملة أعيان الدولة ثم توسل له عند الملك النصرى في شأن أسرته التي سرعان ما التحقت به . وكان هذا سنة 773 / 1371 .

فهذا الحادث قد أثار ضجة كبرى فى البلاط الغرناطى وأزال كل التحفظات فى التصريح بما كان يقال خفية . فلم يجد المعنيون بالأمر فى حاشية الملك أية صعوبة — فى سياق كهذا — أن يقنعوا هذا الأخير بغدر وخديعة من كان وزيرا له . وطالبوا بمعاقبته بلا شفقة ولا رأفة . وأما ابن الخطيب من جهته فقد أقنع السلطان المرينى بالزحف على الأندلس والاستيلاء على المملكة الغرناطية .

فتيقن عندئذ محمد الخامس بأنه مهدّد وخشي أن يفقد عرشه مرّة ثانية فقرر القضاء على ابن الخطيب بأية وسيلة كانت .

وفي نفس هذه السنة عين ابن زمرك — وقد بلغ من العمر أربعين سنة — في منصب وزير فحلّ هكذا محلّ أستاذه ولكن هذا الارتقاء إلى أعلى درجة

في الدولة لم يعد على صاحبه إلا بالإيجابيات . وبالفعل فإن ابن زمرك هو الذى أصبح مكلّفا بقضية ابن الخطيب معلمه ومربيه وحاميه والمحسن إليه طيلة سنوات عديدة فوجد ابن زمرك نفسه في مفترق الطرق حيث كان عليه أن يختار أى طريق يخوضه . أكان عليه أن يمتثل لأمر ملكه وفي نفس الوقت يبرهن على أنانيته ونكرانه للخير نحو ذلك الذى أخذ بيده وقاد خطاه فأوصله إلى ما هو عليه أم كان عليه أن يرفض هذه المهمة الخطيرة الشاقة وفى نفس الوقت يفقد ثقة ملكه وبالتالى منصب الوزارة .

قد يبدو أن ابن زمرك لم يتردّد طويلا حتى اختار فريق الغني بالله ضد لسان الدين .

فإذا حاولنا تعليل هذا الاختيار جاز لنا أن نقول بأن ابن زمرك كان من أولئك الذين يحترمون الشريعة ويبغضون الخيانة ومن أولئك الذين لا تسمح لهم مروءتهم أن يساندوا الخونة . وأن كلمة الوفاء لديهم لم تكن خالية من معنى — وإلى جانب هذه المبادىء الأخلاقية والخصال الحميدة — التى افترضناها والتى لا شك أنها تقع موقع الرضى من نفس من تحلى بها — فإنه يجوز لنا أن نفترض ما يخالفها فيتجلى لنا ابن زمرك بَشَراً ، له ما له وعليه ما عليه ، بفضائله ونقائصه كغيره من الرجال فكان موقفه موقف الرجل السياسي — ومن المعلوم أن السياسة والأخلاق عالمان مختلفان — ذلك الذى يميز بين ما ينفعه وبين ما يضره . ولقد رأى ابن زمرك فى هذه المرحلة من حياته أن مصلحته ومصلحة ملكه سيان . فانتصاره مرتبط بانتصار هذا الأخير وعليه فإنه تفرغ بكل جهوده لتحطيم صديقه السابق الذى أصبح من ألدّ أعدائه . فما بقى لابن الخطيب إلا أن يتأمل هذه الوضعية ويتأسف على ما توصل إليه من كان بالأمس تحت جناحه فرأى آنذاك أن يترجم له ترجمة ثانية في كتابه « الكامنة » هي على طرف نقيض بالنسبة للترجمة الأولى الواردة فى الإحاطة . فجاءت عبارة عن خيبته فتحسر على ما خص به هذا الرجل من عناية وتبين له أنه أساء الاختيار وأراد أن يصلح الخطأ الذى وقع فيه فصور ابن زمرك بأشنع الصور مؤكدا أنانيته وكتمانه للمعروف .

فقال : « هذا الرجيل والتصغير على أصله .. مخلوق من مكيدة وحذر ... خبيث ، إن شكر خدع ومكر ، ودسّ في الصفو العكر[77] . ولكن من المسؤول عمّا يعانيه منه الآن فيجيب ابن الخطيب قائلا : « فأنا المعتوب إذ اصطنعته وروجته ... فهو اليوم لولا النشأة الشائمة والدمامة البائنة صدر العصبة ونيّر تلك النصبة » ولكن ابن زمرك لم يهتز وبقى مصمما على تحقيق ما قرره عالما — ولا شك — بكل ما فى ذلك من سلبيات فوجد في القاضي الشهير النباهي المساعد الأمثل للاتفاق التام الحاصل بينهما للقيام بهذه المهمة . فاعتمد القاضي الغرناطي على مؤلفات ابن الخطيب الصوفية ولاسيما « نفاضة الجراب » لاتهام هذا الأخير بالزندقة فبعث محمد الخامس هذا القاضى بنفسه إلى السلطان عبد العزيز « فى الانتقام — حسب تعبير ابن خلدون[78] — منه بتلك السجلات وإمضاء حكم الله فيه » . ولكن السلطان المرينى لم يكن على استعداد لإرضاء رغبة صاحب الحمراء . فعلّل عدم تلبيته لطلب المرسول قائلا : « هلّا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ؟ وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان فى جوارى » . ولكن القدر شاء أن يتوفى تاركا مجيره لمصيره . فخلفه ابنه أبو زيان محمد السعيد وهو لا زال في سن الطفوله فتولى الأمر مكانه وزيره أبو بكر ابن غازى[79] الذى كان يعدّ من أنصار لسان الدين . فأخذه هذا الأخير معه لما قرر بلاط المغرب مغادرة تلمسان إلى مدينة فاس . فرأى محمد الخامس أن يجدد طلبه بتسليم لسان الدين إلا أنه لم يجد لدى ابن غازى أذنا صاغية فاستخلص أنه سيواجه عن قريب مهاجمة الجيوش المغربية . وحتى لا يفاجأ بذلك فإنه قصد جبل طارق فحاصره معتقدا أنه قد حان الوقت للتدخل فى شؤون السلطة القائمة التى تضمر له العداوة . وإن خلاصه يحصل

---

(77) انظر : الكتيبة ، ص 282 - 283 .

(78) انظر : ابن خلدون : عبر ، ج 7 ، ص 79 - 696 . وكذلك فى النفح ج 5 ، ص 119 .

(79) هو ابن غازى المعروف أيضا بنجل الكاس . انظر أزهار 2 ، ص 30 .

بإزالتها عن العرش . ففكر عندئذ في مساعدة ابن الأحمر أبي العباس أحمد بن أبي سالم ـــ المعتقل آنذاك بطنجة ـــ على إقامة دولة بالمغرب الأقصى وانتزاع الملك من ابن عمه أبي زيان بن عبد العزيز فاتصل لتحقيق هذا الغرض بمحمد بن عثمان المقيم بسبتة والذى ما هو إلا ابن عم الوزير المتعصب أبي بكر بن غازى . ولقد حفظ لنا المؤرخ ابن خلدون مضمون هذه الرسالة فقال :

« وداخله في البيعة لابن السلطان أبي سالم من الأبناء الذين كانوا بطنجة تحت الرقبة والحوطة وأن يقيمه للمسلمين سلطانا مستبدا يجول بسياجهم ويدافع عنهم ولا يتركهم فوضى وهملا . ويجب بيعة الصبي الذي لم تنعقد بيعته شرعا ، واختص هذا بالسلطان من بين أولئك الأولاد وفاء بحقوق أبيه ووعده بالمظاهرة على ذلك . واشترط عليه أن ينزلوا له عن الجبل إذا انعقد أمرهم ويشخصوا إليه بيعة الأبناء والقرابة من طنجة ليكونوا في إيالته وتحت حوطته وأن يبعثوا إليه بابن الخطيب متى قدروا عليه ..[80] » فكان لنداء وتحريض السلطان النصرى صدى ... وسرعان ما شرع في تحقيق الأهداف المشار إليها . وهكذا تأتّى لابن عباس بمساعدة ابن عثمان أن ينتصر في مؤامرته ويثب على العرش بفاس سنة 1374 / 776 .

فالقضاء على أنصار ابن الخطيب وتعويضهم بمن كانوا في خدمة الكتلة النصرية كان من شأنه أن يضع لسان الدين في متناول يد محمد الخامس إذ أنه لم يتردد في متابعة من كان نصب عينيه وتيقن ابن الخطيب أنه سيعيش أمرّ أوقات حياته في مستقبل قريب .

وبالفعل فإن سليمان بن داود[81] ـــ وقد أصبح من أعيان البلاط المرينى ـــ رأى أن الوقت قد حان لينتقم من عدوّه . فدبر في أمره حتى بلغ غايته . إذ ألقى القبض على ابن الخطيب ورمى به في السجن . وعندئذ تسرّع الغنيّ بالله إلى إرسال ابن زمرك إلى فاس ليطالب أبا العباس بإقامة الحدوذ على وزيره

---

(80) انظر : ابن خلدون ، ج 7 ، ص 702 - 703 .

(81) انظر : المرجع السابق، ص 708 - 709 .

السابق ، فقرر الملك المرينى ــ ليلبي رغبة الوافد عليه ــ أن يعقد مجلسا يضم أعيان الدولة من ضباط ورجال الشورى ليمثل أمامه المتهم ، ومن بين الحضور كان ــ بطبيعة الحال ــ ابن زمرك الذي أجرى السؤال على أستاذه السابق ، على أساس التهم القديمة . وإن المجلس حسب ما يبدو ــ لم يصدر أى حكم . رغم آراء من كانوا يميلون إلى القضاء عليه بالإعدام ــ فكان عندئذ من المنتظر أن يطلق سراحه إلا أن هذا لم يقع فأعيد به إلى السجن ولكن أعداءه لم يرضوا بهذه النتيجة . إذ كانوا مصممين على إهلاكه . فرجع الأمر مرة أخرى إلى سليمان بن داود الذى تحمل المسؤولية ــ متفقا في ذلك من دون شك مع الغني بالله وابن زمرك ــ في إرسال من دخل على ابن الخطيب في سجنه ليلا وقتله خنقا في نهاية سنة 776 / 1375 . وإن أبا الحسن ابن القتيل صرح على يقين بأن قاتل أبيه ما هو إلا ابن زمرك وحده[82] .

فعاد ابن زمرك إلى غرناطة بعد ما انتهى من مهمته واقعا من نفس الملك الغرناطي موقع الرضى فقد برهن على وفائه وإخلاصه ، ألم يستحق الجزاء ؟ أجل فإن الغني بالله قد خصه بثقة واسعة عميقة ، ثقة جعلت ابن زمرك متفردا بالسلطة في وقته بحيث لا يتأتى لأي أحد أن ينافسه فيها .

وتأتّى هكذا لابن زمرك الشاعر أن يبرهن على ذكائه ومهارته في الميدان السياسي فسيّر شؤون الدولة النصرية بأسلوب جديد متسم بتفضيله المفاوضة مع العدو وإبرام عقود تضمن له السلم وحسن الجوار على الحروب والمغامرات التي لا تجر معها إلا خسائر مالية وبشرية ضخمة إذا لم تنته بهزمات تهدد كيان الدولة الغرناطية .

وقد نجحت هذه السياسة في زمن كان المسيحيون فيه فرقا منغمسين في حروب داخلية بينهم بحيث كان من الأفضل لهم استمرارية الهدنة بينهم وبين الملك النصرى . وإذا ألقينا نظرة على العدوة لاحظنا هناك أيضا أن الشقاق كان

---

(82) انظر : النفح ، ج 6 ، ص 77 .

سائدا بين المطالبين بالعرش مع ما ينجم عن هذه الحالة من فوضى ، تلك الفوضى التي رأى ابن زمرك أن يستخدمها لمصلحته . ولعلّه تذكر المثل السائر « فرق تسد » إذ ركّز سياسته كلها على أساس التدخل في شؤون الدولة المرينية . فحليف اليوم هو عدو الغد والعكس بالعكس فكان همه الوحيد إيصال حلفاء مأمونين إلى العرش المغربي مدينين له بما قام به في انتصارهم على أعدائهم وبالتالى فهؤلاء كانوا مستعدين لتلبية طلبات الوزير الغرناطي[83] . ولقد أشرنا إلى الدور الأساسي الذي لعبه محمد الخامس في حق المريني أبي العباس ثم تعويضه بموسى بن عنان ثم إرجاعه إلى العرش مرة ثانية . وهذا ما أدى بابن خلدون إلى القول بأن المملكة المغربية أصبحت تعتبر إقليما من أقاليم المملكة الغرناطية . وإن خطورة هذه السياسة النصرية لم تخف عن ابن زمرك إذ بدا له من اللائق أن يحدث ابن خلدون في الرسالة المذكورة[84] عن هذا الموضوع ربما لشعوره بالحاجة إلى إقناعه . فقال في شأن ابن رحو[85] المتمرد عن الغني بالله الذي طالما أحسن إليه من قبل : « كان مسعود بن رحو الذى أقام بالأندلس عشرين عاما يتبنك التعميم ويقود الدنيا ويتخير العيش والجاه قد أجيز صحبة ولد أبي عنان كما تعرفتم من نسخة كتاب أنشأته بجبل الفتح لأهل الحضرة فاستولى على المملكة وحصل على الدنيا وانفرد برياسة دار المغرب لضعف السلطان رحمه الله ولم يكن إلا أن كفرت الحقوق وحنظلت نخلته السحوق وشف على سواد جلدته العقوق وداخل من بسبتة فانتفضت طاعة أهلها وظنوا أن القصبة لا تثبت لهم وكان قائدها الشيخ البهمة فلّ الحصار وحلي القتال ومجش الحرب أبو زكرياء بن شعيب فثبت للصدمة ونوّر للأندلس فبادره المدد من الجبل ومالقة وتوالت الأمداد وخاف أهل البلد وراجع شرفاءه وداخلوا القصبة واستغاث أهل البلد

---

(83) راجع ابن خلدون . العبر ، ج 7 ، ص 739 - 740 .

(84) انظر : الديوان رقم 24 .

(85) هو مسعود بن رحوالماساى من حاشية الملك الغرناطي قد أرسل بصفة وزير مع موسى بن عنان الذى كان من المقرر أن يخلف أبا العباس .

بمن جاورهم وجاءهم المدد أيضا ثم دخل الصالحون في رغبة هذا المقام ورفع القتال وفي أثناء ذلك غدروا ثانية فاستدعى الحال إجازة السلطان المخلوع أبي العباس لتبادر القصبة به ويتوجه منها إلى المغرب لرغبة بني مرين وغيرهم فيه وهو ولد السلطان المرحوم أبي سالم الذى قلدكم رياسة داره وأوجب لكم المزية على أوليائه وأنصاره » .

يتجلى لنا من خلال هذه الأساطير أن ابن زمرك واجه أزمات خطيرة كان عليه أن يتوصل فيها إلى حلول مرضية تضمن له ولملكه البقاء ولذلك فإنه لم يتردد في استعمال الوسائل الناجعة التي تمكنه من الغاية المنشودة فدبّر في الأمور تدبيرا جعله يسيطر على الحوادث متذوقا دائما حلاوة الانتصار . وأن مملكة غرناطة مدينة له إلى حد بعيد فيما تمتعت به من سلم وهدوء في عصر الشقاق والاضطرابات فقطعت معه أشواطا وعمرت مدة طويلة . وأن الغنّي بالله ليتميز بأطول إقامة على العرش فى العالم الإسلامي شرقا وغربا وأن ابن زمرك كان شاعرا بذلك وقد تأتى له أن يفتخر بما لم يتح إلا للقليل النادر أن يتوصل إلى ما توصل إليه فقال في رسالة رواها لنا ابن الأحمر حيث سطر لنا حياته في أحضان الغني بالله : « خدمته سبعا وثلاثين سنة ثلاثة بالمغرب وباقيها بالأندلس أنشدته فيها ستا وستين قصيدة في ستة وستين عيدا وكل ما في منازله السعيدة من القصور والرياض والدشار والسبيكة من نظم رائق ومدح فائق في القباب والطاقات والطّرز وغير ذلك فهو لي وكنت أؤاكله وأؤاكل ابنه مولاى أبا الحجاج وهما كبيرا ملوك أهل الأرض وهنأته بكذا وكذا قصيدة وفوّض لي في عقد الصلح بين الملوك بالعدوتين وصلح النصارى عقدته تسع مرات الخمسة فوض إلى ذلك[86] ؟ » .

ومما لا شك فيه أن هذه النتائج الإيجابية كان من شأنها أن تعزز موقفه لدى الغني بالله من جهة وتثير غيرة حساده من جهة أخرى . فهؤلاء لم يكفوا عن السعاية به ولكن الملك الغرناطي لم يوهم أذنا صاغية لعلمه بأنه لا يستطيع أن

---

(86) انظر : أزهار الرياض ، ج 2 ، ص 16 - 17 .

يستغني عن وزيرٍ أمينٍ كان شغله الشاغل إرضاءه وتحقيق مشاريعه في شتى الميادين . فظن ابن زمرك أن أعداءه لا يجدون السبيل إلى النيل منه وهذا ما أدى به إلى أن يسلك سلوك الطغاة بدون أن يتأمل عواقب أفعاله فاتصف بأوصاف رجال السلطة آنذاك فشاع عنه الكبرياء وسوء الظن بالغير والظلم والتغطرس . فأدخل الرعب في قلوب من كانوا بجواره لعلمهم بأنه لا مرد لاعتدائه عليهم أينما شاء ووقتما شاء . وإن المترجم له ابن الأحمر ـــ وهو يعد من أنصاره ـــ لم يمكنه أن يغض الطرف عن هذا الجانب من جوانب شخصية ابن زمرك فقال[87] : « وكان من شأنه الاستخفاف بأولياء الأمر من حجاب الدولة والاسترسال في الرد عليهم بالطبع والجبلة مع الاستغراق في غمار الفتن أندلسا وعربا ومراعاة حظوظ نفسه استيلاء وغصبا . أما الجرأة فانتضى سيوفها وأما أكفاء السماء على الأرض فقواصم نوّع صنوفها وأما المجاهدة فوقف بميدان الاعتراض صفوفها وأما المجاملة فنكّر معروفها ... وشراسة في اللسان واعتزاز بمكانه وتصريب بين خدام السلطان وأعوانه ... » .

ولكن ما فات ابن زمرك ـــ ضحية نشوته ـــ هو أن الكل يجرى إلى أجل مسمى تلك هي سنة الله في خلقه . فحدوث ما تجاهل وقوعه قد أيقظه بغتة وعاد به إلى الحقيقة . ونعني بذلك وفاة من كان يستمد منه قوته أى الغنيّ بالله حاميه[88] فيالها من صدمة تركت في نفس ابن زمرك آثارها القاسية فتألم تألما شديدا إذ أدرك أنه أصبح في متناول اليد فخشي على نفسه اللهم إلا إذا وجد في الخليفة الجديد الحامي الثاني الذي يقيه شر من كانوا ينتظرون هذه الساعة للانتقام منه وأراد ابن زمرك ألا يرى تغييرا ملموسا في الدار النصرية فتسلى عن الفقيد بسرعة واشتغل بترحيب الابن الصالح أبي الحجاج بن يوسف

(87) انظر : أزهار الرياض ، ج 2 ، ص 18 .

(88) توفى الغني بالله سنة 793 / 1391 .

الثاني فالسلف والخلف سيان ، ويتجلى لنا ذلك في المرثية الأولى[1] التي ودع بها مخدومه . فقال مقارنا بين هذا وذاك :

2- لئن غربَ البدرُ المنيرُ محمدٌ لقد طلع البدرُ المكمّلُ يوسفُ
3- وإن ردّ سيفَ الملكِ صوناً لغمدهِ فقد سلَّ من غمدِ الخلافةِ مرهفُ
4- وإن طوت البرد اليماني يد البلى فقد نشر البرد الجديد المفوّفُ
5- وإن نضب الوادى وجف معينه فقد فاض بحرٌ بالجواهر يقذفُ

## السنوات الأخيرة

إن أبا الحجاج ـــ حسب ما يبدو ـــ لم يشعر نحو ابن زمرك بما كان يشعر به أبوه ـــ فترك نداء شاعرنا بدون صدى ـــ فأدرك عندئذ ابن زمرك أن وقت المحنة قد حان ، وبالفعل فإنه عزل وزج به في السجن إرضاء للعدد العديد من الأعداء الذين كانوا في انتظار هذه الساعة بفارغ الصبر فمكث قوى الأمس عشرين شهرا بمعتقل الميرية متذوقا ماأذاقه الغير من حرمان متأملا تقلبات الدهر ومستخلصا أنه لا شيء يدوم في هذه الدار الفانية . فالوسيلة الوحيدة التي كانت لديه هي استعطاف أبي الحجاج فكاتب هذا الأخير من السجن بأبيات قال فيها :

1- بما حزت من كرم الخلال بما أدركت من رُتَبِ الجلالِ
2- بما خوّلت من دين ودنيا بما قد حزت من شرفِ المعالي
3- بما أوليت من صنع جميل يطابق لفظُه معنى الكمالِ

فهذه الأبيات المعدودة قد استلفتت نظر أبي الحجاج ووقعت منه موقع الرضى بعد ما تأمل هذا النداء نداء رجل أصبح وحيدا منعزلا في غياهب السجن وقد تجاوز الستين من العمر . فأمر الملك الغرناطي بالإفراج عنه وإطلاق سراحه فاتح رمضان 794 وأكثر من ذلك فقد أعاده إلى منصبه وهذا ما لم يكن متوقعا ! فماذا دفع أبا الحجاج إلى تعيينه وزيرا ؟ أأصبح في حاجة إليه لخبرته

(89) انظر : الديوان رقم 48 .

وعلاقاته مع الدول المجاورة ؟ أتغيرت الوضعية السياسية ؟ فمهما كان الأمر فإن ابن زمرك لم يسعد بهذه المنزلة إلا أياما قلائل حتى فوجيء ـــ لسوء حظه ـــ بوفاة أبي الحجاج و لم ينته شهر رمضان ، فكانت محنته الثانية . إذ عزل عن الوزارة مرة أخرى إلا أنه لم يسجن ـــ فالخليفة الجديد محمد السابع قد دعا ابن عاصم إلى منصب الوزارة ـــ ولكن سرعان ما تغيرت الأوضاع ففعل محمد السابع ما فعله أبو الحجاج ودعا بدوره ابن زمرك للوزارة في محل ابن عاصم وذلك سنة 795 / 1393 .

فهذا الرجل الذى عاد إلى الوزارة قد بدا للناس بصورة غير مألوفة لم يكن لهم عهد بها منذ زمن طويل فما سبب هذا التغيير ؟ فمما لا شك فيه هو أن ابن زمرك أدرك ـــ بعد المحن التي عاشها ـــ أن الأصلح له أن يسلك في الحياة سلوكا يسمح له باستعادة ثقة غيره به حتى يأنس به كل من كان في جواره . فأبدى التواضع وحسن المعاملة والرزانة في أقواله وأفعاله ، و لم يفت مترجمه ابن الأحمر أن يشير إلى هذا الجانب غير المتوقع . فقال : « ثم ردّ ( ابن زمرك ) إلى خطته وقد دمثت بعض أخلاقه وخمدت شراسته وحلا بعض مذاقه[1] » . ولكن فما تعود عليه وزيرنا أثناء السنين الطوال قد يصعب ـ بل يستحيل ـ أن تمحوه أشهر قلائل . وبما أن العادة هي طبيعة ثانية كما يقال فإن ابن زمرك لم يثبت على هذه الحال وعاد من حيث لا يشعر إلى ما كان عليه سابقا في عهد الغني بالله مثيرا مرة أخرى تحفظ من كان حوله فاتقوا شره وعدوانه فى سلوكهم ولكن ما فات ابن زمرك هو أن محمداً السابع ليس الغني بالله وأن التاريخ لا يتكرر مهما كان الأمر ، فالوقت الذى كان يفعل فيه ما يشاء عادلا أو ظالما بدون أن يحاسب قد مضى وانقضى . وبالفعل فإن ابن زمرك قد أصبح في ظروف تغيرت رأسا على عقب . فإنه ليس بذلك الشاب صاحب الفكر الوقّاد وإنما هو في عهد الشيخوخة إذ ناهز الستين من عمره معانيا من الأمراض

---

(90) انظر : النفح ، ج 5 ، ص 145 .

العادية الناتجة عن سنه مع العلم أنه لم يكن يتمتع بصحة جيدة منذ صغره . كما أشرنا إليه . وفضلا عن هذا فإن الصمم الذى أصيب به قد زاد في انعزاله ودعاه إلى التشكك في كل ما يرى معتبرا الجميع أعداء له فعاملهم معاملة سيئة كأنهم مسؤولون عمّا هو عليه فلم يخف أمامهم رغبة الانتقام منهم . ونعود مرة أخرى إلى ابن الأحمر الذى وصف لنا ما طرأ على ابن زمرك من تغيير فيقول : « فما كان إلا كلا وليت وإذا به قد ساء مشهدا وغيبا وأوسع الضمائر شكا وريبا وغلبت الإحن عليه وغلت مراجلها لديه فصار يتقلب على جمر الغضا ويتبرم بالقضا ويظهر النصح وفي طيّه التشفي ويسم نفسه بالصلاح ويعلن بالخشوع ويشير بأنه الناصح الأمين ويتلو قوله تعالى ﴿ ولكن لا تحبون الناصحين ﴾[91] ورتب على المشتغلين كبيرهم وصغيرهم ذنوبا لم يقترفوها ونسب إليهم نسبا من التضييع لم يعرفوها وأنهم احتجنوا الأموال وأساءوا الأعمال والأقوال ... هذا على قلة معرفته بتلك الطريقة الاشتغالية وعدم اضطلاعه بالأمور الجبائية » .

فضاقت الصدور بهذه الاعتداءات المتوالية والتهم بدون دلائل مما جعل الملك الغرناطي يولي أذنا صاغية للمشتكين حتى خامره الشك هو بنفسه فيما يصدر عن وزيره . فتشجع أعداء ابن زمرك في السعاية به حتى توصلوا إلى أن يفقد محمد السابع الثقة به وذلك من الوقت الذى شعر فيه بأن ابن زمرك يكيد له ويتآمر عليه . وهذا ما يعتبر من الكبائر التي لا تغتفر . فبارتكابها قد قضى وزيرنا على نفسه .

وبالفعل فإنه لم تمر إلا أيام قلائل حتى فوجيء ابن زمرك وهو ببيته ليلا بين أهله بروّاد الملك الغرناطي . ولنترك الكلمة لابن الأحمر الذى روى لنا هذه الحادثة بتفصيل فقال : « فهلك في جنح الليل في جوف داره على يد مخدومه تلقاه ـــ زعموا ـــ عند الدخول عليه وهو بالمصحف رافع يديه فجدلته السيوف

---

(91) سورة الأعراف : 79 .

وتناولته الحتوف فقضي عليه وعلى من وجد من خدامه وابنيه كل ذلك بمرأى عين من أهله وبناته ولم يتقوا الله فيه حق تقاته فكانت أنكى الفجائع وأفظع الوقائع[92] » . وهذا الفعل الوحشي قد تم بعد عام 795 على حد تعبير المقرى في تاريخ غير مضبوط بدقة فنستخلص من هذا أن ابن زمرك كان في الثانية والستين من العمر .

وهذه النهاية تذكرنا حتما بما حدث تسعة عشر عاما من قبل للسان الدين بن الخطيب . ولقد رأى أتباع هذا الأخير في ذلك يد الله تعالى الساهر على حقوق عباده فمن قتل قُتل ومن عمل مثقال ذرة شرا يراه . فهذا ما كان في حق ابن زمرك الذى دين كما كان يدين ويذهب المؤرخ المقرى إلى المقارنة بين ظروف وفاة هذا وذاك فيقول : « وقد اطلعت منه على تصاريف أحوال ابن زمرك وقتله على الوجه الذى يعلم منه أن ثأر لسان الدين بن الخطيب لديه لا يترك بل قتلته أفظع من قتلة لسان الدين لأن هذا قُتِل بين عياله وأهله وقُتِل معه ابناه ومن وجد من خدمه ولسان الدين رحمه الله تعالى خنق بمفرده وعند الله تجتمع الخصوم وهو العفو الغفور[93] » .

---

(92) انظر : نفح الطيب ، ج 7 ، ص 170 .

(93) المرجع نفسه .

# الإنتاج الشعري أو ما تبقى منه

لم يكن ابن زمرك فحسب ذلك الوزير الماهر والسياسي الظافر في الدولة النصرية تحت ظل الغني بالله وإنما كان قبل كل شيء شاعرا مجيدا وموشحا مفلقا . ولقد رأينا كيف انفتحت أمامه أبواب الحمراء وقتما كان لا يملك إلا سحر شعره ، سحرا استولى على قلب الملك الغرناطي الذى أصبح من أكبر المعجبين به إعجاباً أداه إلى تخليد ابن زمرك وذلك باختيار عدد وافر من أبياته الشعرية استعملت للزخرفة ونقش إطارات النوافذ والأروقة والمباني الملكية وجدران الحمراء الشهيرة ، وطرز الخلع الفاخرة ــ فهذا الاختيار يشهد ــ إن كنا في حاجة إلى ذلك ــ على مدى استعذاب الغني بالله لهذاالشعر ــ وهذا ما أدى المستشرق غارثيه غومات إلى تسمية ابن زمرك بشاعر « الحمراء » تلك الحمراء التي تعد من أثمن النشرات في العالم لمختارات شعرية من قصائد ابن زمرك كست الجدران وأحاطت فسقيّات نوافر المياه[94] » وإن هذا الشعر الذى لا زال محتفظا به إلى يومنا هذا قد كان موضوع بحوث عديدة[95] يستخلص منها أن معظم هذا الشعر مقتبس من قصائد مدحية قيلت في حق محمد الخامس .

وقد أنتج ابن زمرك كثيرا أثناء حياته البلاطية الطويلة ولقد أشرنا إليه وقتما افتخر أمام أعدائه بهذا الحظ السعيد لدى مخدومه وذكر بنفسه العدد الباهظ للقصائد التي نظمها في حق الغني بإلله وهذا في المدح باستثناء الأغراض الشعرية الأخرى .

لم يهتم ابن زمرك بجمع شعره في حياته ويرجع الفضل في ذلك إلى المؤرخ ابن الأحمر الذى اعتنى بهذه المهمة لإعجابه به وبالتالى بجده الغني بالله الذى

---

(94) انظر : « فرنسية بالحمراء » ص 109 ، ويلاحظ غومات أن ابن الخطيب حسب المقرى قد سبق ابن زمرك بهذا الامتياز . وأن قصيدة لابن الخطيب قد نقشت على جدران الحمراء بمناسبة عودة الغني بالله إلى غرناطة إلا أنه لم يوجد لها أثر اليوم .

(95) انظر دى برانجي (De Pranger) في : دراسة حول الهندسة المعمارية العربية ص 1 إلى 28 . ولقد ترجم المؤلف الأبيات المنقولة .

أرتضاه لكتابته وصرّفه في الوجوه المتعددة من رسالته وحجابته . ألم ير في هذا الشعر المرآة الصادقة التي تعكس على الأجيال المتوالية كل ما للدولة النصرية من مفاخر ؟ وإنه كان مقتنعا بذلك إذ كتب بكل هدوء : « ولا خفاء أن أيام مولانا الجد المقدس الغني بالله ــ تولاه الله تعالى برضوانه ــ كانت غررا في وجوه الأيام ومواسم تجمع الطمّ والرّم من الرؤساء الأعلام[96] » ، ويبدو أن العمل قد كلف ابن الأحمر جهدا كبيرا لما اضطر إليه من بحث وجمع وتحقيق وإنه ليشير هو بنفسه إلى كل ما قام به ليصل إلى الغاية المنشودة . فيقول : « وصرفنا للبحث والتفتيش وجوه آمالنا وجعلنا ضمّ ما نثرته الحوادث من منظوماته من أكيد أعمالنا وكان تعلق بمحفوظنا جملة وافرة من كلامه مشتملة على ما راق وحسن من نثره ونظمه فأضفنا ذلك إلى ما وقع عليه اجتهادنا من رقاعه الحائلة المنتهبة بأيدى النوائب الدائرة المستلبة بتعدى النواصب[97] » وهكذا تأتى لابن الأحمر أن يبرز للوجود مجموعة من الشعر هي على حدّ تعبيره « قلائد عقيان وعقود در ومرجان ترتاح النفوس النفيسة لإنشادها وتحضر الأبصار والأسماع عند إيرادها إلى ما يتخللها من تخليد مآثر سلفنا والإشادة بعظيم ملكنا » ، كما تسنى له أن يختار اسما وهو « البقية والمدرك من شعر ابن زمرك » ذاكرا ما يوضح به هذه التسمية فقال : « أما البقية فلما بقي بعد هلاكه وتخطته الحوادث وشح الدهر بإمساكه والمدرك لأجل ما ترك في مبيضاته ولم يخرجه في حياته[98] » .

إن هذا الديوان الذى وصفه المقرى بالسفر الضخم[99] وقتما اطلع عليه بتلمسان لم يعثر عليه بعد . ومن حسن الحظ فإن كمية قيّمة احتفظت لنا في كتب التراجم ، كمية تسمح للباحث أن يستفيد من دون شك بما تحمله في

---

(96) انظر : نفح الطيب ، ج 7 ، ص 123 .

(97) انظر : نفس المصدر ، ص 125 .

(98) انظر : أزهار الرياض ، ج 2 ، ص 21 .

(99) انظر : المصدر السابق ، ص 11 .

طيّاتها من إشارات تاريخية سياسية وبالأحرى من ميزات أدبية لآخر ممثل للآداب العربية بالأندلس وهذا ما دفعنا إلى الاهتمام بهذا الشعر ــ وقد شجعنا على ذلك منذ زمان المستشرق رجيس بلاشير ــ فجمعنا بدورنا كل ما كان متشردا مبعثرا ووضعناه في « ديوان » يصبح في متناول اليد ويمكن أن نسميه « بقية البقية والمدرك من شعر ابن زمرك » مع العلم أننا قد أضفنا القليل مما عثرنا عليه من نثر شاعرنا نثر لم يهتم به ابن الأحمر في أبحاثه[100] .

إن المصادر التي رجعنا إليها تنحصر في ثلاثة ذات أهمية كبرى وهي : أزهار الرياض ونفح الطيب للمقرى والإحاطة للسان الدين بن الخطيب . وينبغي أن نضيف إليها مصدرين رغم أنهما دون الأولى قيمة وهما : التعريف بابن خلدون ، و« في أشعار العرب وكلام بلاد الأندلس » لأحمد بن عيسى[101] . وهذا المصدر الأخير مخطوط[102] تم تأليفه سنة 1247 هجرية . وقد احتوى على قصائد ومقطوعات شعرية لم تنشر بعد . وإن عدم وجودها في المصادر المذكورة يدل على أن صاحب هذه المختارات قد رجع في شأن ابن زمرك إلى الأصل ويكون قد تصفح « البقية والمدرك » في زمن ليس ببعيد عنا . وأما المصادر الأخرى فلا حاجة إلى ذكرها إذ اكتفى فيها أصحابها بالنقل عمن سبق ذكرهم . وهكذا تأتى لنا أن نجمع 3380 بيتا من الشعر وصفحات من النثر ولجأنا إلى ترتيب الأشعار ترتيبا أبجديا حسب القوافي لأن القصائد لم تأت عادة مضبوطة بتاريخ إلا في القليل النادر وهذا ما يحرم الباحث من الدراسة التطورية حتى يكتشف المراحل الفنية التي مرّ بها الشاعر ، ومهما كان الأمر فإننا نستطيع أن نقول ــ والله أعلم ــ أن معظم ما بلغنا من الإنتاج الشعرى لابن زمرك قد نظم بين 1360/763 وهي السنة التي عاد فيها الملك المخلوع من منفاه إلى غرناطة و 1393/795 وهي السنة المرجحة لوفاة شاعرنا . ويتجلى لنا هكذا أن

(100) انظر : أزهار الرياض ، ج 2 ، ص 11 .

(101) لم نوفق إلى التعريف به .

(102) انظر : مخطوط رقم 1806 بالمكتبة الوطنية بالجزائر . وقد دلنا عليه زميلنا الطاهر مكي أستاذ سابق بجامعة الجزائر .

هذا الإنتاج الشعرى قد امتد على ما يزيد على ثلاثين سنة وهو شعر لرجل كان تجاوز الثلاثين من العمر أى بعد ما أصبح متضلعا في الأدب لا تخفى عنه خافية من أسرار البلاغة .

وما وقف عليه المترجمون ــ ولا سيما المقرى ــ من قصائد ومقطوعات لاطلاعنا على شتى الجوانب لفناننا لم يأت في مستوى واحد وقد لاحظنا عند قراءته تفاوتا في الكم والكيف . وإننا لنجد بالفعل بجوار مقطوعات مرتجلة يأتى بها كل شاعر بلاطي ليبرهن بها على مقدرته الشعرية وتوفيقه في الإجابة الفورية المواتية أو مقطوعات انتهازية لا طائل تحتها ، قصائد ذات طابع فني ممتاز إلى حد بعيد كما نجد بجوار مقطوعات ذات بيتين أو ثلاثة قصائد طوال يفوق عدد أبيات البعض منها المائة لتصل إلى مائة وأربعين ــ وهذا ما تجدر الإشارة إليه في الشعر العربي لما فيه من دلالة على طول نفس أصحابه ولا سيما إذا ذكرنا أنهم مرتبطون بقافية واحدة طيلة القصيدة .

وبما أن ابن زمرك لم يغادر غرناطة إلا وقتما اضطر إلى الإقامة بالعدوة في جوار الملك المخلوع ، يسوغ لنا أن نجزم بأن معظم ما نظمه كان بهذه المدينة .

وتجدر الإشارة إلى أن ابن الخطيب مثل ابن الأحمر في تقديمهما لقصائد ومقطوعات ابن زمرك ذكرا الظروف التي قيلت فيها مع الإشارة إلى الأغراض التي تعرض لها الشاعر . وكثيرا ما ساعدتنا هذه المقدمات على إدراك ما جاء غامضا في شعر صاحبنا فتوصلنا إلى إجلاء بعض الحوادث التاريخية التي تتعلق بالسياسة النصرية في عهد محمد الخامس سواء كان ذلك بغرناطة أم بالعدوة كما اتضحت لنا بعض العلاقات مع شخصيات مغربية ترفع الستار عما كانت تتميز به سياسة الملك ووزيره نحو الدولة المرينية .

أما من الناحية الشكلية والمعنوية والأدبية فإن هذا الإنتاج الشعرى لم يتسم بما يفاجيء القاريء . فنستخلص أن ابن زمرك كان شاعرا كلاسيكيا جديدا ممتثلا إلى حد بعيد للتقاليد الموروثة عن الشعراء الذين سبقوه عبر الأجيال المتوالية . فلا عجب إذن أن نجده مستخدما نفس الإطارات ونفس الألوان والأغراض الشعرية المعروفة .

### 1 ــ المدح :

لقد استخدم ابن زمرك القصائد التي هي الإطار المثالي للمدائح قصائد نجد فيها المرحلتين المعهودتين الأولى منهما تختص بالنسيب حيث يتعرض الشاعر فيها إلى التغزل بالحبيبة تارة أو إلى ما يقوم مقامه تارة أخرى ونعني بذلك ما تلهمه به الطبيعة الغناء ولا سيما طبيعة غرناطة وأحيانا يذهب فيه الشاعر إلى المزج بين هذا وذاك وأما المرحلة الثانية فيتعرض فيها للمدح ولا سيما مدح الملك الغرناطي .

### 2 ــ الطرديات :

تجدر الإشارة إلى هذا النوع الشعرى ــ رغم قلته إذ لم نعثر إلا على ثلاث مقطوعات منه ( رقم 2 ، 39 و 76 ) ــ للقرابة الوثيقة بينه وبين القصيدة المدحية إذ أن ابن زمرك لم يتعرض إليه إلا ليمدح بطل هذه الطرديات الذى هو الملك نفسه أو أحد أبنائه .

### 3 ــ العيديات :

إن ابن زمرك بصفته شاعرا رسميا كان عليه أن ينظم قصيدتين في السنة ، الأولى بمناسبة عيد الفطر والأخرى بمناسبة عيد الأضحى تكونان بمثابة تقديم التهاني لملكه ، وإذا ذكرنا أن شاعرنا قضى ثلاثا وثلاثين سنة بجوار مولاه حسب ما صرح به ــ فمن المفروض أن يكون قد نظم ستا وستين قصيدة ــ ولكن مع الأسف فإنه لم تحفظ لنا منها إلا ثلاث قصائد ومقطوعتان ( رقم 36 - 56 - 62 - 80 - 93 - ) ويلاحظ هنا أيضا أن الإطار الذى صيغت فيه هذه العيديات هو القصيدة بمرحلتيها . إلا أن ابن زمرك عوّض في إحداها النسيب بذكر الله ورسوله .

### 4 ــ المولديات :

إن هذا اللون من الشعر حديث العهد نسبيا في العالم الإسلامى والدليل

على ذلك أنه لم يفكر أحد ــ وذلك إلى نهاية القرن الخامس الهجرى ــ في الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف . وينبغي أن ننتظر سنة 604 / 1307 لنرى للمرة الأولى ــ حسب المؤرخ ابن خلكان[103] ــ الملك مظفر الدين ككبرى[104] يبادر بهذا الاحتفال بأربلة من ضواحي الموصل . ويذكر المستشرق فوكس[105] قائلا : « قد امتد هذا الاحتفال في عهد صلاح الدين إلى مصر حيث ارتسخت الصوفية بسرعة كبيرة ممهدة هكذا الميدان للقيام باحتفال يكون فيه المولد النبوى ــ قبل كل شيء ــ لرغبة دينية شعبية » .

ومن الواضح أن الغاية من هذا الاحتفال هو أن يكون للمسلمين هم أيضا احتفالهم بنبيهم كما هو الأمر عند المسيحيين الذين يحتفلون بنبيهم سيدنا عيسى عليه السلام . ولكن هذا لم يتحقق بدون صراع بين أهل السنة الذين رأوا في ذلك بدعة والصوفيين إلا أن هؤلاء الأخيرين في اتحاد مع الشعب قد انتصروا على الأولين ، ويستخلص المستشرق فوكس مرة أخرى « أن الاستعمال أقوى من النظرية العقيدية » .

ومن مصر انتقلت هذه العادة إلى شمال إفريقية متجهة نحو سبتة[106] وفاس وتلمسان لتبلغ الأندلس الإسلامية ، وإن الملك المريني أبو يعقوب يوسف[107] هو الذى رسم بصفة نهائية هذا الاحتفال بالمغرب . ومنذ ذلك العهد أصبح الاحتفال بالمولد النبوي احتفالا يشمل العالم الإسلامي حيث يعتبر الآن سنة تتسم يوم إحيائها بكل أبهة وعظمة .

---

(103) نشأ ابن خلكان سنة 608 وتوفى سنة 681 ، انظر دائرة المعارف ج 2 ، ص 420 الطبعة الجديدة بالفرنسية .

(104) ولي أربلة من سنة 586 إلى 680 وهو من عائلة صلاح الدين الأيوبي . انظر : وفيات الأعيان ، ج 1 ، ص 552 - 53 .

(105) انظر : مقالة المولد في دائرة المعارف ، ج 3 ، ص 481 ، الطبعة القديمة بالفرنسية .

(106) أبو القاسم العزافي الملك بسبتة الناشيء سنة 607 والمتوفي سنة 677 قد ألف : « الدر المنظم في مولد النبي المعظم » وقد قام أبوه بشرحه .

انظر : أزهار الرياض ، ج 2 ، ص 76 - 274 .

(107) انظر : المستشرق ثيراس ، ص 40 - 39 .

فمن بين المظاهر التي يتميز بها هذا الاحتفال ينبغي أن نلاحظ أن القصائد المدحية التي تنشد إجلالا للرسول عليه الصلاة والسلام تأتي في المرتبة الأولى وذلك رغم أن إنشادها تأخر في الزمن بالنسبة للتطواف بالأنوار والمآدب . وأن مادة هذه القصائد اقتبست في الأصل من الخطب التي كانت تلقى بالمساجد بمناسبة هذا الاحتفال . فرأى الشعراء المداحون في تلك القصائد فرصة أخرى لمدح الأمراء والملوك رغبة منهم في إرضائهم ولذلك وصلت إلينا المولدية مشتملة على ثلاث مراحل فالمرحلة الأولى خصصت للتغزل بالحبيبة وذلك لتقليد كعب بن زهير ــ حسب ما يبدو ــ في قصيدته الشهيرة « بانت سعاد فقلبي اليوم متبول » التي قدمت للنبي ﷺ . والمرحلة الثانية خصصت لمدح الرسول ﷺ والمرحلة الثالثة خصصت لمدح الملك أو من قام مقامه من أولي الأمر .

وإذا ألقينا الآن نظرة على مولديات ابن زمرك جاز لنا أن نقول إنه كان عليه أن ينظم قصيدة في السنة بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي . فاعتمادا على ما سبق لنا من الكلام فمن المفروض أن يكون قد نظم ثلاثا وثلاثين مولدية إلا أنه لم يبق لنا من هذه إلا أربع ومقدمة لخامسة ، ( الأرقام : 1 و 56 و 74 و 78 في الديوان ) وما يستلفت الأنظار أيضا ــ وذلك لندرته ــ هو أن ثلاث قصائد جاءت مصحوبة بتواريخ نظمها . فالأولى نظمت سنة 765 هـ والثانية سنة 767 هـ والثالثة سنة 768 هـ . وهذا ما يسمح لنا بملاحظة قيّمة إذ يتبين لنا أن هذه القصائد قد نظمت وابن زمرك لا زال كاتب سر لم يعين بعد وزيرا في مكان ابن الخطيب كما أشرنا إليه سابقا .

ومن السهل أخيرا أن نلاحظ أن مدح الملك يفوق أهمية مدح الرسول ﷺ ، مع أن هذا الأخير هو الباعث الأساسي على نظم تلك القصائد . ويرجع هذا إلى أن ما يهم الشاعر البلاطي هو أن يقع موقع الرضى من نفس سيده فلايرى عندئذ أى حرج في نظم أبيات مدحية في حق النبي ﷺ تكون توطئة للخوض في مدح حاميه المصغي إليه ومن الجلي أن الشاعر لا يتردّد في المقارنة بين هذا وذاك . أيوجد من هو أشرف من الرسول في نظر رجل مهما كانت قيمته ؟

وأن يرى الممدوح مادحه يرتقي به إلى مستوى سيّد البشر فيصفه بصفات يتمنى كل مؤمن أن يتحلى بها لهو أمر مثير للزهو وإن كان ذلك عن غير وعي .

إن ابن زمرك قد تجاوز الحدود إذ لم يقتصر على المقارنة بين الغني بالله والنبي ﷺ بل أدته مغالاته إلى عدم التفرقة بين هذا وذاك !

وإن هذه النزعة المطردة في وضع الملك مكان النبي ﷺ وإعطاء الصدارة للأول أدت الغني بالله إلى تنبيه مادحه مذكرا أن الأولوية في كل مولدية تعود إلى رسول الله ﷺ ، وقد أورد لنا ذلك ابن الأحمر في مقدمة لقصيدة فقال في هذا الشأن[108] : « كان مولانا رضي الله عنه أبى أن يرسل العنان في مدح مقامه مبالغة في توقير جانب المصطفى ﷺ وإعظامه » . ولكن هذا الدعاء بقي بدون صدى فاستمر الشعراء على ما تعودوا عليه . وإننا لنلاحظ أن ابن زمرك نفسه قد خصص في إحدى مولدياته[109]ستة وثلاثين بيتا لمدح الرسول ﷺ مقابل أربعين بيتا للملك الغرناطي .

وإن إنشاء المولديات قد أصبح من أهم المظاهر التي تتسم بها الليلة المولدية فكان الشعراء البلاطيون يغتنمون هذه الفرصة ليقبلوا على الملوك والأمراء فينشدوهم قصائدهم المدحية التي نُظمت بتلك المناسبة كتهنئة لهم .

وفي وقتنا الحاضر لا زالت تعقد حلقات في المساجد أو في دور بعض الأعيان للاستماع إلى قصائد في مدح النبي ﷺ ويكون إنشادها تارة ليلا وتارة نهارا مصحوبا بالحلويات والمشروبات .

## 5 ــ المراثي

إننا لم نعثر إلا على ثلاث قصائد[110] من هذا النوع الشعرى ولعل ذلك

---

(108) انظر : الديوان رقم 11 : المقدمة .

(109) انظر : الديوان رقم 11 .

(110) انظر : الديوان رقم 18 - 48 - 95 .

رابع إلى مزاج ابن زمرك الذى لم يدفعه إلى البكاء على الغير، إلا أن وفاة الغني بالله مع ما كان يتوقعه شاعرنا من أخطار قد تركت في نفسه حزازات أليمة وتحسرات شديدة جاءت بنغمات قاسية تعبر عن مدى حزنه على من كان يعيش من أجله . وإذا ذكرنا أن ابن زمرك كان قد بلغ من العمر آنذاك ستين سنة أدركنا مدى الفراغ المخيف الذى أحاط به وأشعره من جهة أخرى بدخوله في عهد الشيخوخة وبالتالي بالحاجة الماسة إلى من يحميه ولهذا فإنه فكر ـــ ودموعه سائلة ـــ أن يمدح الابن الذى سيخلف والده في الحمراء حتى يستعطفه ويلفت نظره إلى مصيره فيقيه من أعدائه .

وأما الشخصية الثانية التي تأثر ابن زمرك لوفاتها فهي أستاذه في اللغة أبو القاسم الحسين الشهير الذى تقدم الكلام عنه .

ولقد كان من المتوقع أن يهتم ابن زمرك لميوله إلى التصوف بنظم قصائد زهدية ولكننا لم نجد ـــ فيما اختاره المقرى أى أثر لهذا النوع من الشعر ولعل ابن زمرك ـــ كما لاحظ ذلك المستشرق رجيس بلاشير لم يكن شاعرا عرف قطرة الإلهام الديني[111] .

ولا حاجة إلى التنبيه هنا أيضا إلى أن ابن زمرك لم يجدد هذا النوع . فقصائده جاءت في صيغة ما تعرفنا عليه في هذا النوع بمراحله الثلاث إذ يبدأ الشاعر باعتبارات تتعلق بفناء الدنيا وما فيها من اغترار ثم يستأنف بمدح الفقيد لينتهي بالدعاء وطلب الرحمة والغفران .

**6 ـــ الهجاء :**

فإن كانت المراثي قليلة فالقصائد الهجائية أقل منها وهذا ما يثير الحيرة نظرا إلى العدد العديد من خصومه وبالفعل فإننا لم نعثر إلا على قصيدتين تضمنتا أبياتا معدودة في الهجاء[112] هجاء اقتصر على شخصيتين بارزتين ألا وهما ابن

---

(111) انظر : بلاشير في مقالته .

(112) انظر : الديوان رقم 24 و 32 .

رحو من جهة ولسان الدين من جهة أخرى فاتهم كلا منهما بنكران الجميل نحو من أحسن إليهما ويعني طبعا محمداً الخامس .

7 ــ **الوصف :**

لقد اهتم ابن زمرك بوصف الطبيعة غير أنه لم يخصص قصائد مستقلة في هذا الغرض . فالأبيات الكثيرة المبعثرة في إنتاجه الشعرى تبين لنا بوضوح مدى تعلق هذا الشاعر بهذاالنوع فلو جمعت هذه الأبيات كلها لكونت قسطا وافراً تتراءى لنا فيه الطبيعة من شتى الجوانب . وهذا ما يذكرنا بطبيةالحال بشاعر مفلق آخر كان يثير إعجاب شاعرنا ألا وهو ابن خفاجة الأندلسي المعروف « بالجنان[113] » .

8 ــ **الغزل**

لقد استمال هذا اللون الشعري ابن زمرك إلى حدّ بعيد فجاء إنتاجه عبارة عن أذواق وعواطف الأندلسيين آنذاك . والملاحظ أنه امتثل إلى قوانين الجمال المعهودة لدى العرب كما جمع بين الجنسين في الحب واصفا تارة حبيبا وتارة حبيبة . وقد وفق ابن زمرك بفضل براعته الأسلوبية في أن يثير في كثير من الأحيان إعجابنا به فأكثر من الصور الرائقة استقاها من طبيعة غرناطة ، التي كان مغرما بها . فخلق بانتقاله من هذه إلى الحبيبة تارة ومن هذه الأخيرة إلى الطبيعة تارة أخرى جوّاً يسوده الانسجام والتجانس اللفظي الموسيقي يملأ قلب السامع طربا .

9 ــ **المخمّس :**

إن صاحب النفح قد احتفظ لنا بقصيدة طويلة من نوع المخمس تضمنت سبعين مقطعا وكل مقطع تضمن خمسة أبيات البيتان الأولان يتسمان باستعمال

---

(113) ابن خفاجة : أبو اسحاق إبراهيم ولد بجزيرة شقر سنة 450 وتوفي بها سنة 533 ــ انظر : حياةوآثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة .

حرف القافية في العجز والبيت الخامس يأتي بقافية أخرى وإن هذه القافية تتكرر في كل بيت خامس من كل مقطع فيأتي الكل على الشكل التالي :

1 ________ ب 2 ________ ب

3 ________ ب 4 ________ ب

5 ________ ت

1 ________ ج 2 ________ ج

3 ________ ج 4 ________ ج

5 ________ ت

وهكذا .

فالجدير بالذكر هو أن هذا النوع من الشعر لم يكن سائرا بين الشعراء العرب فلم نجد في التاريخ الأدبي إلا عددا يكاد لا يذكر تفرغ إلى نظم قصائد في شكل المخمس وينبغي أن نذكر على سبيل المثال الشاعر الشهير ابن زيدون الأندلسي . وإن تعليل ذلك يبدو واضحا إذ لم يكن في وسع كل ناظم أن يتعرض لهذا الطراز الشعري لشروطه المعقدة ، شروط لا يسيطر عليها إلا من تمتع بالشاعرية الأصيلة وبطول النفس والثقافة الممتدة الأطراف . وقد تأتى لابن زمرك أن يوفق في نظم هذا المخمس الطويل بمناسبة عودة محمد الخامس إلى غرناطة منتصرا بعد استرجاع مدينة سبتة إلى ملكه . فاغتنم ابن زمرك هذه الفرصة ليمدح الأمراء النصريين أبا الحسن وأبا العباس وأبا عبد الله أبطال هذه المفخرة .

**10 ــ الموشحات :**

إنه لمن المستحيل أن نذكر بلاد الأندلس دون أن نذكر الموسيقى والأغاني والرقص إذ كانت من مميزات المجتمع الغرناطي الطروب ولياليه الزاهرة فليس من الغريب إذن أن يتعدد العازفون والمغنون والمؤلفون من الجنسين في وسط يدعو إلى اللهو والمرح . وليس من الغريب أن ينضم إلى هذا الركب عدد وافر من الشعراء المقلين والمكثرين فقد ارتاحوا إلى نظم مقطوعات شعرية أو قصائد معدة للغناء . وهذا الإنتاج قد سمّي بالموشحات ويعرفنا محمد بن أبي شنب

بالداعي إلى هذه التسمية فقال : « سميت هكذا بالمقارنة بالوشاح الذي هو حزام مزدوج مرّصع باللؤلؤ والياقوت أو شبه قلادة من جلد مرصّع باللؤلؤ تضعه المرأة على جسدها من العاتق إلى الكشح المقابل ثم يكون حزاما لها[114] » .

وهكذا أصبح الموشح فنّا كلاسيكيا جديدا رغم نشأته في القرن الثامن / التاسع الهجري في عهد عبد الله المرواني بالأندلس (275 - 300 هـ) . والجدير بالذكر أن هذا الفن لم يصبح ذا شأن عظيم إلا بعد زمان طويل سواء أكان في الغرب أم في الشرق .

وإن ابن زمرك لمسايرة أذواق عصره لم يتخلف بطبيعة الحال عن هذا النوع من الشعر فقد نظم موشحات عديدة ـــ بعضها لم يحظ بالتحقيق والنشر إلى يومنا هذا ـــ ولقد احتفظ لنا التاريخ بعشرين موشحة منها ما جاءت طويلة وأخرى قصيرة ومنها ما جاءت تامة وأخرى ناقصة أحصيناها في الجدول التالي :

ـــ موشحتان تضمنت كل منهما :47 بيتا أي 94 .
ـــ خمس موشحات تضمنت كل منها :37 بيتا أي 165 .
ـــ ست موشحات تضمنت كل منها :27 بيتا أي 162 .
ـــ موشحة واحدة تضمنت :25 بيتا أي 25 .
ـــ موشحة واحدة تضمنت :24 بيتا أي 24 .
ـــ موشحة واحدة تضمنت :17 بيتا أي 17 .
ـــ موشحة واحدة تضمنت :14 بيتا أي 14 .
ـــ موشحتان تضمنت كل منهما :10أبيات أي 20 .

فنعد في المجموع 541 بيتا وهو عدد معتبر نسبيا إذا ما تذكرنا أن هذا الإنتاج حصيلة اختيار خاضع لأذواق مؤرخي الأدب .

وإذا تأملنا هذه الموشحات توصلنا إلى ملاحظتين أساسيتين الأولى هي أن

---

(114) انظر : دائرة المعارف ، الجزء الثالث ، ص 848 . من الطبعة الأولى .

ابن زمرك لم يتخلّ عن الأوزان الخليلية وذلك رغم ما نعثر عليه من أنواع في غاية الاختلاف . فقد لاحظ ماتين هارتمان في دراسته وجود 146 نوعا يمكن الرجوع بها إلى الأبحر الستة عشر الكلاسيكية المعروفة ، وأما بالنسبة للغة المستعملة فهي تلك التي جاء بها الشعر الكلاسيكي الجديد بقواعدها النحوية والصرفية الأصيلة .

والملاحظة الثانية هي أن الشاعر أراد تحطيم الإطار الصلب للقصيدة والإتيان بهياكل جديدة غير محرجة تمثلت في الموشحة المشكلة من مقاطع شعرية يرتبها كل موشح حسب نزعته وذوقه .

وإن الموشحة العادية التي استمالت أغلب المؤرخين أتت على الصورة الآتية :

أ ــ **المطلع أو المذهب** : الذى يتكون من بيتين أو في حالات قليلة من بيت واحد ويسمّى كل شطر غصنا والمجموع أربعة أغصان حيث يستعمل الشاعر الموشح رويا في العجز ورويا آخر في القافية . وأما إذا كان المطلع مقتصرا على بيت فروى العجز هو نفس روى القافية . ويبقى أن المطلع في حدّ ذاته ليس بواجب إذ يمكن الاستغناء عنه . إلا أن الموشح بمطلعه يسمى تاما والموشح بدون مطلع يسمى أقرع .

ب ــ **الدور** : هو مقطع شعرى يتكون من ثلاثة أبيات على الأقل ومن خمسة أبيات على الأكثر تكون فيها الأعجاز على رويّ واحد والقوافي على رويّ واحد آخر . ومن الضرورى أن يكون رويّ العجز ورويّ القافية مخالفين لرويّ المطلع .

جـ ــ **القفل** : وهو مقطع شعرى يأتي به الشاعر الوشاح على صورة المطلع أى بنفس عدد الأبيات رويها الرويّ المستعمل في المطلع وهذا ــ كما يلاحظه محمد بن شنب ــ ما يؤثر على المستمعين بفضل تكرار نفس الأصوات ونفس التوقيعات .

وكل موشّح يتكوّن عادة من خمسة أقفال ويسمّى القفل الأخير « خرجة » وبه ينتهي الشاعر من منظومته . وما تجدر الإشارة إليه هو أن كل خرجة تأتي في صورة حوار يستعذب فيه استعمال ألفاظ أو عبارات شعبية .

وإذا ألقينا نظرة على موشحات ابن زمرك بدا لنا بوضوح أن شاعرنا قد امتثل للقواعد الموضوعة قبله لهذا الفن وإننا لنستطيع أن نميز ثلاثة أنواع يمكن تمثيلها كالتالي :

ــ **النوع الأول** : الموشح رقم 109 .

| | | |
|---|---|---|
| مطلع | ـــــــــــــ ا | ـــــــــــــ ب |
| | ـــــــــــــ ا | ـــــــــــــ ب |
| | ـــــــــــــ ت | ـــــــــــــ ج |
| دور | ـــــــــــــ ت | ـــــــــــــ ج |
| | ـــــــــــــ ت | ـــــــــــــ ج |
| قفل | ـــــــــــــ ا | ـــــــــــــ ب |
| | ـــــــــــــ ا | ـــــــــــــ ب |
| ............ | ............ | ............ |
| خرجة | ـــــــــــــ ا | ـــــــــــــ ب |
| | ـــــــــــــ ا | ـــــــــــــ ب |

**النوع الثاني** : الموشح رقم 119 .

| | | |
|---|---|---|
| مطلع | ـــــــــــــ د | ـــــــــــــ د |
| | ـــــــــــــ د | ـــــــــــــ د |
| | ـــــــــــــ س | ـــــــــــــ ف |
| دور | ـــــــــــــ س | ـــــــــــــ ف |
| | ـــــــــــــ س | ـــــــــــــ ف |

| | | |
|---|---|---|
| قفل | ـــــــــــــ د | ـــــــــــــ د |
| | ـــــــــــــ د | ـــــــــــــ د |

.................................................................

| | | |
|---|---|---|
| خرجة | ـــــــــــــ د | ـــــــــــــ د |
| | ـــــــــــــ د | ـــــــــــــ د |

**النوع الثالث** : الموشح رقم 116 .

| | | |
|---|---|---|
| مطلع | ـــــــــــــ م | ـــــــــــــ م |
| | ـــــــــــــ ل | ـــــــــــــ ن |
| دور | ـــــــــــــ ل | ـــــــــــــ ن |
| | ـــــــــــــ ل | ـــــــــــــ ن |
| قفل | ـــــــــــــ م | ـــــــــــــ م |

.................................................................

| | | |
|---|---|---|
| خرجة | ـــــــــــــ م | ـــــــــــــ م |

فمن اليسير أن نلاحظ أن موشحات ابن زمرك كلها موشحات تامة أتى فيها بمطلع متكون من بيتين ( رقم 109 و 119 ) وبمطلع متكون من بيت واحد ( رقم 116 ) ويلي كل مطلع دور بأبياته الثلاثة ودور ، وأخيرا خرجة ـــ كما نلاحظ عدم وجود حروف متقاطعة في الرويّ . إلا أنه قد حدث مرة لابن زمرك ـــ ليبرهن على براعته البلاغية ـــ أن ألزم نفسه بما لا يلزم آتيا بروى واحد في الأغصان الأربعة لمطلع ما أدّاه بطبيعة الحال إلى استعمال نفس الروى في جميع سطور القفل والخرجة[115] .

وبما أن الغاية من كل موشحة أن تلحن كما أشرنا إليه سابقا فإن أصحابها قد راعوا السهولة فيها من الناحية المعنوية ومن الناحية الأسلوبية . وذلك لتكون في متناول جمهور واسع يفهمها ويتذوقها .

---

(115) انظر : الديوان ، رقم 119 .

### 11- الرسائل :

وإلى جانب هذا الإنتاج الشعرى الوافر فإننا نعثر فيما احتفظ لنا به التاريخ على ثلاث رسائل طويلة عدد سطورها يزيد على المائة يتجلى لنا من خلالها ابن زمرك كاتبا ولكن هذه النماذج تبقى غير كافية ليسوغ لنا أن نأتى بأقوال حول نثر ابن زمرك ونعلق عليه بصفة مقنعة .

وقد روى لنا ابن الخطيب في كتابه « الإحاطة[116] » رسالتين وجههما له ابن زمرك فالأولى بتاريخ محرّف[117] والثانية غير مؤرخة وكلاهما بعثت لابن الخطيب زمان كان هذا الأخير يتمتع بالنفوذ والعزة في ظل الدولة النصرية وزمن كان ابن زمرك ذلك الرجل الوضيع المعترف بفضل المحسن إليه البارّ به كما أشرنا إليه سابقا . ومن خلال هاتين الرسالتين يتجلّى لنا ابن زمرك الكاتب العالم بأسرار النثر العربي من بلاغة وبيان فأطلق العنان لقلمه مهتما في ذلك بالشكل أكثر من اهتمامه بالمعاني فجاءت الرسالتان في أسلوب مسجّع يتسم أحيانا بنوع من الغموض ولكن غاية ابن زمرك هي تقديم رسائله في ديباج مرصّع وهاج تشترك العيون والآذان في استعذابه والطرب به .

والرسالة الثالثة هي التي كتبها ابن زمرك للمؤرخ ابن خلدون . وقد روى هذا الأخير فقرات طويلة منها في كتابه « التعريف[118] » بعد قصيدة مدحية طويلة نظمت في حقه . وجاءت هذه الرسالة بتاريخ 20 محرم سنة 789 هجرية أى وقتما كان ابن خلدون مقيما بالقاهرة .

في الفصل الأول من هذه الرسالة أغرق ابن زمرك في مدح مراسله مستعملا حسب ما يتطلبه المقام أسلوبا مسجّعا كثرت فيه الصور والاستعارات كما عودنا عليه في الرسالتين السابقتين . ولكن الفصول الأخرى حيث يعرض فيها ابن

---

(116) انظر : الإحاطة ، ج 2 ، ص 237 - 239 ، والديوان رقم 104 و 105 .

(117) فتاريخ 669 هـ . غير صحيح لعل الناسخ أراد 769 ؟ .

(118) انظر : التعريف بابن خلدون ، ص 274 . والديوان رقم 24 .

زمرك بعض الحوادث السياسية المحلية أو يطلب من ابن خلدون أن يبعث إليه من القاهرة بعض الكتب صدرت آنذاك فقد جاءت فى أسلوب مرسل خال من السجع إلا في فقرات قليلة من حين إلى آخر مما يدل على تفطن ابن زمرك إلى أن الرونق والجمال لا يكونان إلا في الأسلوب المسجع .

إن ابن زمرك ـــ كما نعرفه الآن ـــ كان طيلة حياته الوزارية في خدمة رجل واحد هو مدين له بكل ما توصل إليه . فليس من الغريب إذن أن نلاحظ أن أكثر القصائد المدحية والموشحات نظمت في شأن سيده وحاميه الملك الغني بالله وقد اغتنم ابن زمرك كل الفرص وكل المناسبات لذكر هذه الشخصية النصرية البارزة والإطراء عليها . ولقد عثرنا فيما بلغنا من إنتاج ابن زمرك على ما يزيد على ثلاثين قصيدة ذكر فيها محمد الخامس باسمه وينبغي أن نضيف إلى هذا العدد المعتبر كل العيديات والمولديات والموشحات التي لا يفوت شاعرنا أن يذكر فيها ملكه مخصصا له القسط الأوفر كما ينبغي ألا ننسى أن بعض القصائد والمقطوعات التي لا نعثر فيها على اسم الغني بالله وهي رغم هذا موجهة إليه ، إذ مضمونها لا يترك المجال للشك في ذلك .

وأما الشخصيات الأخرى التي مدحها ابن زمرك فعددها قليل نسبيا ومن الجلي أن نلاحظ أن كل هذه الشخصيات تنتمي إلى أسرة الملك النصرى : فهذا عم الغني بالله عبد عبد الله[119] أو ولده أو حفيده مثل أبي الحجاج بن يوسف[120] نصر وسعد[121] أو الأمراء المعزّ أبو الحسن أبو العباس أو عبد الله[122] .

---

(119) انظر الديوان : 45 - 96 - 99 - 101 .

(120) انظر الديوان : 18 - 69 .

(121) انظر الديوان : 4 - 25 - 75 .

(122) انظر الديوان المخمّس :103 .

وما عدا أعضاء الأسرة النصرية فقد تأتى لابن زمرك أن يمدح شخصيات من الأسرة المرينية أمثال السلطان أبي سالم وابنه أبي العباس[123] .

وينبغي أن نخص بالذكر من بين ممدوحيه الأستاذ والوزير ابن الخطيب الذى لولاه ما وجد ابن زمرك طريق الحمراء أبدا . فلقد عثرنا فيما بلغنا من شعر ابن زمرك على سبع مقطوعات شعرية[124] — ( ومجموع أبياتها 78 ) — إلى جانب الرسالتين المذكورتين سابقا .

فلا حاجة إلى القول إن كل ما نظمه ابن زمرك في شأن ابن الخطيب كان قبل وصول شاعرنا إلى الوزارة إذ تغيرت الأوضاع والعواطف فيما بعد كما سبق أن أشرنا إليه .

ومن البسيط أن نلاحظ أيضا أن الأسلوب فيما كتبه ابن زمرك كان الغاية المنشودة فاستحق كل العناية ليصبح أسلوبا بارعا منمقا كاشفا عن مقدرة صاحبه في البلاغة والبيان . وقد أصاب ابن زمرك في هذه المهمة والدليل هو اعتراف ابن الخطيب نفسه لمادحه بهذا الفضل النادر .

O O O O

(123) انظر الديوان : 32 - 43 - 73 .

(124) انظر الديوان : 7 - 13 - 28 - 37 - 59 - 92 - 102 .

# الباب الثاني

# الأغراض الشعرية

# الفصل الأول

## الأغـــراض المدحيـــة

وصل ابن زمرك إلى منصب الوزارة بإرادة الملك النصرى الغني بالله فكان اعترافه لهذا الأخير لا يعرف حدا فعبده ــ إن صح التعبير ــ عبادة العبد لربه وكان همه الوحيد المحافظة على وظيفته وما كان يتمتع به من جرائها وكان يعلم علم اليقين أن هذا لا يتم إلا إذا استمرت ثقة الملك به . فهذا ما أدى شاعرنا إلى استعمال أية وسيلة كانت ــ عملا بالمثل السائر : الغاية تبرر الوسائل ــ فأبدى حماسا شديدا لإرضاء سيده والذود بكل ما في وسعه على حقوقه حتى أنه لم يتردد أمام ما لا تسمح به كرامة الإنسان من أعمال شيطانية تلبي رغباته المترامية الأطراف . وقد رأينا الدور الشنيع الذى لعبه ابن زمرك في القضاء على ابن الخطيب المحسن الأول إليه فلم تخالجه رحمة ولا شفقة في مكافحة أعداء الملك لعلمه أن فشل هذا الأخير لا تكون عواقبه إلا سيئة فارتبط مصيره بمصير ذاك فلا مجال للغرابة إذن أن نكتشف رجلا يستمد قوته الوحيدة ممن عينه وزيرا قاصرا أو يكاد عبقريته الشعرية على ممدوح واحد مغاليا في الإطراء لإرضاء هذا الملك واستحقاق مزاياه ونحن نعلم أن الشعر آنذاك ولا سيما المدح كان يعتبر من أنجع الوسائل لبلوغ هذه الغاية .

فابن زمرك يتجلى لنا من خلال شعره شاعرا بلاطيا بالدرجة الأولى وفي الوقت نفسه شاعرا مقلدا وهذا ما يعني أننا سنجد ما تعودنا عليه من معان في هذا الميدان شرقا وغربا فلم يبق للشاعر شيء يذكر حتى يستلفت مستمعيه إلى ما هو جديد طريف . وقد انحصرت الطرافة في ميدان واحد وهو التعبير عن هذه المعاني المتوارثة المكررة إلى إثارة السآمة والملل فعبقرية الشاعر هي أن يحسن « الكيف » لا المضمون للقصيدة ولا يتوصل إلى ما يطرب السامع إلا إذا كان مسيطرا على أسرار البلاغة والبيان ماهرا في استخدام الصور والاستعارات حتى يوهم الممدوح أنه بصدد ما لم يسمع من قبل . ولا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن ابن زمرك قد حاز قصب السبق في هذا الميدان إذ بقي لدى

محمد الخامس الشاعر المفضل طيلة بقائه في الحمراء وهذا الدوام يدل على أن ابن زمرك كان فنانا نسيج وحده وشاعرا مفلقا « لم يجعل ـــ كما يلاحظه ـــ الأستاذ بلاشير حدّا لمهارته » . فلا يخلو شعره من كلمة مستحسنة أو عبارة عذبة موسيقية تزيد في رونق بيته الشعري . وإلى جانب التشبيهات والاستعارات المتراكمة فإن ابن زمرك قد ضاعف عدد الصور المتسمة بالغلو المفرط بدون أن يزعج سامعه حسبما يبدو[1] .

ويكتشف دارس الأغراض المدحية في شعر ابن زمرك معاني مكررة في أماكن متعددة . فما هو السبب في ذلك ياترى ؟ فالجواب يبدو سهلا جليا وينحصر في احتمالين .

الاحتمال الأول : هو ضيق الوقت فتوالي الأحداث والمناسبات لا يترك المجال لشاعرنا للتروى في نظمه فكان لا بد من أن يعرض قصيدة في وقت لم يختره بنفسه ففضل التكرار على الصمت .

الاحتمال الثاني : هو أن ابن زمرك قد استنفد كل الاغراض المدحية فلم يجد ما يقول إنه تقيد بما هو متفق عليه ولا يجرؤ بخياله على أن يوسع في الأغراض القديمة ويأتى بما هو غير مألوف خوفا من أن يؤاخذ على ذلك ففضل هنا أيضا التكرار على الإبداع .

إن الأغراض المدحية المعثور عليها في « ديوان » ابن زمرك تتفاوت من الناحية الكمية . فالبعض منها حظي بقسط وافر بينما البعض الآخر اكتفى فيه الشاعر بالإشارة إليه وبصفة عرضية وإلى جانب هذا وذاك لاحظنا عدم وجود بعض الأغراض ولعل ذلك راجع إلى أن الإنتاج الشعرى لم يبلغنا بأكمله . ولنتعرض الآن إلى دراسة هذه الأغراض بصفة مفصلة .

---

(1) ما عدا مرة حينما لاحظ الغني بالله بعد قراءة مولدية أنه من المفروض أن يخصص النبي بالمدح لا هو في هذا النوع من الشعر .

## أصل الغني بالله :

يبدأ ابن زمرك قبل كل شيء باستلفات الأنظار إلى الأصل الشريف الذى ينتمى إليه الملك . ولا يجد شاعرنا أية صعوبة في ذلك ويقرب بكل ارتياح بني نصر من الأنصار ويجعل من هؤلاء أجداد الملك النصرى وسواء صح ذلك أم لا فإن ابن زمرك متأكد من وقوع هذه القرابة موقع الرضى من الغني بالله وأى مسلم لا يجد مفخرة في كونه من خلف من ناصر النبي ﷺ إثر هجرته ؟ وكثيراً ما كرّر ابن زمرك ذلك وقد قال :

55 - ياابن الأُلَى أجمالهم وجمالهم فلق الصباح وواكف الأنواء

56 - أنصار دين الله حزب رسوله والسابـقين بحليـة العليـاء(1)

ويقول أيضا مخاطبا الغنيّ بالله :

1 : مولاى ياابن السابقين إلى العلا والرافـعين لواءهـا المنشورا

4 : أبناء أنصار النبيِّ وصحبـهِ في الذكرِ أصبح فخرهم مذكورا(30)

وفي الأسرة الكبيرة للأنصار كان بنو نصر يتمتعون بالصدارة إذ أصلهم عرب والعرب هم الذين يشكلون الطبقة الأرسطوقراطية فأجداد الغني بالله ملوك من آل خزرج وهو بالتالي ملك .

75 - مـن دوحـة نصريـة يمنيـة وشجت فروعا في العلا وأصولا(56)

ومن المعلوم أن تاريخ الأنصار مشهور فلا حاجة إلى التعريف به ورغم هذا فهو في متناول يد كل من أراد أن يطلع عليه من جديد ليكتشف مرة أخرى الدور السامي الذى لعبه الأنصار في نصر الدين الإسلامى ويدعو ابن زمرك إلى تصفح المصادر التي لا ريب فيها وأهمها بطبيعة الحال القرآن الكريم وكتب السيرة النبوية .

34 - من شاء يعرف فخرهم وكمالهم فليتلُ وحْيَ اللهِ فيهم والسيرْ

35 - أبناؤهم أبناءُ نصرٍ بعدهـم بسيوفهم دين الإلهِ قد انتصرْ(40)

وتأتي الإشارة إلى الأنصار في أبيات عديدة[2] والغاية من ذلك التأكيد على المزايا التي خصهم بها الله تعالى ، ويتساءل ابن زمرك فيما إذا كان من اللائق أن يمدحهم بشر بعد مدح الإله إياهم ويميل شاعرنا إلى نفي ذلك فيقول :

33 - ورد الكتابُ بفضلكم وكمالكم فكفى ثناء الواحدِ الخلاقِ(52)

ويحذر ابن زمرك الجارىء على إحصاء الفضائل النبيلة للأنصار وكل من أراد ذلك انتهى بالفشل ويستسلم ابن زمرك أمام هذه العملية مبديا عجزه فيقول :

35 - ومن الذى يحصى مناقبَ فضلكم عدّ الحصى والرملِ غيرُ مطاق(52)

ومهما كانت بلاغة الإنسان وفصاحته فيبقى من المسلّم به أن بلاغة القرآن وبيانه لا مثيل لهما :

96 - ماذا يجيد بليغ أو ينمّقُـهُ من الكلامِ ووحيُ اللهِ تاليها(93)

ويرى ابن زمرك من اللائق أن يذكر مرة أخرى بما قام به الأنصار إلى جانب الرسول صلى الله عليه وسلم .

56 - أنصار دين الله حزب رسوله والسابـقين بحليـةِ العليـاءِ(1)

كما يذكر بإقدامهم في الحروب وبسالتهم وكذلك طمأنينتهم ويقينهم في الانتصار على العدو مستعملا في ذلك طريقة معهودة في الشعر العربي وهي أن يصف الشاعر قوة وحماسة الجيوش المعادية مع وقوعها رغم ذلك في مأزق لا مفرّ لها منه إلى النجاة وهكذا يصور لنا الأنصار في خوضهم ميدان القتال فيقول :

59 - قومٌ إذا قادوا الجيوشَ إلى الوغى فالرّعبُ رائدهم إلى الأعداء

60 - والعزُّ مجلوبٌ بكـل كتيبـةٍ والنصرُ معقودٌ بكـل لـواءِ(1)

---

(2) انظر الديوان : رقم 63 البيت 88 ، ورقم 64 البيت الأول ، ورقم 93 البيت 95 .

وينبغى ألا يفوت أى إنسان أن الأنصار قوم اصطفاهم الله على غيرهم للقيام بهذه المهمة الشريفة ألا وهي تحقيق نصر النبي ﷺ على المشركين فيدعو ابن زمرك بكل هدوء هؤلاء إلى الاطلاع بأنفسهم على ذلك فيأمرهم قائلا :

88 - فاسأل ببدر عن مواقف بأسهمْ فَهُمُ تَلَافَوْا أمرهُ ببدار

89 - لهم العوالي عن معالي فخرها نقل الرواة عواليَ الأخبار(32)

ويستأنف ابن زمرك ليدقق لنا فكرته :

37 - سائل ببدر عنهم بدر الهدى فيهم على حزب الضلال قد انتصر

38 - واسأل مواقفهم ببأسهم وبجودهم واقْرِ المغازى في الصحيح وفي السير

39 - تجد الثناء ببأسهم وبجودهم في مصحف الوحي المنزل مستطر(41)

ويذكر ابن زمرك بصفة خاطفة ــ وذلك لشهرتها ــ أهم الفتوحات الإسلامية والانتصارات المحققة الباهرة الخالدة :

93 - ففي حنين وفي بدر وفي أُحد تلفى مفاخرهم مشهورة فيها

94 - ولتسأل السير المرفوع مسندها فعن مواقفهم تروى مغازيها

95 - مآثر خلّد الرحمن أثرتها ينصها من كتاب الله قاريها(93)

وبعد الإشارة إلى هذه الحوادث التاريخية جعل شاعرنا من فتح مكة مسك الختام إذ بالدخول إلى مكة تم تبليغ الرسالة المحمدية :

50 - سل عنهم أحداً وبدراً تُلْفِهِمْ أهل الغناء بها وأهل المغنمِ

51 - وبفتح مكة كم لهم في يومه بلواء خير الخلق من متقدّمِ(75)

ولبلوغ هذه الغاية فإنهم لم يترددوا في تضحية أرواحهم النبيلة .

35 - بذلوا لدى الهيجا كرائم أنفسٍ قد أرخصتْ في اللهِ وهي غوالي(66)

وابن زمرك متيقن حق اليقين أن الفضل الكامل يعود إلى الأنصار ولولاهم لما علا الحق وزهق الباطل وارتياحه إلى ذلك يؤدّى به إلى القسم لإقناع من خالجه شك ما :

52 - أقسمت بالحرم الأمين ومكة والركن والبيت العتيق وزمزم

53 - لولا مآثرهم وفضل علاهـم ما كان يعزى الفضل للمتقدم(75)

## مكانة الغني بالله بين الأنصار :

يرى ابن زمرك أن الانتماء إلى هذا الأصل الشريف فيه كفاية ليصبح الغني بالله وارث الخصال السامية التي حققت شهرته ومدت باعه ومن الطبيعي إذن أن يقدم لنا هذا الخلف السائر في سبيل أجداده وإليه إذن تعود المسؤولية على محافظة التركة النبيلة المتوارثة عبر الأجيال .

15 - أبناؤهم أبنـاءُ نصر بعدهـم بسيوفهم دينُ الإِلٰه قد انتصر(40)

ثم يتوجه إلى حاميه بصفة مباشرة ليناديه فيقول :

1 - ياوارثَ الأنصارِ وهي مزيّـة بفخارها أثنى الكتابُ المنزلُ(64)

وللغني بالله أن يفتخر بحق لكونه من سلالة الأنصار أولئك الذين ساروا أمام النبي واستقبلوه في بيوتهم أيام كان مضطهدا من طرف المشركين . وابن زمرك بمهارة يعكس الأمر ، ويرى أن للأنصار أن يفتخروا بحق لكون الغني بالله هو الخليفة الفريد خير كل من يتمناه الأنصار ليقوم مقامهم ويكون ممثلهم . ويريد شاعرنا تبليغ ذلك للأنصار :

13 - من مبلغُ الأنصارَ منه بشارةً غرّ البشائرِ بعدها تسترسلُ

14 - أحيا جهادهم وجدّد فخرهم بعد المئين فملكهـم يتأثّـلُ(63)

15 - فيه إلى الأجر الجزيل توصلوا وبهم إلى ربّ السما يتوسّلُ

ولا يقتصر ابن زمرك على الأنصار ، فلملوك اليمن أن يستبشروا بذلك أيضا فيستمر قائلا :

16 - من مبلغ الأذواء[3] من يمَن وهُمْ قد توّجوا وتملّكوا وتقبّلـوا

17 - أن الخلافة في بنيهم أطلعتْ قمراً به سعدُ الخليفةِ يكملُ(63)

---

(1) هي الأسماء المسبوقة بذى .

ثم يوجه النداء إلى قحطان فيضيف :

18 - من مبلغٌ قحطان آساد الشرى ما غابها إلاّ الوشيج الذّبّل

19 - إن الخليفة وهو شبلُ ليوثهم قد حاط منه الدين ليث مشبلُ(63)

ولا يكتفى ابن زمرك بهذا الأصل الشريف لسيّده إذ يجد له مزية أخرى تجعله قبل غيره أهلا للرئاسة بدون نقاش وهذه المزية هي أن الغني بالله قد اختاره الله تعالى ليكون خليفة في الأرض وذلك منذ القدم وهل هناك اختيار أحسن من اختيار الإله ؟ .

4 - إمام الهدى قد خصه بخلافة إلٰه في خلقه النهي والأمـر(27)

ويتجلى لنا من خلال ذلك رغبة شاعرنا في المقارنة بين حاميه والرسول ﷺ وتؤديه جرأته إلى عدم التمييز بين هذا وذاك جاعلا من الغني بالله نبيا ثانيا وهذا ما يفسر استعمال مفردات وتعابير في شأن الملك النصرى مفردات وتعابير ألفنا استعمالها في شأن النبي ﷺ :

25 - المنتقى من جوهر الشرف الذى في مدحه قد أنزلت آيُ السور

26 - والمجتبى من عنصر النور الذى في مطلع الهدى المقدس قد ظهر

ويقول أيضا مناديا ملكه :

18 - ياآيـة اللـه التـي أنوارهــا يهدى بها قصد الرشاد الضّلّل

27 - ياحجـة اللـه التـي برهــانها عزّ الحق بـه وذلّ المبطـل(62)

ولا بد للإنسان من محبة الغني بالله وذلك امتثالا لأمر الله ! :

1 - كتب الإلٰهُ على العبادِ محبّةً لك كان فرض كتابها موقوتًا(1)

ويؤكد ابن زمرك على كل ما خص الله به الملك النصرى وذلك رغبة منه في إقناع القارىء بذلك فيقول مرة :

73 - وأيّـد اللـه مولانـا بعصمتـه بأىّ باب إلى العلياء قد فتحا(11)

ومرة أخرى :

47 - وعليك من روح الإله تحيةٌ تهفو إليك مع الأصائل والبُكَرْ(41)

وفي الختام :

22 - بجنود الله دأبا يحترس إن غدا أو راح(112)

## خصال الغني بالله الذاتية :

فلا نجد في شعر ابن زمرك المادة الكافية التى تمكننا من رسم صورة للغني بالله ولا يسمح لنا شاعرنا حتى على أن نتخيل ذاته ولا كلمة عن قامته ولا عن لون بشرته ولا عن شعره ، ولا ولا !.. .. وهذا الجانب مهمل عادة في الشعر العربي وابن زمرك يذكر هذا الغرض حيث نجد التشابيه العادية الموروثة من جيل إلى جيل بدون تغيير ، وهكذا يتجلى لنا الغني بالله بوجه مشبه تارة بالفجر الطالع :

2 - سرينا بليل التيه يكذب فجره فلما تجلى بشره صدق الفجر(27)

وتارة بالصبح :

1 - وابن نصر له محيا كصبح إن تجلّى جلا دجى كل كرب(5)

40 - محياك أجلى في العيون من الضحى وذكرك أحلى في الشفاه من الشهد(24)

وتارة بالشمس الباهرة ويغالي ابن زمرك في هذا الغرض ويجعل من وجه الملك شمسا فيصبح هو عنصر النور الذى يزود الشمس الطبيعية بنورها :

48 - يامن إذا طلعت شموس سعده تُعشِي أشعتها قوى الأبصار

49 - قسما بوجهك في الضياء وإنه شمس تمد الشمس بالأنوار(32)

وأكثر من ذلك فابن زمرك يحمل على من اكتفى بتشبيه وجه الغني بالله بالشمس لأن التشبيه لا يتأتى إلا بين شيئين قابلين للتشبيه . فيقول إذن :

79 - من قاس بالشمس المنيرة وجهه ألفيته في حُكْمِهِ لا يعدلُ(63)

وإن صح التشبيه بين هذا وتلك فيما يخص سطاعتهما فالملك متفوق على

الشمس لما يتمتع به من مزايا أخرى فيقول :

69 - أطلعت وجها تريك الشمس غرته   تبارك الله ما شمس تساميها

70 - من أين للشمس نطقٌ كلُّهُ حِكَمٌ   يعيدها كُلَّ حين منك مبديها(93)

وتارة بالبدر في كماله وتتجلى هنا أيضا رغبة ابن زمرك في التفوق على مجرد التشبيه فيقول :

20 - طلعت ........................

21 - بوجه يرينا البدر عند طلوعه   وفي وجنة البدر المنير التكلّفُ(48)

ثم يأتي ابن زمرك إلى ذكر الجبين فيصفه بأوصاف الوجه السابقة الذكر إلا أنه هنا يطلق العنان لخياله فيتوصّل إلى صور تتسم بالغلو فيقول :

5 - فالشمس تأخذُ من جبينِكَ نورَها   والبشرُ منك بوجهها يتهلَّلُ(62)

ثم يجمع بين الشمس والصبح وكلاهما مدين لهذا الجبين فيقول :

93 - وفي الصبح من ذاك الجبين أشعَّةٌ   وفي الشمس من ذاك المحيا دلائلُ(61)

ويرى شاعرنا أخيرا أن في جمال وبهاء جبين الملك النصرى ما يستهوى الناظر ويثير عشقه له وكانت مدينة سبتة برهانا على ذلك إذ فتنت بما شاهدته من هذا الجبين إثر غزوة ترأسها الملك . وهذا ما أدّى شاعرنا إلى القول :

20 - لما رأت من صبح عزمك غرةً   محفوفــة بأشعَّــةِ الأنــوارِ

21 - ورأت جبينا دونه شمس الضحى   لبّـتك بالإجـلال والإكبـارِ(32)

وأما ذكر الفم فيبدو أمرا غير موات بالنسبة للرجل إلا أن هذا الغرض طالما عثرنا عليه في الشعر العربي مع كل ما ينجرّ عنه من مفردات غزلية . وهذا الفم بطبيعة الحال يكون دائما مبتسما كاشفا عن أسنان لامعة شفافة وهذا ما يسمح لابن زمرك أن يقدم لنا هذه الصورة :

28 - ياإماما ........................

29 - ثغرك الوضاح مهما أومضا   أخجــــــل البرقـــــــا(112)

والتأكيد على الابتسامة التي تعلو الشفة باستمرار تدل على بشاشة الملك وارتياحه وانشراح صدره وطمأنينته . وذلك مهما كانت تقلبات الظروف .

10 - وجه كما حسر الصباح نقابَهُ لضيائِهِ تعشو البدور الكُمَّلُ

11 - تلقاه في يوم السماحةِ والوغى والبِشْرُ في وجناتِهِ يتهلّــلُ(62)

ومرارا ما يذكر ابن زمرك الغرة ذلك البياض في جبهة الفرس الذى أصبح يرمز به إلى وجه الإنسان وجماله وبهائه وإلى نصاعة بياضه بالخصوص . وليؤكد على ذلك يلجأ ابن زمرك في وصف وجه ممدوحه إلى صور كلها مأخوذة من الطبيعة فيقول مثلا :

1 - لك غرة ودّ الصباح جمالها ومحاسن تهوى البــدور كمالها(96)

ثم يشير إلى ما يشاهد الناظر من هذه الغرة إذ تتغير في عينه لتبدو على صورة أخرى .

15 - مليك إذا استقبلت غرة وجهه تخيلت أن الشمس فيما تقابل(61)

وإن الجمال الفائق لهذا الوجه وإشعاعه يؤثر لا محالة في كل ما يوجد حوله والضحية الأولى هي البدور التي ترنو إليه فماذا تصاب ياترى ؟ فيجيب ابن زمرك عن ذلك فيقول :

10 - وجه كما حسر الصباح نقابه لضيائه تعشو البدور الكمَّلُ(62)

وأما النجوم فتضل في طريقها ولا يمكنها أن تهتدى إلا بذلك النور المنبعث من تلك الغرة فيقول :

12 - فمن نور مرآه الكواكب تهتدى ومن فيض جدواه الحيا تتوكَّفُ(48)

ثم يلتفت ابن زمرك إلى الإنسان ليشير إلى ما يتأثر به هو الآخر عند مشاهدة هذه الغرة :

86 - يامن إذا لمحت محاسن وجهه تعشو العيون ويبهر المتأمــل(63)

ومن الوجه ينتقل شاعرنا إلى ذكر هيأة الملك بدون أن يقف عند التفاصيل تاركا لنا المجال للخيال حسبما نشاء . هذه الصورة البارعة التي تميز الغني بالله

وينفرد بها وما نعثر عليه هو التأكيد على الأبهة والجمال إذ تفتتن بهما القلوب والعقول عادة . ويرى شاعرنا أن يحذرنا حتى لا نقع في هذا الخطر وهذه الطريقة في الوصف تذكرنا ــ لا محالة ــ بما جاء في شأن سيدنا يوسف عليه السلام الذى يضرب به المثل في الجمال حتى أن النساء اللواتي شاهدنه فقدن لبّهن . ورغبة ابن زمرك في المقارنة بين هذا وذاك تفسر لنا النصيحة التي يقدمها لمن شاهده آمرا اياه أن يقرأ آية الكرسي ويسأل الله أن يحفظه .

ويبدو أن ابن زمرك قد خبر هذه المحنة بنفسه فاضطرب عقله عند رؤية سيده متهما نفسه فيما يراه وهذا ما أداه إلى التساؤل قائلا :

38 - مولاى يانكتة الزمان .........

40 - لم يدر وصفي ولا عيناي أملّك أنت أم مـــــــلك(107)

ولكن هذا التساؤل ليس له أن يكون للتشابه التام بين المشبه والمشبه به فيجزم شاعرنا في حق ممدوحه :

1 - أيا ملكا لم يبد للعين حسنه سوى ملك قد حلّ من عالم القدس(54)

ويخصص ابن زمرك للغني بالله هذه المزية العظمى موجها له هذا النداء .

43 - ياآيـــة اللـــه في الكمـــال ومخجـــل البـــدر في التمام(107)

ويعترف ابن زمرك مرة أخرى بأن وصف ملكه أمر لا يقدر عليه أحد ، ويلاحظ أن ذهن الذكي يتبلّد[4] وكيف لا إذا ما لاحظنا مثل شاعرنا كل ما اجتمع في هذا الإنسان الفريد من نوعه .

40 - أعدّت محاسنك المحاسن كلّها فجمالها يزرى بكـلّ جمال(66)

## خِصاله

ويكتفي ابن زمرك هنا أيضا ــ ما عدا في حالات نادرة ــ بالإشارة إلى العموميات التي لا تسمح لنا بأن نتصور أخلاق الغني بالله بصفة دقيقة

---

(1) انظر الديوان رقم 103 بيت 170 .

مضبوطة . فالألفاظ والعبارات التي يكثر استعمالها عند شاعرنا تشمل خصالا مستحسنة باتفاق الجميع . فيستعمل تارة « المناقب » وتارة « الشمائل » ومرة أخرى السجايا أو المحامد في صور يكون المشبه به مأخوذا من الطبيعة .

فإن كانت الخصال الذاتية للغني بالله كلّها جمال وبهاء كما أشرنا إليه سابقا ، فالخصال الأخلاقية ليست دونها بهاء وإضافة هذه إلى تلك تشكل مجموعة منسجمة :

14 - خلق ابن نصر في الجمال كخلقه ما بعدها من غاية تستكملُ
15 - نور على نور بأبهى منظر في حسنه لمؤمّل ما يأمــلُ(62)

ويؤكد ابن زمرك على ما يتمتع به سيده من كمال وهي صفة من خصائص الله ورسوله ألا يجوز هذا في حق الغني بالله ألم يختر ليكون خليفة الله في الأرض فيقين شاعرنا بذلك يجعله يحمد الله تعالى على صنعه فيقول :

1 - لك في الخلافة مظهر لا يفرغ من دون مرقبة النجوم الطُّلَّعُ
2 - يــاأيها الملك الــذى أيامــه غرر بوجه الدهر لا تنفعُ
3 - سبحان من حلاك بالخلق الرضا وكساك منه حلة لا تخلعُ(46)

فعلى الغني بالله أن يفتخر بما خصه الله تعالى إذ هو خليفة ليس ككل من تولّى الخلافة ، ويلاحظ شاعرنا قائلا :

112- لقد كَمُلَتْ فيك المحاسن كلها وما كل من يعطى الخلافة كاملُ(46)

ويقف ابن زمرك في تحليل هذا الغرض عند صفتين أطال الكلام حولهما في ذكر الخصال الذاتية للملك النصرى ألا وهما البهاء واللمعان . وليتأتى له ذلك يستعمل من جديد التشابيه السابقة المأخوذة من الطبيعة ولا سيما التشبيه بالبدر في كماله الذى هو رمز السمو والهيمنة . فالملك النصرى مثل البدر يشرف على الكون في عزة وأبهة ، ولا يرتاح ابن زمرك إلى هذا التشبيه إذ يحاول أن يتعدّاه لما يراه فيه من خلل ويعدّد لنا الفوارق الجلية الموجودة بين المشبه والمشبه به فيقول :

82 - من قاس بالبدر المنير كماله فالبدر ينقص والخليفة يكملُ
83 - من أين للبدر المنير شمائل تسرى بريّاها الصبا والشمألُ
84 - من أين للبدر المنير مناقب بجهادها تنضى المطيّ الذلّـلُ(63)

والمشبه به الثاني الذى يميل إليه شاعرنا هو النجوم وما ترمز إليه من بعد في السماء يجعلها في غير متناول اليد فهي بالتالي في رتبة مأمونة ولكن ما يستلفت نظر ابن زمرك هو لمعانها وشدة التشابه بين الملك النصرى وتلك النجوم الوقادة تجعله يتردد : أهو يشاهد هذه أم ذاك ؟

37 - ومناقب المولى الإمام محمـد قد أشرقت أم هن زهر درارى(32)

ولكن سرعان ما تصبح حيرته يقينا فتأتي له هذه الصورة :

32 - لاحت مناقبه كواكب أسعد فرأت ملامح نوره عين العمى(75)

وإذا أرادت أن تنافس هذه المناقب الملكية تعرضت لما لا يشك فيه ابن زمرك إذ يقول :

27 - معال إذا ما النجمُ صوّب طالباً مبالغها في العزّ خلّف وانيا(98)

أليس الغني بالله وارث الأنصار كما يطيب لشاعرنا التذكير به . ويجمع ابن زمرك هذه العناصر المشبه بها في بيتين فيقول :

28 - رقّت شجايا ، وراقت مجتلى كالشمس في بعد وفي إشراقِ
29 - كالزهر في لألائه والبدر في عليائه والزهـر في الإبـراقِ(52)

ويشير بعد ذلك ابن زمرك إلى بعض الخصال السامية يتمتع بها ممدوحه والأولى هي الإخلاص الذى يعترف له به الناس أجمعون ويؤكد شاعرنا على أن هذا الاعتراف لم يبح به المعجبون فقط بالغني بالله بل المعادون له أيضا وهذا ما يزيد في قيمته .

55 - سريرة لك في الإخلاص قد عرفَتْ حسنى عواقبها حتى أعـاديها(93)

ومن جهة أخرى فهذا الممدوح المخلص يتمتع إيضا بالطهارة عقلا وضميرا

فالتشبيه بالماء أو بالحجر النفيس يبدو طبيعيا إذ تأتى لابن زمرك أن يقول :

9 - وياصدفا قد حاز في جوهر العلا لكل نفيس بالنفاسة مفـرد(18)

ويضيف قائلا وإن كان ذلك في حق ابن خلدون :

71 - وما الماء في جوف السحاب مروّقا بأطهر ذاتا منك في كنف المهد(24)

وإلى جانب الإخلاص والطهارة يقف ابن زمرك عند « الحياء » وهو من الخصال الإسلامية التي تدل على حسن المنشأ واللباقة والسلوك المحمود والرزانة في الأقوال والأفعال ، ألم يوص بذلك النبي ﷺ حينما يقول : « الحياء من الإيمان » ؟ ويتأتى لابن زمرك أن يجد صورة رائعة ليعبّر عن هذه الصفة فيقول :

38 - يقابلني منك الصباح بوجنةٍ حكى شفقا فيه الحياءُ الذى تُبدِى(24)

ويهتم ابن زمرك اهتماما معتبرا بالرائحة الطيبة التي تفوح من ممدوحه خلقا وأخلاقا ، ولقد عثرنا على استعارات عديدة يحاول فيها ابن زمرك نوعا من التجديد شكليا مبرهنا مرة أخرى على براعته البلاغية وهكذا يتأتى له أن يذكر طورا الأزهار المتفتحة والبساتين الغناء والرياح الخفيفة اللطيفة فيقول :

13 - وشمائل كالروض باكرة الحيا وسرت بريّاه الصبا والشمأل(62)

وبوسيلة أسلوبية تعودناها نشاهد ابن زمرك يشم الروائح الطيبة التي تحيط به متسائلا من أين هي آتية ويتأتى له أن يقول في شأن ابن خلدون واصلا بين الندّ والندّ وموفقا في ذلك إلى صورة بليغة مستعذبة :

70 - ودونك من روض المحامد نفحة تفوت إذا اصطفّ الندىّ عن الندّ

71 - ثناء يقول المسك إن ضاع عرفه أيا لك من ندّ أما لك من ندّ(24)

وينتهي مشيرا مرة أخرى إلى المسك :

85 - يامن إذا نفحت نواسم حمده فالمسك يعبق طيبه والمنـدل(63)

وقد سبق أن لاحظنا أن ابن زمرك يميل إلى الغلو فيأتي بصور وتشابيه يجعل فيها من المشبه المشبه به والعكس فيعيد علينا الأزهار والرياض والنسام المعطرة التى لا تتصف بما اتصفت به من طيب ورونق إلا إذا احتكت بالملك النصري

فيصبح هذا الأخير المنبع الذي تستقي منه الطبيعة جمالها وروائحها :

23 - والروض في نعمته يغتـذى بطيب ما قد حزته من خلال(118)

ويبدو أن ابن زمرك لا يعتريه ملل في تكرار صور تقدمت الإشارة إليها وهي حيث نراه يؤكد على عجز المرء لتعداد شمائل ممدوحه[5] .

ويعتذر أمام الغني بالله على عدم توفيقه ليصل بهذه المهمة إلى غايتها لأنها أمر يتعذر تحقيقه :

73 - يـاأيها الملك الهمام المجتبـى فاتت علاك مدارك العقلاءِ .

74 - من لي بأن أحصي مناقبك التي ضاقت بهن مذاهبُ الفصحاءِ(1)

ويحذر الشاعر كعادته ـــ كل من أدته جرأته إلى هذه المحاولة فيقول :

41 - ماذا أقول وكل وصف معجز والقول فيك مع الإطالة مختصرْ

42 - تلك المناقب كالثواقب في العلا من رامها بالحصر أدركه الحصرْ(41)

وفي الخلاصة يجمع ابن زمرك خصال الغني بالله التي تقدم ذكرها فيصح له أن يقول :

14 - خير أمـــلاك الزمـــان مـــن بنـــي سعـــد ونصر(119)

## مواهبه وثقافته :

إن أول خصلة تتبادر إلى الذهن عند ذكر الغني بالله هي الذكاء الثاقب الذى جعل من الملك النصرى أول ملك في عصره . ويردّد شاعرنا هذه الصفة إلى ما لا نهاية له مفكرا ـــ لا محالة ـــ في إياس بن معاوية[6] الذى كان يضرب به المثل في هذا المجال[7] ، وكم من مرة برهن لنا الغني بالله على هذا الذكاء الذى يتمتع به وهذا ما أدّى شاعرنا إلى أن يقول :

---

(5) انظر ديوان رقم 66 بيت 42 الشطر الأول .

(6) إياس بن معاوية توفي سنة 739 وكان قاضيا بالبصرة . وشهرته كانت في العدل والإنصاف .

(7) انظر الديوان ق . رقم 78 بيت 75 .

3 - كم من لطائف للهدى أوضحتها خفيت مداركها على الأفكار(36)

فالإلهام والمهارة والتوفيق في القول وفي الفعل تتآزر في حل المشاكل العويصة الغامضة تلك هي الخصائص التي توجد مطبوعة عند الرجال العظام ، وما صح في ابن الخطيب يصح بصفة أخرى وأولى في الغني بالله فيتجلى لنا هكذا الدور الأساسي الذى يلعبه في كل موقف .

23 - إذا احتفل الإيوان يوم مشورة وتضطرب الآراء من كل ذى حجر

24 - صدعت بفصل القول غير منازع وأطلعت آراء قبس من الفجر(37)

ويتمتع الملك النصرى بفضيلة نادرة عند الملوك ألا وهي انتماؤه إلى العلماء إذ يعدّ من أكبر علماء عصره ففصاحة اللسان ـــ التي تعتبر عند العرب من المواهب المرموقة ـــ تعادل فصاحة سحبان وائل[8] الشهير ، ويحاول أن يجدد ابن زمرك هذا التشبيه .فيؤديه خياله إلى القول :

80 - من أين للشمس المنيرة منطق ببيانه درّ الكلام يفصّل(63)

ومن جهة أخرى يدعى ابن زمرك أن ممدوحه كان شاعرا مفلقا أيضا إلا أنه يعسر علينا أن نطلع على هذا الشعر حتى نقيمه وذلك لعدم العثور عليه بل لعدم وجوده إذ لم تحفظ لنا كتب التاريخ والتراجم نماذج منه ولو معدودة . والصحيح هو أن الغني بالله كغيره من الأمراء ـــ ما عدا البعض القليل[9] ـــ كان ينظم في أوقات فراغه أبياتا من الشعر هي في غالب الأحيان خالية من أية قيمة أدبية ، إلا أن ابن زمرك في تملّقه المفرط كان عالما بما سيحدثه في نفس ممدوحه فجعل منه لا شاعرا فقط بل أميرا مطلعا على جميع أسرار هذا الفن . فيقول بدون تردد :

3 - علّمت فرسان الكلام نظامها كتعلّم التلميذ من أستاذه(82)

---

(8) خطيب يضرب به المثل في الفصاحة توفي سنة 674 ، انظر الديوان ق . 78 بيت 75 .

(9) لنذكر على سبيل المثل : المعتمد بن عباد بإشبيلية ، وابن المعتز ببغداد .

وتأتى للغني بالله في مناسبة أن يبعث لابن زمرك قطعة شعرية تضمنت خمسة أبيات ، فرأى شاعرنا فيما خصه به الملك النصرى شرفا عظيما وعلامة رضى عنه وهذا ما ملأه غبطة وسرورا وألهمه الأبيات الآتية عبّر فيها عن اعترافه بالجميل مبرزا الخصائص الشعرية الرائعة التي اكتست بها هذه القطعة فأكثر من الصور المغالية قائلا :

| | | |
|---|---|---|
| 4 - | أما المدام ...................... | |
| 5 - | أغنيتني عنها بخمر بلاغـةٍ | فالطيب من نفحاتها يتضوّعُ |
| 6 - | بوّأتني من عز نظمك روضةً | طاب الجنى منها ولذّ المشرعُ |
| 7 - | وأريتني جنح الدجنة غـرةً | فالنور مـن قسماتها يتطلّـعُ |
| 8 - | يعنو لها البدر المنير وقد علا | والبدر تاج بالنجوم مرصَّعُ |
| 9 - | فاتحتنـي منها بخمس ولائـدٍ | لتُعيذَها من كل عين تلقعُ |
| 10 - | قبّلتُهـا ألفـاً وبتُّ لَربِّهـا | أدعو له حتى الصباح وأضرعُ(46) |

## الكـــرم :

إن ابن زمرك كسائر الشعراء العرب ــ أعطى أهمية أساسية لتحليل هذا الغرض الذى ورد مفصلا في قصائد عديدة ــ وهذا ما لا يتعجب منه لعلمنا أن العلاقة الأولى التي تربط المادح بالممدوح تنبني على السخاء ، إذ الشاعر عادة ليست له موارد تسمح له بأن يعيش حرا ما عدا شعره وما يناله من عطايا يوفرها له ممدوحه إذا وجد في الشعر الموجه له ما يرضيه ، فالشاعر إذاً مضطر إلى وصف ممدوحه بالكرم سواء أصح ذلك أم لم يصح ، فيضطر هذا الأخير إلى أن يبرهن على ذلك بتوفير العطايا مع علمه أنه إذا لم يرض مادحه سيتعرض إلى هجاء لاذع .

وفضلا عن هذا فنوعية العلاقات التي كانت بين ابن زمرك وممدوحه دفعت هذا الأخير إلى تكرار هذه الصفة بدون ملل تفننا في صياغتها ومحاولا تجديد ما ألفنا قراءته عند الشعراء السابقين . وينبغي أن نلاحظ أنه قد وفق أحيانا

في العثور على صور واستعارات تتسم بنوع من الطرافة ، كما يلاحظ أيضا أنه اكتفى بترديد أخرى في شكلها المعتاد مما يثير السآمة والقلق عند قارئها .

فمن المعلوم أن الشعراء أجمعين يشبهون الكرم بالماء الذى هو علامة الرخاء ورغد العيش ماء يسيح من اليد اليمنى ومن الأصابيع ونادرا من اليدين معا ، فسنعثر على تشابيه تتضمن السحب السوداء المفعمة بالمياه أو ندى الصباح المحيي أو البحر الخضم بأمواجه الغزيرة المتوالية ، فحول هذه المحاور الثلاثة تترتب تحاليل ابن زمرك تاركا لخياله كل الحرية في تصويرها .

فمن الملاحظة البسيطة حيث نشاهد الغني بالله سحابة يتدفق منها الماء يأتي ابن زمرك إلى تعابير يغلب فيها التصنع فيقول :

6 - فاضت علينا من نداك غمائم وتفجرت في راحتيْكَ بُحُورَا(30)

فما على الإنسان ـــ ليؤمن بذلك ويقتنع ـــ إلا أن يسأل السحب بنفسها فيسمع جوابها حين ترد عليه فتقول :

42 - سل بالغمائم صوبها عن كفه تنبيك عن بحر بها زخـــار(32)

ويبدو لنا ابن زمرك مرّة أخرى حائرا عندما يشاهد الحيا فيتساءل :

24 - فوالله ما ندرى وللعلم عندنا براهين على وجه الحقائق تكشفُ
25 - أوجهك أم شمسُ النهارِ تطلّعت وكفّك أم سحب الحيا تتوكّفُ(48)

ويرسم لنا مشهدا حيث أجريت سفائن الغني بالله أثار إعجاب الناس الذين بقوا حائرين أمام ما هو خارق للعادة فطمنهم شاعرنا وشرح لهم هذا اللغز إذ قال :

3 - قالوا السفائن فوق البر ذا عجب من غير بحر ولا موج ولا غررِ
4 - فقلت آثار مولانا التي سفرت لنا العناية عن آياتها الكبرِ
5 - تجرى بريح سعود في بحار ندى تغني بنانك عن بحر وعن مطرِ(35)

وتعودنا على ابن زمرك مغاليا في تشابيهه فها هو مرة أخرى يضاعف عدد الصور والاستعارات حيث يرينا ممدوحه في مكانة تفوق بكثير كل ما أشرنا إليه

آنفا من المشبهات بها إذ لا يمكن منطقيا أن نشبه إلا بين شيئين قابلين للتشبيه ، فالأمر ليس كذلك بين الغني بالله والمشبه به ، ومن لم يتبصر بذلك فهو لا محالة في خطأ ويتهمه ابن زمرك قائلا :

76 - من قاس كفك بالغمام فإنه جهل القياس ومثلها لا يجهل(63)

وهذا ما لا يتأتى فمن السهل إذن أن نلاحظ ما لاحظه شاعرنا

34 - لولا نداك لها لما نفع الندى ولجفّ من ورد الصنائع منهل(62)

وإن ابن زمرك لمتيقن أن لا شيء يعادل الغني بالله فهو الوحيد الذى يستحق أن يوصف بالكرم بأتم معنى الكلمة إذ يتجلى لنا بعد خبرة ما يلي :

23 - فالجود إلا من يديك مقتّر والغيث إلا من نداك مبّخل(62)

والجدير بالذكر هو أن الغني بالله يتكرم بصفة غير منقطعة سواء كان ذلك بمناسبات أم لا وهذا راجع إلى كون الكرم أصبح خلة فطرية يتميز بها الملك النصرى ــ ولو أراد ــ على الافتراض ــ أن يتخلى عن كرمه لما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ومن المعلوم أن هذا ما هو إلا مجردّ كلام كما يجزم به ابن زمرك بنوع من الافتخار :

12 - كفّ أبت ألّا تكف عن الندى أبدا فإن ضنّ الحيا تسترسل(62)

ويضيف مؤكدا على الظروف التي تقع فيها عطاياه ومزاياه وهي ظروف يظهر لنا فيها الغني بالله في صورة هي على طرف نقيض بالنسبة لصورة السحب .

77 - تسخو الغمام ووجهها متجهم والوجه منه مع الندى يتهلّل(63)

وإن شبه ابن زمرك ممدوحه بالبحر فهناك فرق ينبغي ألا يخفى عنا فيقول مدققا :

37 - هو البحر بالإحسان يزخر موجه ولكنه عذب لمن جاء عافيا(99)

ويطلق شاعرنا الزمام لخياله فتتراكم تحت قلمه صور عديدة تتسم كلها

بالإفراط والغلو إلى حد غير مقبول فتأمل ما يقول :

85 - تفجّر من كفيه عشرة أبحر　　　يغص بهن البحر وهي أنامل(61)

وليس كرم الغني بالله مقصوراً على أناس معدودين فبابه مفتوح على مصراعيه ليلا ونهارا شتاء وصيفا فكل من أراد أن يغترف من مناهله المتدفقة استطاع ذلك بكل بساطة إذ لا يعرف هذا الملك حرف : « لا » ولا سيما في الأوقات العسيرة . أليس هو كما يدعيه شاعرنا حينما يناديه قائلا :

42 - يامـــــورد الظمـــــآن　　　ورأس مـــــال المعسر(106)

والدليل على ذلك أنه لا يوجد أحد في وسعه أن يقول بأنه خاب في سعيه لدى هذا الملك ــ ألم يلب دعوة كل داع ؟

16 - إذا استمطرت في المحل سحب بنانه　　　فهن لمستجد هوام هوامل

17 - وإن سال ماء البشر فوق جبينه　　　فليس بمدفوع عن الورد سائل(61)

ويعبر ابن زمرك عن إعجابه بممدوحه نظرا لما حققه في فائدة الطبقات الأكثر حرمانا التي رأت وضعيتها قد تحسنت بصفة ملموسة أليس الأمر كذلك بالنسبة للرعية النصرية جمعاء أليست مدينة لهذا الملك الذى شيد سعادتها ووفر لها الظروف اللازمة لتعيش عيشة مرضية . فللغني بالله يعود الفضل في القيام بمهمتين أساسيتين بالنسبة لكل دولة لها اسم يذكر :

96 - علّمت حتى لم تدع من جاهل　　　أعطيت حتى لم تدع من يسأل(63)

وهذا الجود لم يقتصر على غرناطة بل تجاوز الحدود وبلغ الأبعاد فعلى كل من بلغه الخبر بأن يقدم بدوره على قصر الملك ليرضي رغباته ويلاحظ ابن زمرك أنه قد أتى الكثير رغم المسافات وأخطار الأسفار .

321- أجازوا إليك البحر والبحر يزخر　　　لبحر سماح مدّه ليس يجزرُ

322- فرواهُمُ من عذب جودك كوثر　　　وواليت من نعماك ما ليس يُحْصَرُ(103)

ويبدو من خلال هذا أن ابن زمرك يريد الإشارة إلى رمز آخر يدل على الكرم ــ ألا وهو كثرة عدد الزوار من أبناء السبيل وغيرهم الذين يجدون دائما

الفراش والرغيف في بيت معد لهم ـــ ويستعمل شاعرنا لإبراز هذه الخاصية كناية أخذها عمن تقدمه من الشعراء فيقول :

38 - ولك القباب الحمر ترفع للندى فترى العمــائم تحتها كالأنجم
39 - يذكى الكباء بها كأن دخانه قطع السحاب بجوها المتغيّـم(75)

وبما أن هذا الكرم قد شمل البسيطة كلها فيصعب على ابن زمرك أن يتصور وجود بائس أو فقير فيكون تساؤله مجرد كلام لأن الجواب يأتي طبيعيا على اللسان :

1 - أتعطش أولادى وأنت غمامةٌ تعمّ جميع الخلق بالنفع والسقيا
2 - وتظلم أوقاتي ووجهك نيّـرٌ تفيض به الأنوار للدين والدنيا(101)

إن الغلو في التشبيه جعل شاعرنا لا يتردد في أن يضع ممدوحه في مكان الإله تعالى الساهر على البشرية ، وما سمح لنا بهذا التأويل هي تلك القدرة الإلهية التي وصف بها الغني بالله قدرة جعلته يأتي بالمعجزات مثل التي يشير إليها في هذا البيت :

8 - وما الجود إلا ميّت غير أنه إذا نفخت يمناك في روحه يحيا(101)

تلك يد مباركة يرى ابن زمرك أنها موضوع عبادة فيسأل من ممدوحه بتواضع وحرارة أن يسمح له بما هو راغب فيه قائلا :

20 - ودعني أرد يمناك فهي غمامةٌ تبخّل صوب العارض المتبجّس(42)

ويشير ابن زمرك إلى أن هذه النعم لا تقتصر على البشر فقط فهي تشمل أيضا الطبيعة بما فيها طبيعة لها أن تسعد باغتراف ما يرويها من هذا العنصر الذى لا ينفد على مرّ الأيام ، فليس للأرض أن تتألم من العطش ولا أن تعاني من القحط وهي تعلم أن الغني بالله يقوم مقام السحاب فما عليها إلا أن تستنجده لتتلقى منه أمطارا نافعة كافية . فلتجف السماء ولتبخل بمياهها فإن ذلك لا يصيب الحدائق والنباتات والأزهار بأى ضرر :

22 - قبّل بثغرِ الزهرِ كفّ خليفةٍ يغنيك صوب الجود منه عن المطر(41)

وإن هذه المياه المتدفقة من يدى الغني بالله ثمينة وما يزيد في ثمنها هي أنها غير منقطعة حتى في أيام الجفاف ضامنة استمرار الخيرات على مستوى العالم . فيجزم شاعرنا بكل ارتياح قائلا :

2 - بكفّك غيث للبلاد وأهلهـا يُروِّضُ محلَ الأرضِ والعامُ ماَحِلُ(65)

ويؤكد من جهة أخرى :

36 - وروّض المحل منها كل منجبسٍ إذا اشتكت بغليل الجدب يرويها

37 - يحكي الخليفة كفا كلما وكفتْ بالجود فوق موات الأرض يحييها(93)

## القــوة :

والغرض الثاني الذى أحاطه ابن زمرك بكل عنايته مخصصا له أبياتا عديدة هو القوة . وهذه الميزة لها أهمية كبرى ولا سيما إذا تذكرنا أن الدولة النصرية تعيش في فترة من الزمان يسود فيها الاضطراب والحروب المتواصلة فكان من واجب الشاعر أن يبرز خصال الغني بالله في الكفاح لينتصر على أعداء يشكلون فعلا أخطارا في الداخل والخارج على مملكة ممدوحه .

وإذا ألقينا نظرة على كل ما ورد في إبراز هذا الغرض يبدو لنا أننا لسنا في حاجة إلى القول بأن ابن زمرك ــ كما كان الأمر بالنسبة للكرم ــ لا يفاجئنا بشيء لم تسبق لنا قراءته . فكرر علينا مرة أخرى نفس الصور التي ألفنا وجودها في وصف أبيات كاملة من قصيدة إلى أخرى إذ كان لابن زمرك أن ينظم قصائده بسرعة تطابق سرعة الأحداث المتوالية في عصره .

ولوضوح تقديمنا لهذا الغرض رأينا أن نبدأ بالكلام عن الغني بالله وخصاله الحربية ثم نستأنف بذكر الأسلحة وأنواعها لننتهي بالإشارة إلى القوات العسكرية البرية والبحرية .

يرى ابن زمرك من اللائق أن يقدم لنا ممدوحه دائما وسط معركة مترئسا جيوشه ولاعبا دورا أساسيا في تسيير القتال . وهذا لا يتأتى إلا إذا كان الغني

بالله متميزا بشجاعة لا مثيل لها . وقد كان بالفعل حسبما يريده شاعرنا بل حسبما يتصوره وأول تشبيه خطر ببال ابن زمرك هو أن يشبه ممدوحه بربيعة بن المكدّم[10] الذى يضرب به المثل في إقدامه . والتشبيه الثاني كان بالأسد في جرأته .

51 - غوث العباد وليث مشتجر الفنا    يوم الطعان وفارج الغمـاء(1)

ومرارا ما نعثر على التشبيه بالدهر وسطوته في مواجهة الأخطار بغير تردد[11] ، فإيمانه بقوته وثقته بنفسه يدفعانه إلى التمسك بما يقرّره إذ كل قراراته سديدة ، والدليل على ذلك هو أن الغني بالله لم يعرف أبدا الفشل ولا الخيبة ، فالعزيمة التي يبديها دائما قد أدت شاعرنا إلى القول :

44 - وعزمك أمضى من حسامك في الوغى    وإن كان مصقول الغرارين ماضيا(99)

ثم يدقق فكرته في البيت التالي :

100- فقبل مضاء السيف تمضى عزائم    وبعد بناء الرأي تبنى المعاقل(61)

ويدعو ابن زمرك كل من جهل هذه المزية أن يستخبر عنها فيدله على ماذا ينبغي أن يفعله ليقتنع :

43 - سل بالبروق صفاحها عن عزمه    تخبرك عن أمضى شبا وغرار(32)

ويلاحظ شاعرنا أن عزم ممدوحه يعد من أهم مكونات ترسانة الجيوش الغرناطية التي تضمن لها الانتصار على عدوها . بحيث إن فقدان هذا العزم يؤدى إلى هذه الملاحظة الهادئة :

99 - إذا العزم لم يصقل حسام كميّه    فما نافع ما قد جلته الصياقل(61)

أمن الضرورى أن ننبّه إلى أن اتخاذ قرار من طرف الغني بالله لم يقع عفويا وليس هو وليد ظروف ما بل يأتي دائما بعد تأمل وترو دالا على ذكاء ممدوحه

(10) انظر الديوان ق : رقم 75 بيت 35 .

(11) انظر الديوان :ق . رقم 103 بيت 58 .

وتبصره بعواقب الأمور وعلى كل ما يحفظه من الخطأ :

49 - فرأى كما انشق الصباح وعزمة كما صقل القين الحسام اليمانيا

52 - لك العزم تستجلى الخطوب بهديه ويلقى إذا تنبو الصوارم ماضيا(98)

ويود ابن زمرك أن يصف ممدوحه بحاسة سادسة تسمح له بالاطلاع على الغيب ، ولكن لا يصرح بذلك لعلمه أن الغيب لا يعلمه إلا الله . إلا أنه يقول بحذر حتى لا تصيبه لومة لا ئم :

101- وما يستوى ـــ والعلم لله وحده عليم بأعقاب الأمور وجاهل(61)

ومن المعلوم أن مجرد الكلام لا يغني فعلى كل إنسان أن يعتبر النتائج التي توصّل إليها الغني بالله فيتحتم عليه ـــ عندما يلاحظ إيجابيتها ـــ أن يعترف أن ما قاله الشاعر هو الصواب بعينه :

122- وأدركت في الأعداء ما أنت طالب وبلّغت في الأبناء ما أنت آمل(61)

وكم من مرة عثرنا على كلمة « سعود » الملك النصرى التي ليست فعاليتها في حاجة إلى التحليل إذ بها يكون النصر دائما مضمونا :

29 - مولاى سعدك كالمهنّد في الوغى لم يُبقِ من رسم الضلال و لم يَذَرْ(41)

وسرعان ما يبدو هذا التشبيه ضعيفا فيرى ابن زمرك أن يأتي بصورة أخرى تبين بإنصاف قيمة سعود ممدوحه ألم تغن « عن قراع الكتائب[12] » فليس للغني بالله إذن أن يخشى أى شيء إذ قوته الجبارة كامنة في سعوده فيدعوه مادحه إلى أن يطمئن قائلا :

39 - وإذا غزوت فإن سَعدَك ضامنٌ ألا تخيب وأن قصدَكَ يكملُ

40 - فمن السعودِ أمام جيشِكَ موكبٌ ومن الملائكِ دون جندكَ جحفلُ(62)

ويضيف من جهة أخرى مشيرا إلى أى السلاح ينبغي أن يميل لتحقيق الغاية المنشودة :

---

(12) انظر ديوان ق . 103بيت 71 .

50 - سلّ السعود وخلّ البيض مغمدة واضرب بها فرية التثليث تفريها(93)

ويؤكد ابن زمرك على شدة الخوف التي يكاد العدو أن يفقد منها لبّه عدو متيقن أنه لا نجاة له إلا في الإدبار السريع ويكفي للغني بالله أن يظهر في مقدم جيوشه ليثير هذا الإرهاب في قلوب أعدائه فليس له إذن أن يستعمل الأسلحة ليسير متبخترا في طريق النصر وهذا ما يؤدى شاعرنا إلى أن يقول :

13 تخاف عداة الدين منهم وتتقى كما تتقى الأسد الظباء الجوافل(61)

ويخص ابن زمرك بيتين ليصف لنا العدو في تهافته وقد سادت في صفوفه الفوضى الشاملة :

98 - أخذت قلوب الكافرين مهابة فعقولهم من خوفها لا تعقل
99 - حسبوا البروق صوارما مسلولة أرواحهم من بأسها تتسلل(63)

فمن المحتمل أن نتساءل لماذا الجيوش والفرسان والأسلحة ؟ وما هي فائدتها ياترى ؟ فقد فكّر ابن زمرك في ذلك واستخلص خلاصة منطقية وهي أن الغني ليس في حاجة إلى ذلك كله إذ وهبه الله بهذه الموهبة الفريدة فتفوقه ثابت ــ مهما كان الأمر ــ على عدوه الذى لا يعرف أبدا ما معنى الاطمئنان والثقة بالنفس . فيقول شاعرنا قاصدا ممدوحه :

34 - نصرت بالرعب في الحروب والرعب أجدى من السلاح(111)

فليتمتع الغني بالله إذن بالسلم والأمن الطائلين ولتسعد رعيته بذلك إذ ليس لأى عدو ــ مهما كانت قوة سلاحه ــ أن ينغص عليها عيشها :

35 - نصرت بالرعب في القلوب والبـيض لم تبرح الغمــود(107)

ولقد رأينا أن الملك النصرى من أنبل ما خلفه الأنصار في الأرض لإحياء سنتهم وحمل رايتهم فكان سعيه مثل سعي رسول الله ﷺ في نشر الإسلام فيطيب لابن زمرك أن يقارن بين هذا وذاك جاعلا كلا منهما في مرتبة خصهما الله بها ، والدليل على ذلك هو أن الله عامل الغني بالله بمثل ما عامل به نبيه معززا جيوشه عند الضرورة ليتحقق له النصر وليعلم أعداء الملك النصرى أن

لا غالب إلا الله . فتأتى لشاعرنا أن يقول في حق ممدوحه ما هو جدير أن يقال في الرسول ﷺ :

95 - إذا أنت لم تزج الجنود إلى العلا فإن جنود الله عنك تقاتل
96 - وإن لم تقومها سهاما مريشة فإن سهام الله عنك تناضل
97 - تريش لك الأقدار أسهم أسعد تصاب بها للدار عين مقاتل(61)

والإشارة هنا إلى جنود الله جلية فابن زمرك يذكر الملائكة الذين التحقوا ـــ بأمر من الله ـــ بالنبى ﷺ في وقعة بدر وناصروه حتى تغيرت الأوضاع وانتهى بما أراد الله تعالى وهذا ما يجعل شاعرنا يقول :

34 - من كان بندك يامولاى يقدمهُ فليس يخلفه فتح ترجَّاهُ
35 - من كان جندك جند الله ينصره أناله الله ما يرجو أسناهُ(80)

## الأسلحة :

إن مختلف الأسلحة التي يذكرها ابن زمرك خلال قصائده المدحية هي تلك التي تستعملها الجيوش الشرقية من سيف وسهم ودرع ورمح...كما سنراه في دراستنا للمفردات . وهذه الأسلحة كلها تتصف بنفس الأوصاف المعروفة التي تجعلها خطيرة ناجعة ، ومن تلك الأوصاف يعيد علينا ابن زمرك اللمعان وهذا ما يسمح له بالتشبيه التالي :

1 - وابن نصر ......................
2 - ذو حسام كأنه لمع برق في بنان كأنه غيث سحب(5)

ومن قال اللمعان انتظر الحدّة ، وهذه من المزايا الأولى لما تثيره في نفس العدو من خوف :

88 - سلت يمين الملك منك على العدا عضبا مهيب الشفرتين صقيلا(56)

ولكن هذه الأسلحة مهما كانت أوصافها فتبقى بدون جدوى إذا لم تكن في يد قوية ماهرة مثل يد الغني بالله ، ويدعونا ابن زمرك إلى ميدان القتال

لنشاهد ما هو قادر عليه ممدوحه فيصور لنا الشاعر مشهداً مخيفاً مكثراً من صور قاسية تشير كلها إلى سفك الدماء بغزارة ، دماء لا تذهب سدى إذ بها تطفيء السيوف عطشها ويتثاقل ابن زمرك عند هذه الرؤية المزعجة كأنه يجد فيها لذة ولعل ممدوحه يشاركه في ذلك ـــ فيقول مرة :

| | | |
|---|---|---|
| 50 - | وكانت رماح الخط خمصا ذوابلا | فأنهلت منها في الدماء صواديا |
| 51 - | وأوردت صفح السيف أبيض ناصعا | فأصدرته في الروع أحمر قانيا(98) |

ومرة أخرى :

| | | |
|---|---|---|
| 110- | تبلّ غليل الرمح من مهج العدا | إذا ما كست منها الرماح غلائل |
| 111- | فيا عجبا للرمح رؤيته دما | وقد راق منه العين ريّان ذابل(61) |

وفي تحليله لهذا الغرض يرتاح ابن زمرك إلى صياغة استعارات يغلب عليها التصنع والمهارة الأسلوبية فتبرهن ـــ إذا كنا في حاجة إلى ذلك ـــ على عبقريته في استخدام الوسائل البلاغية مما يثير الإعجاب . وبينما نحن مستسلمون لهذا السحر البياني . إذ يفاجئنا ابن زمرك عند ما يلاحظ أن هذا السيف رغم ما قاله عنه سابقا ليس بخال من كل عيب ثم يتدارك ليجعل من هذا العيب نفسه ميزة أخرى يتصف بها هذا الحسام الفريد فيقول مخاطبا ممدوحه :

| | | |
|---|---|---|
| 46 - | حسامك رقراق الصفيح كأنه | بكفك من ماء السماء ينطّفُ |
| 47 - | ضعيف يصحّ النصر من فتكاته | فيروى لنا منه الصحيح المضعّفُ |
| 48 - | ورمحك مرتاح المعاطف هزه | كأن سقته من دم الكفر قرقفُ |
| 49 - | ولا عيب فيه غير أن سنانه | إذا شم ريح النقع في الحرب يرعفُ(48) |

وأما بالنسبة للدرع فإننا لم نعثر عليه إلا نادرا وهو كذلك موصوف بما وصفه به السابقون فحذا ابن زمرك حذوهم فقال :

| | | |
|---|---|---|
| 45 - | حملت أسود كريهة يوم الوغى | ما غابها إلا الوشيج الذّبلُ |
| 46 - | لبسوا الدروع غدائراً مصقولةً | والسمر قضب فوقها تتهدّلُ(62) |

## الجيوش :

إن جيوش الغني بالله كانت عند ابن زمرك موضوع اهتمام بالغ إذ خصّص لها تحاليل طويلة في مواضيع شتى داخل قصائده المدحية ، وما تجدر الإشارة إليه هو أن من بين أصناف هذه الجيوش فالفرسان هم الذين حظوا بالقسط الأوفر . وقد اهتم الكثير من الأدباء والشعراء بوصفهم بحيث أصبح من العسير على ابن زمرك أو غيره أن يأتي بالجديد .

فيطيب لابن زمرك أن يشير إلى الجيوش في حركاتها الحربية وسط ميدان القتال مبديا دائما دهشته وإعجابه بالعدد الغفير من المقاتلين الذين يكونون كتلة واحدة متلاحمة لا يمكن التعرف عليها إلا بفضل الراية المنتشرة على رأسها . ولون هذه الراية يجعل شاعرنا يتساءل في حيرة :

34 - لم أدر والأيام ذات عجائب

35 - ألواء صبح في ثنية مشرق      أم رايةٌ في جحفل جرار(32)

وأما الغني بالله فيتميز ــ بطبيعة الحال ــ عن غيره إذ لواؤه من نوع آخر فيطلب ابن زمرك من ممدوحه أن يرينا ذلك قائلا :

71 - فارفع لواء الفخر غير مدافع      واسحب ذيول العسكر الجرار(39)

ورؤية هذه الجيوش الضخمة المتغلبة دائما على العدو في إقدامها كأمواج متتالية تلهم شاعرنا بصور واستعارات مستعذبة مقتبسة كلها من الطبيعة . فهي تارة حدائق :

63 - ومرسلها ملء الفضاء كتائبا

64 - حدائق خضر والدروع غدائر      وما أنبتت إلا ذوابل مرّان(78)

وتارة حقول منبسطة :

44 - وملتف زرع بالأسِنَّةِ مزهر      ولكن به المران تحلو مجانيها(95)

ورغم وجود الميادين الرحبة فإن هذه الجيوش لا تتسع فيها لضخامتها ومرارا

ما يكرر ابن زمرك هذا الغرض كأنه يريد أن يحذر العدو حتى يتأمل هذا العدد الهائل من المقاتلين قبل أن يخوض معركة لا يعرف في نهايتها إلا الانهزام ويلجأ شاعرنا إلى تشبيه الجيش في تحركاته بالبحر وأمواجه العنيفة المخيفة فيتأتى له أن يقول :

96 - حيث الكتائب قد تلاطم موجها ... وتدّفقت فيها الخيول سيولا

97 - زخرت بأمواج الحديد وربما ... ضاق الفضاء فما وجدن مسيلا(56)

وقد طاب لابن زمرك أن يطيل الكلام في وصف الفرسان النصريين مؤكدا في أكثر من مكان على خصالهم الحربية من شجاعة وحماسة وإقدام ما يجعلهم يتحدون الموت . أتدعو الضرورة إلى التذكار بأن الانتصار لم يغادر أبدا معسكرهم ؟

والجدير بالذكر هو أن ابن زمرك في وصفه الفرسان يكدس الصور والاستعارات المعقدة مما يجعل بعض الأبيات غامضة الفهم ولكن المعنى لايهم شاعرنا إذ همّه الوحيد هو الإصابة البلاغية في التفنن والتنميق مما تستعذبه الآذان :

99 - حملت من الأبطال كلّ مشمّر ... لا يقتني سمر القنا ونصولا

100- آساد ملحمة إذا اشتجر الوغى ... دخلوا من الأسل المثقف غيلا

101- إن شمّروا يوم الحروب ذيولهم ... سحبوا من الزرد المفاض ذيولا

102- أو قصروا يوم الطعان رماحهم ... وصلوا بها الخطو الوساع طويلا(56)

ويتوجه ابن زمرك بعد ذلك إلى الخيل فيوليها عناية كبرى . وهذا ما لا يتعجب منه إذا كنا نعلم أن الفرس هو العون الأساسي للمكافح فدوره حاسم بحيث إنه لا يتصور النصر إلا بمشاركته . فيردد علينا شاعرنا كل ما تعودنا عليه من صفات مرغوب فيها من سرعة وقوة واقتحام فتتوالى التشابيه التقليدية تحت قلمه فيقول تارة :

73 - من كل منفخرٍ بلمحة بارق ... حمَلَ السلاح به على طيار(32)

وتارة أخرى :

64 - من كل برق بالثريا ملجم وبالبدر يسرج والأهلة ينعل(63)

ويقول أيضا :

43 - أوفى بهاد كالظليم وخلفه كفل كما ماج الكثيبُ الأَهْيَلُ

44 - حتى إذا ملك الكمى عنانه يهوى كما يهوى بجوّ أجدلُ(62)

ولا يفوت ابن زمرك أن يمتع العين بالإشارة إلى ألوان شعر هذه الخيول المترامية كما سنراه بتفصيل فيما بعد ، إلا أنه سرعان ما يعود بنا إلى الحرب إذ المهمة الأولى هي القتال فيلاحظ على ممدوحه قائلا :

80 - عودتها أن ليس تقرب منهلا حتى يخالط بالـدّمِ الموارِ(32)

وغرض آخر في هذا السياق تجدر الإشارة إليه هو الغبار الذى يتصاعد في السماء وذلك بعد مرور الفرسان في عدوهم نحو العدو ويؤكد ابن زمرك على هذا الغرض لقيمة دلالته إذ مشاهدته تسمح لنا بتقدير عدد الخيول وهذا العدد يتضاعف بقدر ما يزيد حجم وكثافة هذا الغبار المثار فيلجأ شاعرنا هنا أيضا إلى الطبيعة ليقتبس منها تشبيهاته فيقول :

13 - وكم ليلة قد جئت فيها بليلة من النقع فيها للأسنة أنجمُ(70)

ويعبر ابن زمرك عن ابتهاجه بما يشاهده من حركات صفوف الفرسان حركات متوالية منتظمة فيصيح قائلا :

63 - للـه خيـلك إنها لسوابـح بحر القتام وموجه متهيّـل(63)

وتلك السحب السوداء الدكناء المكونة من ذلك الغبار قد تشكل عائقا خطيرا أمام الجياد إذ يصبح من العسير عليهم أن يهتدوا في طريقهم . ولكن ابن زمرك كان في انتظار اعتراض كهذا وتهيأً ليجيب عنه فقال بهدوء وارتياح مشيرا إلى السيوف المشهرة بأيدى النصريين :

48 - أذكيت فيه شعلة من نصله يهدى بها إن ضلّ عنه المقتل

إلى أن يقول :

52 - وإذا دجا ليل القتام رأيتهُ　　وكأنه فيه ذبال مشعلُ(62)

وينبهنا ابن زمرك إلى أن قوات الغني بالله ليست فقط قوات برية وإنما هي أيضا قوات بحرية . إلا أنه ينبغي أن نلاحظ أن هذا الغرض لم يحظ بتحاليل مثل ما حظى به الغرض السابق وربما يرجع ذلك إلى قلة أهميته نسبيا . والأرجح هو أن الغني بالله لم يملك من السفن والزوارق إلا عددا قليلا وهو بعيد جدّا عما يريده شاعرنا أن نتصوره من خلال تصريحاته :

42 - سيلقى عدو الدين منك عزائما　　إليه بجرار الكتائب تزحفُ

43 - ويأسف لما يبصر البّر يرتمي　　بفرسانه والبحر بالسفن يقذفُ(48)

ويتأتى مرة لابن زمرك أن يقف أمام مجموعة من المراكب تشكل مشهدا يلهم شاعرنا بصور غير خالية من طرافة فيقول :

106- ولا تزجر الغربان في البحر إنها　　سفائن والبحر المذلّل حاملُ

107- ولكنها والله ينجز وعده　　جدار بآساد الرجال حواملُ

108- ومخضرة الأرجاء في جنباتها　　مسارح تحميها الرماح الذوابلُ

109- ترى الدوح منها بالأسِنَّةِ مزهرا　　إذا ما سقته للسيوف الجداولُ(61)

وبعد ما يشير شاعرنا إلى هذه العوامل كلها التي بتآزرها يتحقق النصر دائما للملك النصرى فإنه يعود مرة أخرى وبإلحاح إلى التذكير بأفضلية عامل واحد ألا وهو انتماء ممدوحه إلى الأنصار فهو إذن خليفة الله في الأرض المكلف بالسهر على الإسلام والذود عنه فلا يسمح الله إذن لأى أحد أن يتعدى عليه ويحط من كرامته . وهل هناك من هو أقوى من الله تعالى ؟ ومع هذا فابن زمرك يتوجه إلى الكفار فينذرهم قائلا :

52 - قضى الله من فوق السموات أنه　　على من أبى الإسلام في الأرض قاضيا(99)

وإلى من خالجه الشك في ذلك يقدّم ابن زمرك دلائل قاطعة حتى يقتنع فإلى جانب جنود الله والملائكة الذين عززوا جيوش الغني بالله يذكر شاعرنا

الطبيعة التي بأمر من الله تساهم هي الأخرى في مكافحة العدو حتى لا يكون مصير هذا الأخير إلا الانهزام الطائل . فهو يصور لنا الكواكب في حركاتها إذ يقول :

16 - أمولاى ......................

17 - إذا شئت أن ترمي القصي من المنى تدور الأفلاك مرفوعة القسى

18 - فترمى بسهمٍ من سعودك صائبا سديد لأغراض الأمانى مقرطس(42)

ثم يشير إلى الطيور وكيف تساعد في رفع راية الإسلام فيقول :

102- تظلّل سحب الطير جيشك حيثما تميل به الرايات وهي حوامل(61)

فلا يشك في النصر إذن إلا من لا يعقل ويأتي ابن زمرك في النهاية بهذه الملاحظة هي خلاصة ما تقدم له من قول :

32 - لا يهمل الله الذين رعيتهم فلأنت أكفى والعناية أكفلُ

33 - لا يعد النصر العزيز فإنـه آوى إليك وأنت نعم الموئلُ

34 - لولاك كان الدين يغمط حقه ولكان دين النصر فيه يمطلُ(62)

## جيوش العدو :

إنه لمن المعلوم أن غرض القوات العسكرية المعادية هي موضوع تحاليل معتبرة في الشعر العربي . فيخصص ابن زمرك أبياتا عديدة لعرض هذا الغرض فيطلعنا على تلك الأوصاف التي اتصفت بها الجيوش الإسلامية السابقة الذكر وهذا ما يثير ــ بادىء ذي بدء ــ الحيرة والتساؤل . ولكن إذا تأملنا شيئا ما بدا لنا ما يرمي إليه الشاعر وما هي الغاية من تعظيم العدو والتأكيد على قوته وحماسه وعلى جودة أسلحته . فهو في الحقيقة يستمر في مدح الغني بالله ولكن بصفة غير مباشرة ألم يحطم هذا العدو القوى في كل مرة كما رأيناه ؟ ومن استطاع تحطيمه أليس هو بأقوى منه ؟ فيطيل ابن زمرك الكلام حول الجيوش المعادية والمصير التعس الذي آلت إليه بعد مجابهة الجيوش الغرناطية . فيستمد من الطبيعة صورا هائلة فيقول :

33 - كانوا جبالا قد علت هضباتها    نسفتهم ريح الجلاء فزلزلوا
34 - كانوا بحارا من حديد زاخر    أذكتهم نار الوغى فتسيّلوا(63)

ويترك شاعرنا المجال لخيال خصب فيتصور مشاهد مروعة حيث تتراكم صور قاسية مزعجة تعبر عن العنف المفرط الذى لا يترك للعدو الخيار إلا بين الموت أو الاستسلام . ومشيرا إلى مصيرهم فيقول تارة :

66 - كان الحديد لباسهم وشعارهم    واليوم لم تلبسه إلا الأرجل(63)

ويقول تارة أخرى عارضا على أعيننا منظرا تشمئز منه النفوس :

24 - وقام خطيب السيف فوق رءوسهم    فأعجب منه أعجم يتكلمُ
25 - فكم من رءوس عن جسوم أزالها    فأثكل منها كل باغ يجسّمُ
26 - وزرق عيون للأسنة قد بكت    ولا دمع إلا ما أسيل به الدمُ
27 - ونهر حسام كلما أغرق العدا    تلقتهم منه سريعا جهنمُ
28 - فأصليت عباد المسيح من الوغى    سعيرا به يرضى المسيح ومريمُ(70)

وإن يقين ابن زمرك بانهزام العدو يؤهله إلى توجيه إنذار ملح للرؤساء الأعداء حتى يتبصروا فيتراجعوا ويتركوا مالا طاقة لهم به فتعفى هكذا الجيوش الغرناطية من قتال غير متوازن . فيقول :

104- فقل لعميد الروم دونك فارتقب    طلائع فيها للمنايا رسائل
105- وشم بارق السيف اللموع جفونه    سحاب قتام تحت الدم سائل(61)

وينبه ابن زمرك إلى أن هذا التحذير لا يقتصر على المسيحيين بأرض الأندلس فقط بل يشمل كل مغتر بنفسه أينما وجد في العالم شرقا وغربا :

8 - فقل لملوك الأرض دونكم فقد    أعلّم ما لا زال بالنصر يعلمُ
9 - تسامت به للنصر أشرف ذمةٍ    لها من رسول الله عهد مكرّمُ(70)

## حلمه وعفوه عن الأعداء :

إن الغني بالله مثل الشخصيات البارزة النادرة يتصف بالعفو ، تلك الشيمة

النبيلة التي تدل على كرامته ورحابة صدره ومشاعره الحنانة فالتأكيد على هذه الصفة ما هو إلا تعبير آخر استخدمه الشاعر للإشارة إلى قوة ممدوحه إذ لا يعفو إلا المنتصر القوى وفضلا عن هذا فالقادر على أن يعفو لا يمكن أن يكون من الطغاة الذين يقهرون الضعفاء الفاشلين .

فليس للعدو بعد انهزامه أن يخشى رجلا من طراز الملك النصرى المؤمن بالله المتمسك بالمبادىء الأخلاقية الإسلامية . ويجد ابن زمرك راحة في التنبيه إلى ذلك فيقول :

31 - أصفح مولى عن الذنوب أكرم عاف إذا قدر(108)

ويبدو أن الشاعر لا تعتريه سآمة في تكرار المواقف حيث تأتّى لممدوحه أن يصفح عن العدو بالأمس ومن خلال ذلك يذكر ابن زمرك المرات العديدة التي تمتع فيها الغني بالله بالانتصار على الجيوش المعادية :

4 - كم من جرائم قد غفرت عظيمها مستنزلا من رحمة الغفار(36)

ويشبه ابن زمرك ممدوحه بالبحر المترامي الأطراف بمياهه الغزيرة التي لا تنفد على مرّ الزمان فينادى كل تائب أن يقدم عليه ويستقي من منابعه فيذوق حلاوة الاطمئنان في جواره . ولئلا يكون هذا مجرد كلام يرى ابن زمرك من اللائق أن يضاعف الحجج في صور لماعة حتى يبث الثقة في نفس المشردين ويقضي على ترددهم وتخوفهم من الغرر . فيقول :

21 - ويغضي عن العوراء إغضاء قادر ويرجح في الحلم الجبال الرواسيا(98)

والغاية المنشودة من هذا كله هي رغبة الغني بالله في أن يعمّ السلم ، سلم طائل قائم على التآلف بين القلوب وهذا ما أدّى الشاعر إلى القول :

33 - يامشرب الحب في القلوب وواهب الصفح للصفاح(111)

ويرى ابن زمرك في الختام أنه ليس من الضرورى أن يطيل الكلام في هذا الشأن لشهرة هذا الجانب من شخصية ممدوحه ، والدليل على ذلك ما يروى عنه :

88 - أحاديث عنه في السماحِ غريبةٌ يروّى عواليها عطاء وواصلُ(61)

## عدله وإنصافه :

إن هذا الغرض الأساسي له أهمية كبرى كما يبدو لنا ذلك من خلال الأبيات العديدة التي خصصها له شاعرنا . فلا عجب إذن أن يتصف الغني بالله بهذه الصفة المحمودة في سلوكاته اليومية . فكل إنسان ـــ مهما كان أصله ومهما كانت الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها ـــ له أن يشاهده . ويلاحظ ابن زمرك أن أحد أسرار انتصار سيده هو عدله الشامل وهذا ماجعل الغني بالله حرسا على صيانته حتى أصبح لديه موضوع عبادة . فقال ابن زمرك في هذا الشأن :

37 - تقلّد حكم العدل دينا ومذهبا وجور الليالي قد أزاح وأذهبا(103)

وقد توصل الغني بالله إلى إبادة الظلم ساهرا ليلا ونهارا على أن يكون لكل ذى حق حقه فأصبحت مملكة غرناطة في ظله مملكة يضرب بها المثل في المساواة بين أهلها حيث يطيب لكل إنسان أن يعيش في أحضانها . والجدير بالذكر هو أن الغني بالله لم يهتم برعيته فحسب بل بالعالم أسره وقاوم الظلم والاضطهاد أينما وُجِدَا إذ همه الوحيد انتصار العدل . ويلاحظ ابن زمرك ـــ تاركا لخياله المجال كما عودنا عليه ـــ أن سيده قد وفق في سعيه إذ أصبحت الأحلام حقيقة ملموسة فأتيح لنا أن نشاهد على مستوى البسيطة أمة واحدة قائمة على الإنصاف وحسن التعامل بين جميع سكانها ويتأتى لابن زمرك أن يقول ذاكرا في ذلك ابن خفاجة الذى كان معجبا به :

30 - ملك أفاض على البسيطة عدله فالشاة لا تخشى اعتداء الضَّيْغَمِ
31 - هو منتهى آمال كل موفّقٍ هو مورد الصادى وكنز المعدمِ(75)

فمن الطبيعي إذن أن الغني بالله حسب تصوير ابن زمرك هو سيد الملوك إذ يشخص العدل بعينه . فلم يبق للغير إلا أن يقتدى به :

16 - فاق الملوك بسيفه وبسيبه فبعدله وبفضله يتمثّلُ(62)

ويختم ابن زمرك كلامه في هذا الغرض مصرحا بما يبدو له منطقيا فيخاطب ممدوحه قائلا :

21 - بهديك تهدى النيرات وتهتدى    وأنواءها جدوى يمينك تجتدى
22 - وعدلك للأملاك أوضح مرشدٍ    بآثاره في شكل الأمر تقتدى(103)

## دور الغني بالله ومكانته في غرناطة :

يعتبر ابن زمرك أن ارتقاء ممدوحه على العرش يعد نعمة من نعم الله الواسعة . فيحاول قدر الإمكان أن يبين لنا ذلك بجميع الوسائل فجاء هذا الغرض مفصلا نسبيا فيما بلغنا من شعره .

فالميزة النادرة التي يتمتع بها الغني بالله هي أن الله فضله على عباده أجمعين فأصبح بطبيعة الحال سيّد الناس المؤهل ليضمن السعادة للرعية جمعاء في الدنيا وبالتالي في الآخرة . ولهذه الرعية بدورها أن تفتخر بملكها وتحمد الله على ما منّها به دون غيرها . فيتأتى لابن زمرك أن يقول مقتنعا بما حظي به :

49 - وبسعد مولاي الإمام محمد    تعد الأماني أن يتاح لقائى
50 - ظلّ الإله على البلاد وأهلها    فخر الملوك السادة الخلفاء(1)

وينادى ممدوحه بكل ارتياح :

18 - ياآية الله التي أنوارها    يهدي بها قصد الرشاد الضلّل(62)

إلى أن يقول مشيرا إلى الأندلس المحظوظة :

31 - يافخر أندلس وعصمة أهلها    لك فيهمُ النعمى التي لا تجهلُ(62)

ويلتفت ابن زمرك مرة أخرى إلى الطبيعة ليقتبس منها عناصر صوره المتوالية لإبراز هذه الفضيلة التي يتحلّى بها ممدوحه . فتأتي تشبيهاته بالشمس النافعة تارة فيقول :

14 - فبقيتَ شمسا في سماء خلافةٍ    لا يستطيعُ لها الزمان زوالا(57)

والعجيب أن هذه الشمس ليست كالمشبه بها كما يلاحظه من جهة أخرى :

32 - شمس هدى بلا مغيب وبحر جود بلا حسر(108)

وبعد الشمس يلتفت شاعرنا إلى البدر في منتهي كماله مع كل ما يرمز إليه هذا الكوكب فيقول :

35 - وجاوز قدر البدر نورا ورفعةً ولم يرض إلا بإكمال مواليا(99)

ويجمع تارة بين هذا وذاك ليبين لنا أن الغني بالله نقطة اللقاء لمزايا كل من الكوكبين فيتأتى له هذا البيت في أسلوب بفقرات متوازنة مؤكدا على النور المنبعث منه نور شامل لا يمكن للحياة أن تكون بدونه وهذا ما يفسر ذلك الرونق والجمال الذى تتصف به حتى يتوهم ابن زمرك فيما يشاهده ويعيشه في مرح فيقول :

32 - في كل يوم من زمانك موسم في طيّه للخلق أعياد كبرْ

33 - فاستقبل الأيام يندى روضها ويرف النصر العزيز له ثمرْ

34 - قد ذهبت منها العشايا ضعفما قد فضضت منها المحاسن في السحرْ(41)

ولإبراز النعمة التي عمت المملكة ــ نعمة تتمثل في الغني بالله ــ يلجأ ابن زمرك إلى المقارنة بين ما كانت عليه غرناطة قبل مجيء الملك وما هي عليه من بعد . فإن كانت في الفترة الأولى حزينة لما تعانيه من شقاء فهي في الفترة الثانية مغتبطة لما تتمتع به من سعادة ورغد العيش . فيتجلى لنا هكذا الدور الأساسي الذى قام به الملك النصرى ويصور لنا ابن زمرك يوم قدومه إلى غرناطة فيقول :

90 - طلعت بأفق الغرب نيّر رحمة وقد شرفت منك العلا والفضائلُ

... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ...

93 - وفي الصباح من ذاك الجبين أشعة وفي الشمس من ذاك المحيا دلائلُ(61)

ويستأنف ابن زمرك مؤكدا على مهمة ممدوحه المنقذ غرمنظة من الهلاك والمفرج عن الرعية فيقول :

43 - تلافيت هذا الثغر وهو على شفى وأصبحت من داء الحوادث شافيا(98)

ويطيب لابن زمرك ــ اعترافا بفضل ممدوحه ــ أن يضاعف الأبيات الشعرية

مشيرا فيها إلى جملة ما حققه الغني بالله في فائدة غرناطة وأهلها ولنذكر على سبيل المثال البعض منها :

42 - وأندلسا أوليت ما أنت أهله وأوردتها وردا من الأمن صافيا

... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ...

46 - عطفت على الأيام عطفة راحم وألبستها ثوب امتنانك ضافيا

47 - فآنس من تلقائك الملك رشده ونال بك الإسلام ما كان راجيا(98)

ويقول أيضا :

70 - إمام أعاد الملك بعد ذهابه إعادة لا نابي الحسام ولا واني

71 - فغادر أطلال الضلال دوارسا وجدد للإسلام أرفع بنيـانِ

72 - وشيّدها والمجد يشهد دولـة محافلها تزهى بيمـن وإيمانِ(78)

والإشارة إلى السياسة المحكمة للغني بالله وبالتالي إلى توفيقه في كل ما يريده تؤدّى شاعرنا إلى ذكر ذلك التناسق الموجود بين الأفعال والأقوال فيخطر بباله هذا التشبيه :

59 - ورعيته بسيـاسة دارت على مختطّـه دور السوار بمعصم(75)

وهذا التوفيق في التحقيقات العديدة التي سجلها الملك النصرى يثير إعجاب كل من تأتى له أن يشاهد ذلك . ويعترف ابن زمرك هو الأول قائلا :

57 - كم من عجائب جمة أظهرتها ما كان يخطر وصفهن ببال(66)

وقد رأينا أن ما كان موضوع اهتمام بالدرجة الأولى هو ضمان الأمن والسلام والاستقرار والازدهار وكل هذا يتطلب المهارة في تسيير شؤون الرعية والقوة للتغلب على المعتدين بمختلف أصنافهم . وهكذا يعود بنا ابن زمرك إلى ممدوحه الذى يتمتع ــ بطبيعة الحال بهذه الخصال ــ وها هو يقول :

10 - قلّدت عطف الملك منه صارما بفنائـه ومضائـه يتمثّـلُ

11 - حليته بحلى الكمال وجوهر الـ خُلُق النفيس وكل خلق يجملُ(63)

ويستعمل ابن زمرك ألفاظا عامة يعبر بها عن مزايا ممدوحه وذلك لعجزه عن تعدادها فيدعونا في نفس الوقت إلى أن نتخيل ما شئنا منها بدون أن نبتعد عن الحقيقة إذ في وسع الغني بالله أن يحقق كل شيء . ألم يعرف الفشل أبدا ؟

وما حققه هذا الملك يتميز بما يشير إليه شاعرنا حين يقول :

5 - فمنه استفاد الملك كل غريبة تخطّ على صفح الزمان وترسمُ(70)

لكن ابن زمرك لا يكتفي بهذا ويرى من اللائق أن يحلل تحليلا مفصلا حول غرض السلم والعزة المجددة . سلم كان يتشوق إليه كل غرناطي بجميع حواسه بعد ما ذاق الهمّ والغمّ والإهانة من جراء حروب عنيفة متوالية إلى ما لا نهاية له . فرغبة ابن زمرك أمام هذه الحقيقة التاريخية الأليمة أن يقدم لنا الغني بالله كملك لا يتصور الاستغناء عنه لكفاءته وقدرته على استرجاع الهدنة والأمن وإنزال السكينة والاطمئنان في قلوب الرعية جمعاء . ولبلوغ هذه الغاية كان على الغني بالله أن يبذل جهودا كبيرة . فيشير ابن زمرك إلى كل ما قام به ممدوحه في هذا الشأن فيقول :

60 - كم ليلة قد بتّ فيها ساهرا تهدى الأمانَ إلى العيون النوّمِ(75)

وقد لبّى الملك حق التلبية دعوة من استنجد به وأتاه بما كان ينتظره منه والدليل على ذلك ما يصرح به شاعرنا إذ يقول :

56 - يافخر أندلس لقد مدت إلى علياك كف اللائذ المستعصم(75)

ويعود كل الفضل إلى الغني بالله الذى استطاع أن يقضي على المحن والهموم التي كانت تعاني منها المملكة ويذكر ابن زمرك على سبيل المثال بعض الآفات التي انتهت واضمحلت بإرادة الملك النصرى فيقول :

33 - مؤمّـــن العــــدوتين مما يخاف مــن سطـوة العـدا
34 - وفـارج الكـرب إن ألمّـا ومـذهب الخطب والـردى(110)

ويبدو الغني بالله في دور الطبيب الماهر الذى يأتي بالمعجزات التي تتمثل فيما توصل إليه من نتائج باهرة يشير إليها شاعرنا قائلا :

41 - ولا تشتكى الأيام من داء فتنه فقد عرفت منك الطبيب المداويا(98)

ويترك ابن زمرك ممدوحه ليشاهد مفعوله في الرعية . تلك الرعية التي أصبحت تتمتع بالانبساط وانشراح الصدر ورغد العيش وجاء هذا كله ثمر

الجهود المبذولة من طرف الملك فيصرح ابن زمرك لممدوحه بذلك فيقول :

44 - ألبستهم ثوب الكرامة ضافيًا وأرحت من كدّ ومن إرهاقِ
45 - يتفيئون ظلال جاهك كلما لفحت سموم الخطب بالإحراقِ(52)

ولا يرضى الغني بالله بأن يميز بين أفراد المملكة فما من إنسان مهما كانت سنه ومهما كانت الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها إلا وله الحق في أن يذوق حلاوة الأمن والسعادة في مجتمع يريده مثاليا وهذا ما تشعر به من خلال ما يقوله ابن زمرك في هذا الشأن :

46 - يارحمة بثت الرحمى بأندلس لولاك زلزلت الدنيا بمن فيها
47 - في فضل جودك قد عاشت مشيختها في ظلّ أمنك قد نامت ذراريها(93)

وقد يبدو من الطبيعي أن يكافأ الغني بالله على صنعه الجميل هذا وبالفعل فيستطيع أن يطمئن بدوره لاعتراف الرعية له بما أغدقه عليها من نعم فله أن يعتمد عليها ويضع فيها ثقته التامة وهذا ما أدّى ابن زمرك إلى أن يقول :

44 - فالعدوتان وما قد ضم ملكهما أنصار ملكك صان الله علياهُ(80)

وإن توفيق الغني بالله في سياسته الداخلية والخارجية ليثير الإعجاب وهذا مالا يحرم ابن زمرك نفسه من الإقرار به فينادى ممدوحه قائلا :

7 - فياأيها المولى الذى شاد آخرا من الفخر مالم تستطعه الأوائل(61)

إن الخلافة مرتاحة البال لعلمها أنها بين يدى الغني بالله ويجد ابن زمرك تعليلا لذلك إذ يعتقد أن ممدوحه جمع مزايا أعظم خلفاء الدولة العباسية فكان هو أعظم خليفة شاهدته الأيام ومن هم هؤلاء الخلفاء الذين تفوق عليهم الغني بالله فيجيبنا شاعرنا قائلا :

88 - كفل الخلافة منك ياملك العلا والله جل جلاله بك أكفلُ
89 - مأمـونها وأمـينها ورشيدهـا منصورهـا مهديّهـا المتـوكل(63)

أليس من حسن الحظ أن يعيش إنسان في ظل شخصية مثل هذه ؟ فابن زمرك لا يشك في ذلك وما يقنعه هو ما يلاحظه يوميا . فقصر ملكه أصبح

نقطة اللقاء بين الزوار القادمين من كل مكان بلا انقطاع إذ يجد كل واحد منهم حلا لمشاكله فيغادر قصر الملك راضيا . وبما أن ابن زمرك لا يستطيع أن يذكر جميع ما أتى به ممدوحه من مساعدة فلم يبق له إلا أن يشير إلى المستنجد بالغني بالله بعد زيارته له فيصفه لنا قائلا :

40 وفي كل عين من محياك قرة وفي كل كف من نوالك أنعمُ(70)

أيمكن أن تكون الأمور على ما هي عليه ؟ مع العلم أن المسؤول عليها هو الغني بالله ؟ ويرى ابن زمرك من اللائق أن يذكرنا مرة أخرى أن ممدوحه قد وقع عليه اختيار الله تعالى إذ عينه خليفة عنه . ألم يعامل كما عومل به النبي ﷺ ـــ فالتقرب من الملك النصرى بمثابة التقرب من الله ورسوله ـــ وهذا ما نستخرجه من كلام شاعرنا حينما يكتب :

45 - ورضاك عنه غاية ما بعدها إلا رضا اللهِ الذى ابتدع البشرْ(41)

ويوضح شاعرنا فكرته في مكان آخر معتقدا أن من نال حماية الغني بالله ـــ وهذه مزية في حد ذاتها عظمى ـــ فقد نال حماية الله تعالى وهكذا يتأتى لابن زمرك أن يقول :

31 - يافخرَ أندلس وعصمةَ أهلها لك فيهم النعمى التي لا تجهلُ
32 - لا يهمل الله الذين رعيتَهُمْ فلأنت أكفى والعناية أكفلُ(62)

ويعتبر ابن زمرك بدون مغالاة أنه لا يوجد مكان تطيب فيه الحياة أفضل من المملكة الغرناطية في ظل الغني بالله ويذهب شاعرنا إلى هذا التشبيه :

2 - في كل يوم منك تحفة منعم
3 - قد أدركت دار النعيم عبيده وتضمنت من فضله رضوانا(76)

ليصرح تصريحا باتا قاطعا :

24 - والعمر إلا تحت ظلك ضائع والعيش إلا في جنابك محمل(62)

## إحياء الدين الإسلامي :

يتعرض هنا ابن زمرك إلى غرض « الجهاد» مذكرا بعهد الحروب الصليبية فيزيد من قيمة ممدوحه الذى كافح طول حياته لا لأغراض شخصية ودنيوية وإنما لنصر الدين الإسلامي وتعزيزه ضد أعدائه المشركين . وهذه مهمة نبيلة أوصى بها الله ورسوله . فمن هو أفضل من الغني بالله ليقوم بهذا الدور ؟ ألم يكن في مستوى الأمراء المؤمنين الذين سبقوه ؟ وفضلا عن هذا فيلاحظ ابن زمرك أن الأنتصارات الباهرة التي سجلها ممدوحه كانت تتطلب شروطا واضحة من بينها المهارة والخبرة في قيادة الجيوش الإسلامية وتلك كانت طبيعة الغني بالله الذى ميزه الله بخصال نادرة . وإذا تذكرنا أن الإسلام كان في حالة يرثى لها قبل وصول محمد الخامس إلى عرش غرناطة تبين لنا أن الفضل كله يعود إلى هذا الأخير في إحياء الدين وهذا ما يصرح به شاعرنا قائلا :

30- ياناصر الإسلام وهو فريسة أسد العدا من حولها تتسلّل(62)

ومن اللائق بعد هذا أن نتساءل في حالة ما إذا لم يوجد هذا الغني بالله بالمرصاد . فماذا كان سيقع ياترى وماذا كان سيصيب الإسلام ؟ فيجيب ابن زمرك عن هذا السؤال قائلا :

35- لولاك كان الدين يغمط حقهُ لكان دين النصر فيه يمطلُ(62)

وإن الملك النصرى كان مقتنعا بأهمية هذه المهمة فأداها بكل عزيمة لإرضاء ربه وهذا ما يؤكده لنا شاعرنا حينما يقول :

26- وقام بأمر الله حق قيامــه بعزمةٍ لا وانٍ ولا متــردّد(18)

وينذر شاعرنا العدو مرة ثانية حتى لا يغتر ويقع في الهلاك لأن عزم الغني بالله لا يترك أى مجال للأمل وذلك فضلا عن قواته العسكرية :

42- سيلقى عدو الدين منك عزائما إليه بجرار الكتائب تزحــفُ

43- ويأسف لما يبصر البّر يرتمى بفرسانه والبحر بالسفن يقذفُ(48)

ولا حاجة إلى القول إن الغني بالله قد بلغ الهدف الذى ارتسمه لنفسه ملبيا

هكذا دعوة الله تعالى ، وإن الإسلام لم يخيب إذ تحقق ما كان ينتظره من هذا الذائد عنه . وهذا ما يشير إليه ابن زمرك بقوله :

121- أمولاي يافخر الملوك ومن به    سيبلغ دين الله ما كان راجيا(99)

ويطيب لابن زمرك أن يفخر بممدوحه عارضا علينا المظاهر العديدة لهذا النصر الكبير فالصورة التي يرددها بدون ملل هي المقارنة بين ما يرمز به إلى دين الإسلام وما يرمز به إلى دين المسيح مثل المنبر والمحراب والصومعة بالنسبة للأول ، والصليب والناقوس بالنسبة للثاني . ونلاحظ هنا أن ابن زمرك يتوصل بمهارة ــ مبرهنا على تفننه وبلاغته ــ إلى استعارات وتشبيهات عذبة تقع موقع الرضى من نفوس المسلمين . وقد أوردنا بعض الأبيات من هذا النسيج على سبيل المثال إذ يقول شاعرنا :

52 - قضى الله من فوق السموات أنه    على من أبى الإسلام في الأرض قاضيا

..........................................................................................

55 - ففتحت مرقاة الممنّع عنـوةً    وبات به التوحيد يعلو مناديا

56 - وناقوسه بالقسر أمسى معطلا    ومنبره بالذكر أصبح حاليـا

57 - عجائب لم تخطر ببال وإنما    ظفرنا بها عن همة هي ماهيا(99)

ويقول في مقطع آخر :

21 - وكسّر تمثال الصليب وأخرستْ    نواقيس كانت للضلال بمرصدِ

22 - وطهّر محرابا وجـدد مـنبرا    وأعلن ذكر الله في كلّ مسجدِ(18)

وليلفت نظرنا إلى مدى ما تحقق تحت راية الغني بالله وإلى كل ما استعاده الإسلام بفضله يدعونا ابن زمرك إلى أن نتأمل ما يثير إعجابه حين يقول :

83 - كم بلدةٍ للكفر قد عوّضت من    ناقوسهـا التكـبير والتهليـلا(56)

وإن الأموال الهائلة التي أنفقت لتمويل الحروب لم تنفق عبثا إذ استعملت فيما يحمد عقباه وسيجازى الله من أحسن التصرف بما رزق به . أليس الأمر كذلك بالنسبة للغني بالله ؟ فلا شك في ذلك حسب ابن زمرك الذى يقدم لنا هذا التعليل :

12 - وكم بيت مال في الجهاد بذلتَهُ وأقرضت منه ما الله يعلم(70)

ألا يتبشر كل مسلم عندما يشاهد ــ وذلك بفضل الغني بالله ــ أن دين الإسلام قد استعاد عزته تلك التي عرفها في عهده الأول . ويلجأ ابن زمرك لإبراز ذلك إلى استعارة شيقة حيث يقارن بين الإسلام في فترة المحن والإسلام تحت ظل ممدوحه فيقول :

17 - فالديــن ذو أعين رقــود وكان لا يطعــم المنــــام(115)

ويلاحظ أن للإسلام أن يطمئن إذ هو الآن موضوع حراسة واعتناء فليس له أن يخشى أى اعتداء عليه فيصفه لنا ابن زمرك في حالة رفيعة هي عكس الحالة التي يتخبط فيها دين الضلال فيقابل بين هاته وتلك فيقول في حق الإسلام مخاطبا ممدوحه :

51 - لقد فخرالإسلام منك ببيعـة وزال بها عنه الأسى والتخوّفُ

52 - وألبسته بردا من الفخر ضافيا على عطفه وشي المديح يفوّفُ(48)

وأما بالنسبة لدين المسيح فيقول :

67 - واسْودَّ وجه الكفر من خزى متى ما احمّر وجهُ الأبيضِ البتارِ(32)

وإن المقارنة بين العهدين عهد النبي وعهد الغني بالله تؤدى ابن زمرك إلى الإشارة إلى ما بين ممدوحه ورسول الله ﷺ من صلة فيقول :

61 - سمي رسول الله ناصر دينه معظّمه في حال سر وإعلانِ(78)

كما يجد صلة بين الجيوش الغرناطية والأنصار :

26 - فالديـن وليــقصر الكـــلام بسيــفك اعتــز وانـــتصر

27 - كـــذلك أسلافك الكــــرام هـــم نصروا سيــد الــبشر(113)

ويوجه ابن زمرك دعاء لله في شأن ممدوحه معترفا بكل ما هو والرعية مدينان لهذا الأخير مع عجزهما على أن يكافئا ، بالمثل فيقول مخاطبا ملكه :

105- ياناصر الإسلام ياملك العلا اللـه يوتيك الجزاء جزيـــلا(56)

وتجدر الإشارة في النهاية إلى أن ابن زمرك اقتصر على هذا الجانب الديني للغني بالله إذ لم ير من اللائق أن يطلعنا على ممدوحه في تأدية واجباته الإسلامية الأخرى ، فشاعرنا كغيره من المداحين اكتفى بالإشارة الخاطفة إلى تقوى الملك وانطلاقا من هذا فعلينا أن نتأمل مدلولات هذا اللفظ .

ويتميز ابن زمرك بعيدياته ومولدياته التي يتجلى لنا من خلالها اهتمام الغني بالله بهذه المواسم الإسلامية والدور الذى يلعبه فيها لإعطاء هذه الأيام الأبهة الملكية لإبهار الغير . إلا أن هذا يبقى متعلقا بحياته العمومية في علاقاته مع رعيته وأما حياته الخاصة فلا نعرف عنها شيئا إذ لا يفوه ابن زمرك ببنت شفة في هذا الشأن .

## اشتهار الغني بالله في العالم :

إن الخصال الحميدة التي كان يتميز بها الغني بالله والانتصارات الباهرة التي سجلها في مختلف الميادين طيلة حياته كانت سبب اشتهاره ، اشتهار سرعان ما تجاوز حدود المملكة الغرناطية . ولا يتأتى الكلام عن هذه الشخصية البارزة إلا على المستوى العالمي . وهذا ما نصبه ابن زمرك أمام عينيه وقام بهذه المهمة بكل حماس ، والدليل على ذلك هو العدد الوافر من الأبيات الشعرية التي خصصها لهذا الغرض حيث نلاحظ الإشارة إلى أخلاق ممدوحه ، أخلاق قد عثرنا عليها بعد إلا أنها أتت هنا في سياق عالمي .

فإن كان الغني بالله أفضل ملوك الأرض فهذا يعود إلى أصله والخصال الموروثة عن الأنصار الأمجاد فيقول شاعرنا في هذا المقام :

83 لا غرو أن فقت الملوك سيادة     إذ كان جدك سيد الأنصارِ

..........................................................................

93 - أصبحت وارث مجدهم وفخارهم     ومشرف الأعصار والأمصارِ(32)

وإن كان الانتماء إلى الأنصار ضروريا ليتوصل الغني بالله إلى ما توصل إليه فهو غير كاف إذ كان لا بد أن يتمتع هذا الوارث المجيد بمزايا يعسر على ابن

زمرك أن يحصرها وهذا ما يجعله يقول :

21 - فلقد ظهرت من الكمال بمستوى ما بعده لذوى الخلافة مأمَلُ(62)

فإن كان الأمر هكذا فقد أصبح من المسلم به أن الغني بالله هو من إليه تتوجه الأبصار كلها لما يجده كل إنسان من اطمئنان وراحة بال وانشراح صدر . ويقين ابن زمرك بذلك يؤديه إلى أن يجزم قائلا :

90 - حسبُ الخلافة أن تكون وليَّها ومجيرَها مِنْ كلِّ مَنْ يتخيلُ

91 - حسبُ الزمان بأن تكون إمامهُ فله بذلك عزةٌ لا تهمـلُ

92 - حسب الملوك بأن تكون عميدها ترجو الندى من راحتيك وتأملُ

93 - حسب المعالي أن تكون عمادَها فعليك أطنابُ المفاخر تُسْدَلُ(63)

وإن الملوك بأسرهم قد اقتنعوا بأهمية هذه الشخصية فكان همهم الوحيد أن يتقربوا منه مستخدمين لذلك كل ما لديهم من وسائل ولنتأمل هذه الصورة التي رسمها لنا ابن زمرك حينما قال :

41 - علمت ملوك الأرض أنك فخرها فتسابقت لرضاك في مضمارِ

42 - يتبّوءون به وإن بعُد المدى من جاهك الأعلى أعز جوارِ(38)

ثم يأتي دور الخلفاء وكم هم مدينون له . فيستجوب ابن زمرك ممدوحه :

12 - أو لست قد أوليت كل خليفة شرقا وغربـا أصوب الآراءِ(2)

ويستمر شاعرنا جازما :

6 - ومنه تلقى الهدى كُلُّ خليفةٍ كـأنهمُ ممَّـا أفـادَ تعلَّمُـوا(70)

وبعد الإشارة إلى الملوك والخلفاء والأمراء يأتي ابن زمرك إلى ممثلي الخاصة والعامة . فيعرضهم علينا متوالين قاصدين قصر الملك النصرى وذلك رغم أخطار الطريق ورغم المسافة البعيدة ، وإن هذا الجمهور الغفير المتجمع أمام أبواب الحمراء ، يذكر ابن زمرك بالحجيج إلى بيت الله الحرام فيتأتى له أن يقول :

58 - أمّت وفود الناس منك مملّكا قد خص بالتعظيم والإجلالِ
59 - جاءوا مواقيتَ اللقاء كأنهمْ وفد الحجيج برامـة وألالِ
60 - لله عينا من رأى ملك العلا حفّ الوقار جمالـه بجلالِ
62 - بلغوا العدد الكثير وكلهـمْ أرضاهُـمُ إحسانُكَ المتـوالي(66)

ولا حاجة إلى القول إن كل من قصد الغني بالله إلا ووجد لديه ما كان يرغب فيه :

65 - صرفوا إليك ركابهم وتيمّموا من بابك المنتاب خير ميمّمِ
66 - وتبوءوا منه بدار كرامـة فالكل بين مقرّبٍ ومنعّـمِ(75)

وإن خطر ببال ابن زمرك أن يتصور ممدوحه داعيا الأشراف فيتاح لنا أن نعيش هذا المشهد :

53 - ودعوت أشراف البلاد وكلهم يثني الجميل وصنع جودك أجملُ
54 - وردوا ورود الهيم أجهدها الظما فصفا لهم من وِرْدِ كَفِّكَ منهلُ(63)

ويلاحظ ابن زمرك أنه ينبغي ألا ننسى أولئك الذين لم يستطيعوا أن يسافروا لأسباب ـــ من دون شك ـــ قاهرة . فيشير على سبيل المثال إلى أهل مصر وكيف عبروا عن تقديرهم للغني بالله والاعتزاز به كما يشرحه لنا قائلا :

130- وجاءتك من مصر التحايا كرائما كما فتقت أيدى التجار الغواليا
131- ووافتك من أرض الحجاز تميمة تتمّم صنع الله لازال باديا(99)

ويرى ابن زمرك أن لممدوحه أن يفتخر بما وفق إليه إذ كان نقطة اللقاء بين الكبير والصغير بين الوضيع والغني . فما كان مصير تحقيقاته ؟ فيجيبنا شاعرنا قائلا :

50 - أبديت من حسن الصنيع عجائبا تروى على مرّ الزمان وتنقلُ(63)

وقد قدم الغني بالله أدلة على مواهبه وحسن تدابيره كما يتجلى لنا من خلال قول ابن زمرك :

39 - لك الخير لم تقصد بما قد أفدته جزاء ولكن همة هي ما هيا

40 - فما تكبر الأملاك غيرك آمرا ولا ترهب الأشراف غيرك ناهيا(98)

ويبدو اعتراف كل من استنجد به أمرا طبيعيا لِلأحدِ أن يشتكي ممن كانت لاءه نعم ؟ فقد حصد الغني بالله ما زرع والدليل عليه هذا القول الشعرى :

1 - يامن تمد له الملوك أكفهـا تدعو الإلَهَ له بطولِ بقـاءِ(2)

ثم يجمع ابن زمرك بين جزاء العبد وجزاء الخالق سبحانه وتعالى فيقول :

113- فعند جميع الخلق شكرك عاجلٌ وعند الإلهِ الحق أجرُكَ آجلُ(61)

وإن المكانة التي حظي بها الغني بالله لتثير الغيرة عند جميع الناس ومن طبيعة الإنسان أن يغير ، ولكن العجيب هو أن الطبيعة تحيا تحت قلم ابن زمرك لتعبر عن عواطف مماثلة متأسفة على أنها دون هذا الملك منزلة ، فيصور لنا شاعرنا القرينة بين السامي ومن دونه فيقول :

67 - ودت نجوم الأفق لو مثلت به لتفوز فيه برتبة المستخـدمِ(75)

وإن كان الأمر هكذا فما لغرناطة أن تقوله وهي التي اختارها الغني بالله لتكون عاصمة مملكته ومقره . فهذه الحاضرة عالمة بأنها سعيدة بذلك محظوظة ، ولننظر إليها في مقابلتها المدن الشرقية فمظاهرها كلها تعبر عن افتخارها وزهوها وهذا ما يدفع ابن زمرك إلى أن يقول :

18 - تشرّف أفق أنت بدر كماله فغرناطةٌ تختال تيها على مصرِ(37)

والإشارة إلى غرناطة أدت ابن زمرك إلى الإشارة إلى أهلها الذين أصبحوا كأنهم في دار النعيم فمن له أن يتمثل به ؟ ويسأل شاعرنا عنهم الأيام فتخبره بما يلي :

28 - ومن يسأل الأيام تخبره أنها بقومك تزهى في الفخار وتشرفُ(48)

وكل هذا يبدو في عين الغني بالله ضئيلا إذا قيس باعتراف دين الإسلام له بكل ما حققه في سبيل نصرته . والجرأة تؤدى شاعرنا إلى أن يقول :

10 - وقد ملك الإسلام خير خليفة من البدر أبهى بل من الشمس أشرفُ(48)

وقد أراد ابن زمرك أن يكون ممدوحه في وسط الكون وكل ما يوجد فيه من أحياء وجوامد مدين له بشيء ولذلك يتفسر لنا ما يقوله ابن زمرك كخلاصة لهذا الغرض :

9 - إذا شكوت فكل الكون ذو وَصَبٍ فأنت منه مكان السمعِ والبصرِ(35)

## خلف الغني بالله وبعض الأمراء النصريين :

إننا لنعثر فيما بلغنا من شعر ابن زمرك على أبيات من هنا وهناك جاءت في مدح أبناء الغني بالله . هؤلاء الأبناء يتصفون كما هو منتظر بجميع الصفات التي تؤهلهم لأن يكونوا خلفاء والدهم . ولقد سبق لنا أن لاحظنا أن أبا الحجاج يوم ارتقائه العرش الغرناطي قد حرك قلم ابن زمرك الذى سرعان ما نسي الملك الراحل ليهتم بالقادم ضامنا هكذا استمرار عبقريته في تحليل غرض واحد وبلوغ غاية واحدة ألا وهي إرضاء الملك الجديد وبالتالي المحافظة على مكانته .

ولسنا في حاجة إلى القول بأننا سنجد نفس الأوصاف بالاستعارات والتشابيه التي تقدمت لنا الإشارة إليها في مدح الغني بالله . فلا يتحرر ابن زمرك من القيود التقليدية الموضوعة بصفة طائلة بحيث يمكننا أن نقول إن شاعرنا قد اكتفى بتغيير أسماء المعنيين بقصائده . فما صح في هذا يصح في ذاك .

فأبناء الغني وحفدته مشبهون تارة بالنجوم الساطعة وتارة بالبدر في كماله وتارة أخرى بالشمس ومرة بالجواهر النفيسة ومرة أخرى بالأزهار اليانعة . وكون هؤلاء الأبناء في سن الطفولة أدى ابن زمرك إلى التأكيد على جمالهم وأدبهم وحسن سلوكهم وكل ما سيؤهلهم إلى القيام بشؤون المملكة . ويبدو لنا من اللائق أن نأتي على سبيل المثل بأبيات مقتبسة من المخمس الذى خصصه ابن زمرك لمدح الغني بالله وأسرته فقال :

76 - بنوك كأمثال الأنامل عــدة أعدت لما يخشى من الدهر عدةُ

81 - بدور بأوصاف الكمال استقلّت غمام بفياض النوال استهلّت

82 - سيوف على الأعداء بالنصر سلت نجوم بآفـاق العــلاء تحلّت

83 ولاحت كما شاءت سعودك أسعدا

..................................................................................................

96 - أزاهر في روض الخلافة أينعت زواهر في أفق العلاء تطلعتْ

97 - جواهر أعيت في الجمال وأبدعت وعن قيمة الأعلاق قدرا ترفعتْ

يسر بها الإسلام غيبا ومشهدا. (103)

○ ○ ○

## الفصـل الثانـي

### أغـــراض المـولديـات :

إن المولد النبوى أى إحياء ذكرى ميلاد الرسول ﷺ ، من المواسم الإسلامية التقليدية التي يعيشها كل مسلم في غبطة وابتهاج مغتنما هذه الفرصة ليذكر سيد البشر وفضله اللانهائيّ في تبليغ الرسالة ونشر الإسلام دين الرحمة والمغفرة . و لم يفت ابن زمرك أن يغتنم هذه المناسبة ليظهر يوم الاحتفال بالقصر الملكي في مقام يود الكثير أن يحظى به إذ هو المنتظر لينشد مولدية بمحضر الغني بالله ويجدر بنا أن نلاحظ أن شاعرنا كلما فرغ من مدح الرسول ﷺ إلا وذكر مولاه وخصص له أبياتا مدحية كما أشرنا إليه سابقا .

وإن العدد القليل من المولديات التي احتفظ لنا بها التاريخ لا يسمح لنا أن نأتي بدراسة شاملة مستقصية لأغراض هذا النوع الشعري حتى نقارن بين ما تضمنته القصائد هذه وبين ما ورد في السيرة النبوية . ومن المرجح أن ابن زمرك قد احترم ما هو متفق عليه ولايصح له إلا أن يصف النبي ﷺ بأوصاف ثبتت في كتب السير والتاريخ . فلم يكن إذن في وسع شاعرنا أن يجدد المضمون و لم يعمل حريته إلا في الشكل كما كان الأمر بالنسبة للقصائد المدحية التي نظمها في شأن الغني بالله .

وإن دراسة المولديات هذه أدتنا إلى أن نلاحظ أن بعض الأغراض جاءت موسعة مفصلة استغرقت جزءا معتبرا بينما جاءت أغراض أخرى منحصرة في أبيات معدودة وأغراض غير مذكورة تماما . ولْنَرَ الآن ما هي الأغراض التي تعرّض إليها ابن زمرك .

### أصل النبي ﷺ :

إن هذا الغرض الشعرى لم يلفت نظر شاعرنا إذ أننا لم نجد له أثرا فيما بلغنا من هذا النوع الشعرى . فلم يتكلم ابن زمرك عن قريش ولا عن والدى الرسول ولا عن مربيه . وقد اكتفى بالإشارة مرتين فقط إلى بني هاشم الفرع

الذي ينتمي إليه رسول الله ثم إلى عدنان وأخيرا إلى مضر . والغاية من ذلك الإشارة إلى المجد كما يتجلّى لنا من خلال هذا البيت :

52 - خلاصة صفو المجد من آل هاشمٍ ونكتة سر الفخر من آل عدنانِ(78)

وفي حق النبي ﷺ خاصة يقول بكل بساطة :

42 - من هاشم في سماء العز مطلعه أكرم به نسبا بالعز متشحا

43 - من آل عدنان في الأشراف من مضر من محتد تطمح العلياء أطمحا(11)

## أخـــلاقــه :

فمن المنتظر أن يذكرنا ابن زمرك بالفضائل المجيدة التي يتحلى بها النبي محمد ﷺ فضائل جعلته نسيج وحده على المستوى البشرى . فنعثر على أسمائه النبيلة مثل المصطفى والمختار والحبيب ، أسماء تبرز لنا العلاقة الوثيقة بين الله ورسوله . وليس لأحد أن يكون أقرب إلى الله منه وبالتالي فإنه الأولى بتبليغ الرسالة إلى العباد أجمعين .

29 - المصطفـى والمرتضى والمجتبــى والمنتقى من عـنصر العليـاءِ

30 - خيرُ البريةِ مجتباها ذخرهـا ظـل الإلٰـه الـوارف الأفيـاءِ

31 - تاج الرسالة ختمها وقوامها وعمادها السامى على النظراءِ(1)

فإن تمتع الرسول ﷺ بهذه المكانة فذلك يعود إلى الله كما يشرحه شاعرنا قائلا :

55 - الله أعطاك ما لم يؤته أحدا والله أكرم من أعطى ومن منحا(11)

ويلجأ ابن زمرك إلى هذه الصورة ليؤكد على عدم وجود ما يماثل الرسول ﷺ فيقول :

45 - عناية سبقت قبل الوجود له والله لو وزنت بالكون مارجحا(11)

وينطلق به قلمه إلى أن يقول :

50 - وأنت لهذا الكون علة كونه ولولاك ما امتاز الوجود بأكوان(78)

وعلى سبيل الخلاصة يعبر شاعرنا عن اقتناعه وإيمانه بمن فضله الله تعالى على عباده :

48 - فأنت حبيب الله خاتم رسله وأكرم مخصوص بزلفى ورضوان

49 - وحسبك أن سماك أسماءه العلا وذاك كمال لا يشاب بنقصان(78)

ويتساءل ابن زمرك عن قيمة مدحه نبي الإسلام ، ويرى أنه دون هذه المهمة مهما كان تضلعه في البلاغة والبيان ملاحظا أن من شرفه الله بمدحه في كتابه المقدس لا يمكن أن يكون موضوع مدح للشعراء إذ شتان ما بين فصاحة القرآن والقصائد المدحية ــ مهما كانت براعتها ــ فيعبر بكل تواضع عن عجزه وعجز غيره في هذا الشأن فيقول :

57 - وماذا عسى يثني البليغ وقد أتى ثناؤك في وحي قديم وقرآن(78)

## أصالة الرسالة المحمدية :

يشير ابن زمرك بصفة موجزة إلى ما يثبت أصالة الرسالة النبوية معتمدا في ذلك على الحجج المتفق عليها وهي ثلاثة أنواع .

يرجع شاعرنا إلى الأولى منها ألا وهي المتمثلة في القرآن الكريم ذلك الكتاب الذى تضمن آيات عديدة أنزلت في شأن من لم يصدقوا النبي ﷺ ، والغاية منها إقناع هؤلاء حتى يؤمنوا . ويلاحظ شاعرنا أن محمدا نبي منذ القدم وعلى أهل الكتاب أن يتأملوا كتبهم ليقتنعوا وهذا ما يسوغ لشاعرنا أن يقول :

59 - أثنى عليك بكتبه من أنزل الـ ـقرآن والتوراة والإنجيلا(56)

وبعد الكتب المنزلة يستأنف ابن زمرك بيانه بالإشارة إلى الكهان من جهة وإلى الرسل الذين سبقوا محمدا ﷺ منبها أن هؤلاء وأولئك قد صرحوا بأنه سيأتي رسول من بعدهم ، وهذا الرسول ما هو إلا محمد ، إذ ثبت أنه كان نقطة اللقاء لكل ما قيل عن شخصية وصفات هذا المرسل . وهذا ما يريده شاعرنا بقوله :

37 - قد بشر الرسل الكرام ببعثه وتقدم الكهان بالأنباء(1)

ويشير ابن زمرك في النهاية إلى المعجزات التي أتى بها محمد ، معجزات لا تترك مجالا للشك في أصالة الرسالة النبوية . ويكتفي شاعرنا في ذلك بالإشارة الخاطفة إلى أشهرها ، إلا أننا نلاحظ أنه يؤكد على التي موضوعها استعادة الشمس فيذكرها ثلاث مرات ، وإليك الأبيات التي ضمنها هذه المعجزات فيقول :

33 - ذو المعجزات الغر والآي التي أكبرن عن عدّ وإحصاءِ

34 - وكفاك ردّ الشمس بعد غروبها وكفاك ما قد جاء في الإسراءِ

35 - والبدر شق له وكم من آية كأنامل جادت ينبع الماءِ(1)

وأما السحابة التي بإرادة من الله وَقَتِ الرسول ﷺ لهي معجزة أخرى تبرهن على أن الله مستجيب لدعوة أفضل المرسلين . أليس ذلك من أقطع الأدلة على صدق الرسالة ؟ فعلى المتردد أن يتأمل هذه الأبيات :

46 - بدعائه انقشع الغمام وقبلها والت بدعوته الغمام همولا

47 - والشمس قد ردت له ولطالما قد ظلّلته سحابها تظليلا(56)

فإن ابن زمرك هو الأول مؤمن ومصدق بأن محمدا رسول الله حقا فيتوالى في بيت واحد ما يشهد له بذلك إذ لا يتأتى لأى إنسان أن ينافسه في هذا المجال فيقول :

45 - فيامولي الرحمى ويامذهب العمى ويامنجد الغرق ويامنقذ العاني(78)

## مكانة الرسول ودوره في العالم :

لقد خصص ابن زمرك كمية متوفرة من الأبيات يذكر فيها الرسالة النبوية مؤكدا على مهمة محمّدﷺ لإخراج البشر من الظلمات إلى النور ، والله تعالى هو الذى كلفه وشرفه بذلك فكان الواسطة بين الخالق ومخلوقاته ، ويبدو هذا أمرا جليا للجميع ما عدا من يشير إليهم شاعرنا حينما يقول :

40 - هو آية الله التي أنوارها تجلو ظلام الشك أىّ جلاء

41 - والشمس لا تخفى مزية فضلها إلا على ذى المقلة العمياء(1)

ويضيف قائلا في قصيدة مدحية أخرى :

55 - ياحجة الله التي برهـانها ما كان يوما صدقه مجهولا(56)

ويجد ابن زمرك راحة في تكرار صفة من الصفات الإلهية ألا وهي « الرحمة » تلك التي دفعت الله تعالى إلى إرسال النبي محمد للعالمين لأن الله لا يريد بعباده إلا خيرا فرغبته أن يكونوا سعداء لا أشقياء في الدنيا وفي الآخرة . فمن المسلم به أنه يستحيل في حقه أن يكون مجبَرا على ما أكرمنا به ، وعلى البشرية جمعاء أن تحمد الله على بره . وهذا ما يسمح لابن زمرك أن يضيف قائلا :

45 - رحـم الله العـالمين ببعثـه فيهم وفضّل جنسه تفضيلا(56)

فهذه النعمة الإلهية التي تشخصت في محمد ﷺ قد أدت العالم إلى ما هو عليه من حضارة ومجد بحيث أنه يسوغ للإنسان أن يتساءل — في حالة ما إذا لم يُبّعَثْ هذا النبي — عن مصير الدنيا . فيجيبنا ابن زمرك بكل هدوء ذاكرا كل ما كان متوقفا على مجيء الرسول فيقول :

50 - لولاك لم يك للكيان حقيقة ولكان باب وجودها مقفولا

51 - لولاك للزهر الكواكب لم تلح مثل الأزاهر ما عرفنا ذبولا

52 - لولاك لم تجل السماء شموسها ولكان سجف ظلامها مسبولا

53 - لولاك ما عبد الإله وما غدا ربع الجنـان بأهلـه مأهـولا(56)

ويعود ابن زمرك مرة أخرى إلى الرسالة النبوية والغاية القصوى منها ، غاية تتلخص في تبليغ كلمة الله المتمثلة في القرآن للبشر ليتعظُوا بها وينوه بسيرة الرسول في تأدية الأمانة . فالأمة الإسلامية مدينة له في كل ما حظيت به عاجلا وآجلا .

وكثيرا ما يستعمل ابن زمرك هذا الازدواج . النور من جهة والظلام من جهة أخرى مكنيا عن الإسلام بالأول وعن الكفر والضلال بالثاني . أهناك تردد في اختيار أولى الألباب ؟ فيذكر شاعرنا القرآن الكريم الذى جاء آية في البلاغة والبيان عارضا علينا أحكامه وآمراً بالمعروف وناهيا عن المنكر . وكان النبي ﷺ

أول من حلل ما جاء في تعبير موجز وهذا ما أدى ابن زمرك أن يقول :

دار الرسول ................

40 - حيث الرسالة فصلت أحكامها    لتبين التحريم والتحليلا

41 - حيث الشريعة قد رست أركانها    فالنص منها يعضد التأويلا

42 - حيث الهدى والدين والحق الذى    محق الضلال وأذهب التضليلا(56)

ومن المستحيل أن لا يوفق الرسول ﷺ في سعيه إذ مسيره هو الله تعالى ، والدليل على ذلك هو أن ما توصل إليه النبي كان في غاية الصواب إذ علا الحق وزهق الباطل . فيقر ابن زمرك بذلك حينما يقول :

48 - صدعت بالنور تجلو كل داجية    حتى تبين نهج الحق واتضحا(11)

والفضل كله يعود إلى النبي في تأدية الرسالة على الوجه الأكمل بحيث تأتى لشاعرنا أن يقدم لنا هذه المقارنة بين دين الإسلام ودين الكفار فيقول :

39 - أمسى بها الإسلام يشرق نوره    والكفر أصبح فاحم الأرجاء(1)

## الشفيع :

إن غرض الشفاعة في المولديات التي بلغتنا غرض حظي باهتمام كبير من طرف شاعرنا وهذا ما لا يستغرب منه إذا علمنا أن المسلم يجد اطمئنانا عندما يذكر يوم القيامة بأن النبي لحنانه يتوسل له عند الله حتى يغفر له ما تقدم له من الذنوب في الدنيا . ومن كان النبي ﷺ شفيعه فلا يخيب أبدا ، هذا وقد يرى كل مسلم أن الشفاعة هي الحاجز الأخير بينه وبين غضب الله . فلنتأمل إذن أهمية هذه الشفاعة إذ عليها يترتب رضى الله وبالتالي دخول الجنة .

فأطال إذن ابن زمرك الكلام عن الشفاعة بجميع ألوانها منها أن هذا الفضل قد انفرد به رسول الله النبي محمد دون غيره من الأنبياء . وهذا ما يصرح به حينما يقول :

23 - يامصطفى ....................

24 - مزيــة أعطـيتها في القـــدم بها على كل نبـــي تسود(117)

ويرينا شاعرنا يوم القيامة نبيا مرتاح البال إليه تلتفت عيون من خالج أنفسهم ارتباك ليستنجدوا به متيقنين أنهم سينقذون من العذاب بفضل شفاعة خير البشر وهذا ما يسمح لابن زمرك أن يقول :

65 - ياسيد الرسل يانعم الشفيع إذا طال الوقوف وحر الشمس قد لفحا

66 - أنت المشفع والأبصار شاخصة أنت الغياث وهول الخطب قد فدحا(11)

وإذا كان أمل المسلم المذنب متعلقا بالرسول ﷺ فلا يستسيغ هذا الأخير أن يخيب من طلب الشفاعة هذه ، وابن زمرك هو الأول المتيقن بذلك فيخاطب النبي ﷺ قائلا :

46 - أشكو إليك وأنت خير مؤملٍ داء الذنوب وفي يديك دوائي

47 - إني مددت يدى إليك تضرعا حاشى وكلا أن يخيب رجائيُ(1)

ويرى ابن زمرك فيما يخصه أن شفاعة الرسول ﷺ هي أمله الأخير يوم الحساب والعقاب وبدونها يكون من الأشقياء ، أولئك الذين لم يمتثلوا لأوامر الله وتغافلوا في دنياهم عن الأركان الإسلامية . فيبقى النبي ﷺ شفيع من ليس معه زاد كما يشير إليه شاعرنا قائلا :

67 - والله مالي للخلاص وسيلـة إلا رضاك وعفوك المأمــولا

68 - إن كنت ما أعددت زادا نافعا أعددت حبك شافعا مقبولا(56)

ويذهب ابن زمرك إلى أن يتساءل فيما إذا كان من الضرورى أن يتهيأ الإنسان للحياة الآجلة . وهذا التساؤل يحمل في طياته الجواب الذى يميل إليه شاعرنا وهو أنه لا حاجة إلى ذلك ، وأكثر من ذلك فابن زمرك يؤاخذ من لم يوافقه فيلقى عليه هذا السؤال لإقناعه أنه على غير صواب فيقول :

17 - هل يحمل الزاد لدار الكريم والمصطفى الهادي شفيع مطاع

18 - فجاهه ذخـر الفـقير العـديم وحبه زادى ونعـم المتــاع(117)

ومهما كان الأمر فإن ابن زمرك يعتقد أنه من المستحيل على الإنسان أن يعرف مصيره في الآخرة أأعماله مقبولة أم لا ؟ فإن كانت مقبولة فبها ونعمت وإلا كان صاحبها في حاجة إلى شفاعة الرسول ﷺ ، وهكذا يكون النبي شفيع جميع الناس مع اختلافهم ، ولا يفوته أن يشير إلى الرسل الذين لا يستغنون عن هذه الشفاعة فيقول :

61 - ياشافع الرسل الكرام ومن به يرجون في يوم الحساب قبولا(56)

ويضيف بعبارة أدق :

47 - وسيلتي العظمى شفاعتك التي يلوذ بها عيسى وموسى بن عمران(78)

## المدينة المنورة حيث ضريح النبي ﷺ :

إن المدينة المنورة مع مكة المكرمة هما المدينتان المعظميان عند المسلمين لدورهما في حياة الرسول ﷺ . ويرى ابن زمرك من اللائق أن يذكر بصفة موجزة تاريخ المدينة التي أصبحت ذا شأن ابتداء من اليوم الذى استقبلت فيه النبي ﷺ إلى اليوم الذى احتضنته في أرضها فيلاحظ ابن زمرك قائلا :

31 - حيث علا الإيمان وامتد ظله وزان حلى التوحيد تعطيل أوثان(78)

ويسوغ للمدينة أن تفتخر ! ألم يوجد بأرضها ضريح خير البشرية ؟ وهذا ما يؤدى ابن زمرك إلى تمجيد رسول الله مرة أخرى فيقول في هذا الشأن :

43 - حيث الضريح يضم أكرم مرسل وأجل خلق الله جيلا جيلا(56)

وقد تعوّد المسلمون إلى يومنا هذا عند تأدية فريضة الحج على زيارة قبر النبي ﷺ وذلك رغبة في التقرب منه ومن الله آملين شفاعته يوم القيامة . وإلى هؤلاء يشير ابن زمرك قائلا :

35 - يناجون عن قرب شفيعهم الذى يؤمله القاصي من الخلق والداني(78)

ويوضح لنا شاعرنا ما هي الغاية المنشودة من هذه الزيارة حيث يقول :

29 - يؤمون من قبر الشفيع مثابة تطلّع منها جنة ذات أفنان(78)

وأن الحج ــ كما هو معلوم ــ ركن من أركان الإسلام ولا يصبح واجبا إلا على المسلم القادر على القيام به . أما أولئك الذين لم يستطيعوا إليه سبيلا فلا يخالجهم اليأس ويأملون دائما التوفيق من الله حتى تلبى دعوتهم ، ويعد ابن زمرك نفسه من بينهم فيتساءل قائلا :

32 - أوتروني يوما مياه مجنة[13] ويشيم طرفي شامة وطفيلا[14]

33 - وأحط في مثوى الرسول ركابي وأبيت للحرم الشريف نزيلا(56)

ويختم ابن زمرك كلامه ــ كما يفعل كل مسلم ــ بالصلاة على النبي صلاة مكررة وللتأكيد على تضاعف ترديد هذه الكلمة يربطه بما لا بد من وقوعه إلى يوم القيامة . فيقول شاعرنا هو الآخر :

58 - فصلّى عليك الله ما انسكب الحيا وما سجعت ورقاء في غصن البان(78)

○ ○ ○

(13) مكان قرب مكة .

(14) جبال بمكّة .

# الفصـل الثـالث

## الرثـاء :

تجدر الإشارة إلى أنه فيما بلغنا من شعر ابن زمرك لم يكن للرثاء اهتمام كبير إذ لم نعثر إلا على أربع مرثيات فحسب ونرى لذلك تعليلين الأول هو أنه من المحتمل أن يكون ابن زمرك قد تعرض إلى هذا النوع الشعرى وتوسع فيه إلا أن المؤرخين لم يقفوا عنده ولم يقدروه تقديرا كافيا يسمح لهم برواية كمية متوفرة منه . والثاني وهو في نظرنا الأرجح هو أن ابن زمرك لم يكن ميالا إلى هذا النوع أيعود ذلك إلى قساوة قلبه وعدم حساسية أو إلى الاستهانة بالموت واعتباره حادثا من الحوادث اليومية تعود عليه في مجتمع مضطرب قائم على القوة والعنف ممّا أدى إلى فقدان القيم والمبادىء الخلقية ، وما يثير الانتباه هو أن ابن زمرك في مرثيتين من بين الأربع التي بين أيدينا[15] يبدو لنا منشغلا بالحاضر والمستقبل العاجل أكثر من انشغاله بوفاة من قضى في جواره زمنا يزيد على ثلاثين سنة . وللقارىء أن يتعجب بحق من جعل الغني بالله هاتين القصيدتين طريقا للوصول إلى مدح أبي الحجاج ابنه وخليفته إذ أصبح هذا الأخير هو المعني بالأمر وبإرادته سيسعد شاعرنا أو سيشقى !

ورغم هذا فقراءة هذه القصائد تؤثر في الإنسان وتحرك ساكنه بما تحمله من نغمات حزينة معبرة عن حالة في غاية البؤس ، وجد ابن زمرك نفسه فيها فهو متبصر بمصيره ومتيقن بأنه قد فقد كل ما كان يحظى به بفقد الغني بالله ، فمن الطبيعي إذن أن يبكي ويتحسر عليه ، فالرجاء أن يكتشف القارىء شعرا طريفا بطابع خاص مخالف لما قيل في هذا الموضوع منذ قرون مضت ولكن سرعان ما نلاحظ أنه رغم نوعية العلاقات بين الرجلين ورغم المدة الطويلة التي جمعتهما في السراء والضراء فإن ابن زمرك لم يتخل عن القوانين الموضوعة قبله لنظم مرثية ما فإن كانت العواطف ــ من دون شك ــ صادقة فقد وردت في أسلوب

---

(15) المرثية الرابعة نظمت في حق أبي القاسم الحسني أحد شيوخ ابن زمرك . انظر الديوان رقم 52 .

تقليدي وصور تقليدية ما عدا بعض الفقرات ذات أبيات معدودة .

وإن دراستنا لأغراض الرثاء تبين لنا أن الأغراض التي حللها شاعرنا هي ، تلك التي تعرض لها الشعراء السابقون شرقا وغرباً .

## مظاهر الألم :

• **الدموع** : من أهم الأغراض التي وردت مفصلة عند ابن زمرك الدموع المذرفة وقت إعلان وفاة الغني بالله . وهذه الدموع كثيرة وغزيرة بحيث لا يمكن أن يتحكم فيها فتأتي هكذا دليلا على لوعة شديدة قارسة مقرها قلب الإنسان . ويتبنى ابن زمرك هو ايضا تلك الصورة المعهودة حيث العين غرقى بالدموع والقلب في لظى متسعر . ويقول بدوره :

13 - ولما قضى المولى الإمام محمد تحكم في الناس الأسى والتأسف

14 - فلا جفن إلا مرسل سحب دمعه ولا قلب إلا بالجوى يتلهف(48)

ويلاحظ شاعرنا أنه لا يوجد أحد على البسيطة لم يجهش بالبكاء عندما بلغه هذا النبأ العظيم . وهذا مما لا يتعجب منه ! ألم يكن الغني بالله من أمجد ملوك الأرض والذي لا زالت آثار خيراته باقية جلية :

15 - ويبكيه معمور البسيطة كلها وما ضم من داني البلاد وقاصيها(95)

ويوفق ابن زمرك إلى صورة غير خالية من طرافة ليعبر عن غزارة دموعه وسيلانها المتوالي فيقول :

57 - إن يخلف الأرض الغمام فإنني أسقى الضريح بدمعي المهراق(52)

أيمكن لابن زمرك أن يكف عن البكاء ؟ فاعتقاده أن الألم لا يفارقه ما دام في الحياة وما يستطيع عليه هو التخفيف من حدّته ولا سبيل إلى ذلك إلا بالبكاء . فسيبكي إذن باستمرار ويعبر على هذه الاستمرارية بقوله :

52 - سأبكيه ما دام الحمام مطوقا وما سجعت تبكي الهديل قماريها(95)

• **الطبيعة** : ويلفت ابن زمرك أنظارنا إلى أنه إذا كان من الطبيعي أن يتأثر كلّ إنسان أينما كان بوفاة الغني بالله فينبغي أن نتأمل الطبيعة لنرى أنها قد تأثرت بدورها بهذا الحادث المفجع ، وقد عبرت هي الأخرى عن حزنها وألمها فيجيبها شاعرنا ويعيرها صفات إنسانية فيتأتى له أن يذكر تارة الجبال فيقول :

15 - وقد كادت الدنيا تميد بأهلها    وقد كادت الشم الشوامخ ترجفُ(48)

وتارة الأفلاك فيقول :

16 - وقد كادت الأفلاك ترفض حسرة    وكادت بها الأنوار تخفو وتكسف(48)

وتارة الأرض فيقول :

32 - ستبكيك أرض كنت غيث بلادها    وتبكيك حتى الشهب في كل مشهد(18)

وتارة السحب فيقول :

33 - وتبكي عليك السحب ملء جفونها    بدمع يروّى غلة المجدب الصدى(18)

• **اليأس** : لقد قضى من كان يأنس إليه شاعرنا واجدا الراحة والاطمئنان في جواره فماذا سيكون الآن مصيره وقد أصبح « يتيما » ؟ فإلى من سيبوح بأسراره ؟ وكان ابن زمرك لا يؤمن بهذا الحادث المرهب ، ويود أن ينقطع عنه هذا الصمت العميق المحيط به فينادى سيده لعله يرد عليه ولكن نداءه بقي بدون صدى فيلح من جديد لعله لم يسمع ويحث الغني بالله على الجواب . ويأتي ذلك في أسلوب مستغيث لا يعرف ماذا يفعل لينجو بنفسه . ونجاة ابن زمرك متعلقة بنجاة ملكه وإلى هذا يتوجه هذا القول :

26 - أمولاى يامولاى هل أنت سامعي    أبثك ما يشجي القلوب ويدميها(95)

وللتخفيف من حدة ألمه يأمل ابن زمرك أن يبلغ الغني بالله ما يعانيه من حزن وتحسر عليه كما يأمل أن يبلغه أيضا ما تعانيه رعيته جمعاء رعية لا تريد أن تؤمن بأن المحسن إليها البار بها فارقها بصفة نهائية . وهكذا لعل الغني بالله

يقوم بالمستحيل حسب ما يتمناه شاعرنا إذ يجرؤ على أن يقول :

53 - لو كنت تشهد حزن من خلفته لثنى عنانك كثرة الإشفـاق(52)

ويدعى شاعرنا أن الجميع متفقون على بذل ما في وسعهم من جهد لاستعادة المياه إلى مجراها فيعود الغني بالله إلى الحياة وابن زمرك مستعد على أن يدفع الثمن الأغلى ليساعد على ذلك ويعني بذلك الفداء بالنفس ولكن سرعان ما يلاحظ أن ما يطلبه من تضحيات لا يمكن أن تتحقق فتبقى مجرد أمان فيقول :

22 - أمولاى لو كان الفداء مسوّغا فديناك بالدنيا جميعا وما فيها(95)

وابن زمرك عالم بأن الأماني ليست ناجعة فلم يبق له إلا الأنين والحزن على الحالة التعسة التي آل إليها . وإذا تساءل عماذا ستأتيه به الأيام القادمة إذ هو الآن أمام نقطة استفهام بقي حائرا وهذا ما أداه إلى التأسف على البقاء في الحياة بعد ما فقد من كان عماده ولا سيما إذا ما لاحظ أنه دخل عهد الشيخوخة . ولكن القدر قد شاء غير ذلك .

28 - وقد كان ظني أن تكون جنازتي يشيّعها منك الرضا ويواريها

29 - وقد عشت حتى ذقت فقدك قلما تبلـغ مـا تريـد أمـانيها(95)

وإن ابن زمرك قد اعترف بفشله في محاولته تغيير مسيرة الأمور وأن وفاة الغني بالله لا رجوع فيها فلم يبق له إلا أن يصبر على ما أصيب به مقتنعا بأن الموت لا مفر منه وتلك هي سنة الله في خلقه . فيحاول أن يجد عبرة في ذكر الأجيال السابقة والشخصيات العظام المتوفاة رغم ما كانت تتمتع به من جاه ومال وبنين أقوياء . فيستعمل هو الآخر أمثلة سائرة ليبرهن على ذلك فيقول مثلا :

5 - نقش الزمان بصرفه في صفحه كل اجتماع مـؤذن بفـراقِ

37 - خط الردى منها سطورا نصها لا بـد أنك للفنـاء مـلاقِ(52)

وفي النهاية يذكر ابن زمرك النبي ﷺ خير البشر عند الله ليقتدى به وتكون في وفاته موعظة لمن كانوا يعقلون . فقال :

21 - وفي موت خير الخلق أكبر أسوة ... تصبِّر أحرار النفوس وتسليها(45)

## ذكر الآخرة :

إن ابن زمرك متيقن أن الغني بالله من المقربين عند الله مأواه ـــ لا محالة ـــ الجنة .

33 - فمن مبلغ عنا الغني بربـه ... وقد سار للفردوس يحيا ويتحف(48)

أليس من الطبيعي أن يكون الأمر كذلك ؟ ألم يعمل الغني بالله لآخرته كما أمرنا به الله تعالى . فليتأمل الإنسان كل ما أداه هذا الملك الجليل في سبيل الله من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر . فالرعية بل البشرية جمعاء مدينة له . وسلوكه هذا في الدنيا يبرر قول ابن زمرك في هذا الشأن :

25 - وسافر عن دار الفناء ليجتني ... بما قدم اليوم السعادة في غد

26 - وقام بأمر الله حق قيامـه ... بعزمة لا وانٍ ولا متــردد

27 - لئن سار للرحمن خير مودّع ... وحل من الفردوس أشرف مقعد(18)

ويذكرنا ابن زمرك أن الآجلة أفضل من العاجلة لما وعد الله به المؤمنين من نعم في الجنة . وبما أن الحياة في الدنيا كلها غرور ومصيرها الفناء فيحق للمؤمن أن يتمنى الالتحاق بالباقية في أقرب وقت وهذا ما يؤدى شاعرنا إلى أن يقول بعد وفاة القاضي أبي القاسم :

11 - أنف المقام مع الفناء نزاهة ... فنوى الرحيل إلى مقام باقي

12 - عدم الموافق في مرافقة الدنا ... فثنى الركاب إلى الرفيق الباقي(52)

## الأغراض الزهدية :

إن هذا اللون الشعرى لم يستمل ابن زمرك إذ لم نجد له أثرا فيما بلغنا من شعره إذا ما استثنينا موشحة واحدة نظمت في حق النبي ﷺ وأبياتا معدودة

مشتتة من هنا وهناك . ولعل الأسباب في ذلك هي تلك التي أشرنا إليها عند دراستنا للأغراض الرثائية . وفضلا عنها فإن الحياة المضطربة التي عرفها شاعرنا لم تسمح له أن يخلو بنفسه حتى يتأمل ويتزهّد هذا من جهة ومن جهة أخرى فلقد رأينا في شبابه مدى حرصه لبلوغ غاية كلها مادية ليستمتع بالحياة الدنيا وما فيها فكيف يتأتى له أن يتجنب إراديا ما سعى وراءه سنين طوالاً ، فكان ابن زمرك رجلا ذا طموح شديد محب للسلطة وما تسمح به من مزايا . فيمكننا أن نقول بأن ابن زمرك والزهد كانا على طرفي نقيض . والدليل على ذلك هو أن ما ورد في شعره لا يلفت الأنظار إذ اكتفى فيه بتكرار حقائق معروفة سطحية هي مجرد حشو لا يسمن ولا يغني من جوع مثل الشباب لا يدوم والحياة قصيرة والشيخوخة سرعان ما تفاجيء الإنسان مستخدما لذلك صورا معهودة فيقول مثلا :

2 - وكل من نام بليل الشباب     يوقظه الدهر بصبح المشيب

5 - فالعيش نوم والردى يقظة     والمرء ما بينهما كالخيال

6 - والعمر قد مرّ كمرّ السحاب     والملتقى بالله عما قريب(117)

ويحذرنا بدوره عن الاغترار بالحياة فيقول :

8 - والله ما الكون بما قد حوى     إلّا ظلال توهم الغافلا(117)

ثم ينادينا ابن زمرك إلى أن نتأمل هذه الحقائق الأولية حتى لا نفاجأ في وقت لا يمكن فيه استدراك ما فات ويعترف شاعرنا بأنه لم يتهيأ إذ فاجأه الأوان فيقول متحسرا :

15 - وليتني لو كنت فيما مضى     ادّخر الزاد لطول السفر

ولكن جهلنا عظيم وطبيعتنا ضعيفة بحيث إننا لم نستطع أن نهتدي إلى الطريق المستقيم فأطعنا النفس الأمارة بالسوء فيتأتى له أن يقول في الختام :

10 - إنا إلى الله عبيد الهوى     لم نعرف الحق ولا الباطلا

11 - فكل من يرجو سوى الله خاب     وإنما الفوز لعبد منيب(117)

# الفصـل الرابـع

## الأغـــراض الخمريـــة

إن الأغراض الخمرية ـــ مثل ما كان الأمر بالنسبة للأغراض الزهدية ـــ لم تحظ باهتمام كبير فالأبيات المعدودة التي عثرنا عليها قد وردت في مجموعات شعرية مختلطة بأبيات في الغزل وأخرى في وصف الطبيعة . وليتأتى الكلام عنها فقد رأينا من اللائق أن نستخرجها ونجعلها مستقلة ومرتبة .

وإن نظرة واحدة إلى هذه الأغراض الخمرية تؤدى الباحث إلى الاستسلام بأنه قد أصبح من العسير جدا على أيّ شاعر ألا يقع في تكرار ما قد تعودنا عليه في هذا اللون الشعرى منذ المُبدع الشهير أبي نواس الذى توسع وأجاد في وصف الخمر بحيث إنه لم يترك مجالا لمن تبعه من الشعراء أن يتميزوا عنه حتى يفاجئوا القارىء بنوع من الطرافة . فلم يبق لابن زمرك ـــ مثل غيره ـــ إلا الاقتداء بشاعر الخمريات وهذا ما قد توصلنا إليه . ولعل ابن زمرك كان على دراية من ذلك فكان إنتاجه بهذا الصدد ضئيلا .

وإذا ما تأملنا الأوصاف المرغوب في وجودها في كل خمرة تحتم علينا الإقرار بأن ابن زمرك لم يجدد البتة بل لم يحاول أى تجديد . فعند ذكر الصفة المعهودة التي بدونها لايحق للخمر أن يذكر ألا وهي القدم ، فابن زمرك يستسيغ لنفسه حتى سريقات ويقول بعد أبي نواس :

8 - من عهد كسرى لم يفض ختامها      إذ كان يذخر كنزها فيما ذخر(40)

ومن قال القدم أشار في الوقت نفسه إلى الكبر وإليك هذه الاستعارة التقليدية :

7 - لم يبق منها الدهر إلا صبغة      قد أرعشت في الكأس من ضعف الكبر(40)

ويستمر ابن زمرك هكذا ذاكرا صفات الخمر ولا يفوته أن يشير هو الآخر إلى الاجتماع في الخمرة الجيدة بين الكبر والصغر . وهذا التناقض ما هو إلا تناقض لفظي ويشرح لنا أن الخمر كلما طال الزمن زادت رونقا وجمالا وعذوبة وهذا ما يجعلها مفضلة على المشروبات الأخرى .

ويبدو أن ابن زمرك وقف طويلا عند لون الخمرة فأشار مرارا إلى لمعانها وصفائها فاستعمل لذلك صورا تقليدية :

9 - كانت مذاب التبر فيما قد مضى فأحالها ذوب اللجين لمن نظر(40)

ويقول أيضا :

4 - قم هاتها والجد أزهر باسم شمسا تحل من الزجاجة في قمر(40)

ويذهب به خياله إلى أن يتأتّى له أن يقول :

11 - عادة الشمس بغرب تختلس هـــات شمس الـــــراح(112)

6 - نارية نورية مـن ضوئهـا يقد السراج لنا إذا الليل اعتكر(40)

وإلى جانب ذلك يشير ابن زمرك إلى لون الخمرة فهي تارة مذهبة وتارة حمراء ثم يجمع بينهما في بيت واحد ذى أسلوب رقيق فيقول :

12 - محمرة مصفرة قد أظهـرت خجل المريب يشوبه وجل الحذر(40)

وقد لاحظ شاعرنا مرة أخرى ذلك الصراع الواقع بين الماء والخمر وقت امتزاجهما وقد أطال أبو نواس الكلام في هذا الشأن .

5 - إن شجها بالماء كف مديرها ترميه من شهب الحباب بها شرر(40)

ويطيب لابن زمرك أن يذكرنا بأن الخمرة بعد شرابها لا تفقد مزاياها إذ يظهر لونها على وجنات شاربها . ثم يلتفت إلى الساقي مبينا ما يشترك فيه هذا وتلك من أوصاف خلابة فيقول :

10 - جدّد بها عرس الصبوح فإنها بكر تحييها الكرام مع البكر

11 - وابلل بها ريق الأصيل عشية والشمس من وعد الغروب على خطر(40)

وهكذا يأتي إلى ذكر مزايا الخمرة وإلى ما تتركه في النفس من أثر إذ بفضلها يستطيع شاربها أن ينسى دنياه وما يحيط به من هموم وأحزان فيقول في هذا الشأن :

2 - هـــاتها صاح كئـــوسا جاليـــات للســـــرور(119)

وهذا الشراب العجيب يراد صافيا طاهرا مثل الروح الخالصة وليأتى ذلك يلجأ ابن زمرك إلى استعارة أنيقة فيقول :

13 - أفرغت في جسم الزجاجة روحها فرأيت روح الأنس منها قد بهر(41)

ولا يفوت ابن زمرك أن يشير إلى الندماء وما يمتازون به من خصال معتادة وأخلاق فاضلة مؤكدا على وجوههم الناضرة فيقول :

13 - ووجوه الشّرب تغني عن شموس كلّمـــا تجلّـــى(112)

ولا يطيل ابن زمرك الحديث عن مجالس الأنس وإنما يكتفي ببعض الإشارات من هنا وهناك تنسمح لنا برؤية خاطفة فنلمح الندماء والسقاة كل منهم في دوره :

18 - والكـأس في راحـة السقـاة تــروح طــورا وتغتـــدى

19 - يهديكهـا رائـق السمـــات مــا بين بـــرق وفرقـــد(115)

واهتمام ابن زمرك ألا تفوته لحظة من تلك الأوقات السعيدة فيطلب من الندماء ألا يناموا لأنه كما يقول :

16 - ما زمان الأنس إلا مختلس فاغتنـــم يـــاصاح (102)

فيحثهم قائلا في شبه خلاصة جاءت في موشحة :

8 - قـم فاغتنـم بهجـة النفـوس مـا بين نـوّر وبين نـــور

9 - وشفـع الصبـح بالشمـوس تديرهـــا بيننـــا البـــدور

10 - ونبّـــه الشرب للكئـــوس تمزج مـــن ريقـــه الثغـــور

11 - ما أجمل الراح فـوق راح صفراء كالشمس في الأصيل

12 - تغـــادر الصدر ذا انشراح لـلأنس في طيفـه مقيـــل(111)

# الفصـل الخامـس

## الأغراض الغزلية :

إن الأغراض الغزلية قد حظيت لدى ابن زمرك بقسط متوفر فوردت كاشفة عن شاعر ـــ رغم تمسكه بالقوانين الجمالية المتفق عليها في العالم العربي ـــ أحسن التصرف فيها وبرهن على مدى تفننه في المستوى البلاغي . فتأتى لنا أن نتذوق ـــ مع غض الطرف عما هو مدين به لابن خفاجة الأندلسي وابن ربيعة من تغن وحسن صياغة ـــ إنتاجا رائقا لا يخلو في كثير من الأحيان من طرافة أصيلة . وهذا الجانب من إنتاجه الشعرى لفت نظر النقاد والمؤرخين إذ كلما أرادوا الكلام عنه استشهدوا بهذا اللون من شعره .

ويجوز لنا أن نتساءل عن الأسباب التي دفعت ابن زمرك إلى الإكثار من الغزل ؟ فأبسط جواب يتبادر إلى الذهن هو أن هذا الشعر كان يتلاءم ومزاج ابن زمرك الذى كان ميالا إلى الجمال بدون تمييز بين الجنسين[16] والسبب الثاني هو أن شاعرنا كان يقصد بشعره الخاصة وكان عليه إطرابها وهو أدرى من غيره بأذواقها وقد سبق لنا أن أشرنا إلى الخاصة هذه وحبها للمتعة بجميع ألوانها فالعرض يتوافق مع الطلب فلم يبخل ابن زمرك بفنه في وصفه القيان والجوارى من جهة والغلمان من جهة أخرى .

وإن دراسة هذه الأغراض ستؤدينا ـــ رغبة منا في الوضوح ـــ إلى التمييز بين الوصف العائد إلى جسم الحبيبة أو الحبيب وبين ما نسميه القصة الغرامية وما يتعلق بها من لقاء وفراق وسعادة وشقاء . والجدير بالذكر هو أن الكل جاء في حياء إذ لم يسمح ابن زمرك لنفسه بحديث مبتذل ولا بكلام فاحش يحط من مروءته .

وقبل أن يشرع ابن زمرك في وصف الحبيبة يبدو له من اللائق أن يعرف

---

(16) انظر : ابن خفاجة ، ص 116 .

لنا لفظة الحب . فيأتي تعريفه تكرارا لما مر بنا إلا أنه أجاد في الصياغة بالعثور على طباق ذى أناقة ثابتة :

7 - وما الحب إلا نظرة تبعث الهوى وتعقب ما يعيي الطبيب المداويا
8 - فيا عجبا للعين تمشي طليقة ويصبح من جرائها القلب عانيا(99)

ثم يقدم لنا ابن زمرك حبيبته متأثرا في ذلك إلى حدٍّ بعيد بابن خفاجة في هذا الشأن فيقول :

1 - نفسي الفداء لشادن مهما خطر
2 - فضح الغزالة والأقاحة والقنا مهما تثنّى أو تبسّم أو نظر(41)

ويستحيل على أى إنسان أن يتغافل عن هذا الجمال الباهر إذا ما مرت به هذه الحبيبة ، وابن زمرك هو الأول فقد كاد أن يفقد لبه حينما فوجيء برؤيتها فإعجابه بها أداه إلى سرد استعارات وصور متوالية دالة على اضطرابه وتنفسه اللاهث فأورد كلا منها مسبوقة بحرف النداء فقال :

18 - يامطلـــــع الأنـــــوار كم فيك من مرأى جميـل
19 - ونزهـــــــــة الأبصار ما ضر لو تشفي الغليـل
20 - يـــــاروضة الأزهـــــار وعرفهـــا يبرى العليـــل(106)

وإن كانت هذه الحبيبة متمتعة بهذا الجمال فكيف لا يفتتن كل من ساعده الحظ أن يراها وابن زمرك لا يشك في ذلك إذ يلاحظ قائلا :

16 - تحن وتصبو كل عين لحسنه كأن عيون الناس فيه قلوب(122)

ولا يفوت ابن زمرك كغيره من الشعراء أن يشبه حبيبته بالبدر في كماله . ولكن هذا البدر يتميز بهذه الخاصية حيث يقول مخبرا النوق :

11 - يانـوق بشرى بكـل قصد قـد كان في هـذه الخيـام
12 - بـدر تمام رشيـق قـد لقـاؤه يـذهب السقـام(121)

وإذا كان الأمر هكذا فلا مجال للتعجب عند رؤية أعداد مضعفة من الضحايا المتراكمة فريسة لهذا الجمال القاذف المصيب دائما .

ثم يأتي ابن زمرك إلى التفصيل في وصفه الحبيبة فيعرض علينا أعضاءها مطيلا تارة ومكتفيا بإشارة خاطفة تارة أخرى فيتبين لنا أن ابن زمرك عربي يذوق ما ذاقه العرب منذ القديم .

## الشعر والجبين :

إن ابن زمرك لم يهتم بهذين الغرضين أو يكاد إذ لم نعثر إلا مرتين على الشعر وذلك بطريقة عرضية فنجده في تشبيه مستعملا كمشبه به فيتبين لنا هكذا ذوق شاعرنا . وأما الجبين فلا أثر له . فيقول في وصف الليل مشيرا إلى سواده :

3 - عجبا لليل ذوائب من شعرِهِ      والوجه منه عن صباح قد سفر(41)

## العينان والأشفار والحاجبان :

لقد تعددت هذه الأغراض الثلاثة ضمن مقتطعات اشتملت على أغراض أخرى . ويبدو أن ابن زمرك قد افتتن بجمالها إلا أنه لم يستطع أن يتحرر عن صور تقليدية تتبادر إلى الذهن إذا ورد الكلام في موضوعها . فسنجد بطبيعة الحال كل المشبهات بها المعتمدة على الأسلحة الحادة فالعاشق مصيره أن يصاب بها ويتألم منها وهذا ما يلاحظه ابن زمرك بدوره فيقول :

12 - سهام جفون عن قسي حواجب      يصاب بها قلب البرىء على عمد(24)

وكان ابن زمرك يود ألا يعاني أصدقاؤه من هذه المحنة ، فيخاطبهم محذرا إياهم :

3 - فقلت لجلاسي خذوا الحذر إنما      به وصب من أسهم الغنج والحور(29)

ولعل ابن زمرك قد قاسى هو الآخر من ذلك ورأى أن هناك ظالما لا محالة ومظلوما . وهذه الحالة لا يمكن أن تدوم ولا يجد شاعرنا إلا التوسل بالله القادر على ردع ذلك فيناديه حتى يحد عنه عدوان الحبيبة الظلومة فيقول :

18 - قاتل الله الجفون فإنها      مهما رمت لم تخط شاكلة الرمي(75)

ولكن سرعان ما يتراجع ويندم على هذا القول ، قول لا يعبر عن إحساسه وشعوره البتة ، فيحاول أن يقنعنا بأنه مخطيء والدليل على ذلك هو أن الحبيبة ليست مسؤولة عمّا يفعله بصرها في قلب عاشقها . وهو مستعد لقبول هذا الوضع والرضى به عن طيب خاطر فيقول ليبرىء تماما حبيبته :

20 - ياظبية ........................

22 - فرأيت جسما قد أصيب فؤاده من مقلتيك وأنت لم تتأثمي(75)

فلا مجال إذن إلى التشكي من الحبيبة وإنما على العاشق أن يحاول الوصول إلى غايته ولذلك فعليه أن يبقى آملا دائما في نيل رضى الحبيبة إذ هي التي تتحكم في الأمور :

21 - ما ضر إذ أرسلت نظرة فاتك أو لو عطفت بنظرة المترحم(75)

ثم يتباطأ ابن زمرك في ذكر العين الواسعة الحوراء للتأكيد على سواد إنسانها ولمعانه . فيقول على سبيل المثال :

10 - وكم صارم قد سلّ من لحظ أحور وكم ذابل قد هزّ من ناعم القد(24)

ويطيب له أن يذكر مرارا ما في العين من سحر يزيد الحبيبة تشوقا إليها وإذا ما رأى شاعرنا هذه العين وقد اغرورقت بالدموع فيزيد افتتانه بها فيقول :

14 - ونرجس لحظ أرسل الدمع لؤلؤا فرش بماء الورد روضا من الورد(24)

## الوجنة والعذار :

لم يخصص ابن زمرك إلا أبياتا معدودة لذكر هذين الغرضين . وأكثر الأبيات قد وردت في الوجنة . وما لفت نظر شاعرنا هو نضارتها ويناعتها مع اللون الوردى الذى يعلوها فجاءت التشبيهات كلها مقتبسة أساسا من طبيعة غنّاء بما فيها من جنان وثمار عذبة وأزهار فائحة . فيقول مثلا :

13 - وروض جمال ضاع عرف نسيمه وما ضاع غير الورد في صفحة الخد(24)

وهذه الوجنة الناعمة المشرقة قد سقتها الدموع المذرفة فكانت مثل تلك

التفاحة المشبعة ماء طيبا . ويرى ابن زمرك أن أثرها على الناظر شديد فيلاحظ متأسفا :

6 - تقتل العشاق بالحمر الخدود والعـــذراء السنـــدسي(124)

ورؤية حمرة الوجنة تؤدى شاعرنا إلى الإشارة إلى الدم . ويحاول استفسار ما جعل هذا الخد داميا فيعلل ذلك بقوله :

4 - وياوجنة قد جاورت سيف لحظه ومن شأنها تدمى من اللمح والبصر(29)

ولكن سرعان ما يبدو له هذا التعليل غير مقنع فيستدرك قوله :

5 - تخيل للعينين جرحــا وإنما بدا كلف منه على صفحة القمر(24)

وأما العذار فقد ورد هو الآخر مرارا عند ابن زمرك لاستحسان وجوده على خد الحبيبة . ويبقى شاعرنا هنا أيضا متمسكا بالصور التقليدية ولا يبذل أية محاولة للإتيان بالجديد . فيقول على سبيل المثال :

15 - قد خط نون عذاره في خده قلمان من آس هناك ومن شعر(40)

## الثغر والشفتان والأسنان :

لم يقف ابن زمرك طويلا عند هذه الأغراض الثلاثة والإشارة إلى كل منها تنحصر في مقتطعات بين أغراض أخرى حيث اكتفى شاعرنا هنا أيضا بتكرار صور تقليدية معهودة وهكذا تذكر تارة الأزهار أو الدرر ، فقال :

51 - لا سيما لما رأى من ثغره زهرا وابن الزهر من تلك الدرر(40)

وتارة عقدا من الجواهر فتأتى له طباق رائق فقال :

4 - عجبا لعقد الثغر منه منظما والعقد من دمعي عليه قد انتثر(41)

وإن ابن زمرك لا يتمالك عند رؤية ثغر عذب شيق فلا يسكن له ساكن إلا إذا توصل إليه وتمتع به ولكن كم يلاقي من صعوبات في طريقه . وها إلى ما يتعرض إليه كلما أراد أن ينال ما ترتاح إليه نفسه :

5 - ما رمت أن أجني الأقاح بثغره إلا وقد سل السيوف من الحور(41)

ويخبرنا شاعرنا أن محاولاته لم تكن دائما فاشلة فلقد ساعده الحظ أحيانا فنال ما كان يتشوق إليه ويالها من سعادة آنذاك :

1- لله ما أجمل روض الشباب     من قبل أن يفتح زهر المشيب
2- في عهده أدرت كأس الرضاب     حبابها الدر بثغر الحبيب(118)

ويذكر شاعرنا أن ذاك الثغر كان معطرا ويجد ما يفسر ذلك فيقول :

5- وما زال ورد الخد وهو مضعف     يعير أقاحي الثغر طيب تنفس(42)

**المحيا :**

إن ابن زمرك قد افتتن بمحيا الحبيبة لبهائه فاستسلم لسحره وهذا ما يبين لنا مدى اهتمام الشاعر بهذا الغرض ، إذ خصص له أبياتا عديدة أشار فيها إلى لمعانه وبياضه وإلى ما يدل على الصحة الجيدة لصاحبه وصفاء ضميره وإخلاص سريرته فاستمد شاعرنا من طبيعة غناء كل ما ساعده على إبراز هذه الصفات فيوصينا ألا نطيل النظر إليه حتى لا يبهرنا ضياؤه . فيأتي هكذا إلى ذكر الشمس الساطعة تارة فيقول :

27- ووجهك الشمس في اتّضاح     لـو أنها لم تكـن تميـل(111)

وإن محيا الحبيبة يفوق الشمس . فإذا كانت هذه تميل إلى الغروب وتختفي عن الأبصار فالأمر ليس كذلك بالنسبة لهذا المحيا وهذا ما يؤدى شاعرنا إلى أن يقول :

6- أبصرت منه إذ يحط النقاب     شمسا ولكن ما لها من مغيب(118)

ثم إلى ذكر البدر في كماله تارة أخرى :

3- من كل من يخجل بدر التمام     مهما تبدى وجهه للعيـون(118)

والمطابقة بين الوجه وشعر الحبيبة تسمح لابن زمرك بهذه الاستعارة :

............................     وأطلع في ليل من الشعر آية
محيّا جميلا بالصباح قد ارتدى     (103)

ويتخيل لابن زمرك أن حبيبته واثقة بجمالها وهذا ما يجعلها مطمئنة مرتاحة فلننظر إليها وسط قريناتها وما هو سلوكها معهن :

26 - أصبحت تزهـد على الملاح بـــذلك المنظـــر الجميــــل(111)

## الجسد والقد :

لقد خصص ابن زمرك عددا معتبرا من الأبيات لذكر هذا الغرض مشيرا إلى جميع الصفات المرغوب فيها عادة وهكذا يأتي شاعرنا هو الآخر إلى التعبير عن إعجابه بالنعومة البالغة لجسم حبيبته جسم سعد بلمسه فصاح طربا :

3 - ليس في العرب ولا في العجم مثلــــــــــه رطب الجسد(124)

ومن المعلوم أن الميزة الأولى لكل قامة هي الرشاقة والليونة وهذا ما يذكر كل شاعر بغصن البان بحيث لا مجال إلى المفاجأة إلا أن ابن زمرك وفق في هذا الشأن إلى استعارة بليغة :

23 - ياغصن بان يميـل زهــوا ريّـان في روضة الشبـــاب(107)

ورغم إعجابه المفرط بقامة الحبيبة وتشوقه الشديد إليها فلا يجد إليها السبيل فتتصاعد من صدره زفرة فيقول :

26 - وغصن بـــان إذا تثنــــى لوحان من زهرك القطـاف(111)

ولتبقى هذه الغصون لشجر البان غضة الأفنان فلا بد لها أن تسقى دائما ولكن بمياه ليست تلك التي نفكر فيها إذا ما اطلعنا على ما ورد في البيت التالي :

21 - قضيـــــبك الفينـــــــان يسقـــــى بدمــــــع همر(106)

وهذه ــ بطبيعة الحال ــ مزية تختص بها قامة الحبيبة فيصبح هناك تباين بين غصن شجرة وهذه القامة فيبدو لابن زمرك أن التشبيه الذى أورده تشبيه مزيف غير مقبول فيذهب إلى هذه الاستعارة ليعبر عن ذلك فيقول :

4 - ويفضح الغصن بلين القوام وأين منه لين قد الـغصون(118)

فيرى ابن زمرك نفسه عرضة لهذا الجمال الساحر المستولي عليه فيبقى حائرا متسائلا :

24 - ومالت بقلبي مائلات قدودها فما للقدود المائلات وماليـا(99)

وأما التشبيه الثاني الذى استعمله ابن زمرك فهو الرمح المصقول إلا أننا لم نعثر عليه إلاّ في صورتين خاليتين من كل فائدة لكثرة تداولهما[17] والجدير بالذكر هو ماتوصل إليه شاعرنا بجمعه بين القامة والنظر وما يشتركان فيه فوفق إلى صورة غير معهودة إذ قال :

21 - يفتكن من قاماتها ولحاظهـا وبالمشرفيـة والقنـا الخطــار(39)

## الأصابع والنهود :

لم يشر ابن زمرك إلى هذين الغرضين إلا مرتين فقط وما لفت نظره هي رقة هذه الإصبع ونعومتها .

60 - باحت أناملك اللدان بكل ما كان المتيم في هواه قد ستر(40)

وأما ثدي الحبيبة فقد شبهه شاعرنا بما تعودنا عليه حيث قال :

7 - وبصدرك جزت رمان النهود قامـــوا تحت الأطــــلسي(124)

## صـوت الحبيبـة :

إن ابن زمرك حسب ما يبدو كان يتأثر إلى حد بعيد بصوت حبيبته لما يجد فيه من موسيقى عذبة ورخامة شيقة يكاد يفقد لبه لها فلا حاجة إلى الوقوف عند التشبيه بالبلبل[18] وذلك لما عثرنا عليه في مقطوعة ممتازة طريفة وفق فيها شاعرنا مبرهنا ــ إذا ما اقتضى الأمر ــ على براعة جعلته يعد من كبار الشعراء بحق . وذلك بوصفه لنا مشهدا يتجلى لنا فيه ابن زمرك مستمعا قينة تغني

---

(17) انظر الديوان : رقم 24 بيت 10 .

(18) انظر الديوان : رقم 128 بيت 10 .

مستعينة بعودها في تناسق وانسجام أثار دهشة المجتمعين في مجلس أنسهم . ويطيب لنا أن نروي هنا أبياتا :

48 - والعود في كف النديم بسرّ ما تلقى لنا منه الأنامل قد جهرْ
49 - غنى عليه الطير وهو بدوحه والآن غنى فوقه ظبي أغرْ
50 - عود ثوى حجر القضيب رعى له أيام كانا في الرياض مع الشجرْ

.................................................................................................

53 - يسبي القلوب بلفظه وبلحظه وافتنتي بين التكلم والنظرْ
54 - قد قيدته لأنسنا أوتاره كالظبي قيد في الكناس إذا نفرْ
55 - لم يبل قلبي قبل سمع غنائه بمعذر سلب العقول وما اعتذرْ
56 - جس القلوب بجسه أوتاره حتى كأن قلوبنا بين الوترْ
57 - نمت لنا ألحانه بجميع ما قد أودعت فيه القلوب من الفكرْ
58 - ياصامتا والعود تحت بنانه يغنيك نطق الخبر فيه عن الخبرْ
59 - أغنى غناؤك عن مدامك ياترى هل من لحاظك أم بنانك ذا السكر(40)

## سعادة عاجلة :

إن ابن زمرك كغيره من الشعراء العرب يشير بحياء إلى اللحظات التي سعد فيها بلقاء حبيبته فلا يطيل الكلام فيما جرى بينه وبينها في تلك الأوقات التي انتظرها بفارغ الصبر فلا يريد أن يشاركه فيها أحد حتى يتمتع بها وحده بأكملها ولكن سرعان ما يحذر الشاعر قارئه حتى لا يستنتج هذا الأخير من خلال بعض التصريحات ما لا تسمح به كرامة الإنسان ، ولا ينسى أن أحسن الشعر أكذبه . وبالفعل فإن ابن زمرك قد تجنب الكلام الفاحش وامتثل لما نهى عنه الله تعالى فصرح مرارا أنه رجل عفيف بأتم معنى الكلمة فقال :

11 - خلوتُ بمن أهواه من غير رِقْبَة ولكن عفافي لم أكن عنه خاليا(99)

وإذا تأتى لابن زمرك أن يحب من لا يحلُّ له ـــ وهذا أمر محتمل ـــ في مجتمع اتسم بشيوع اللذة والمتعة ولا سيما في الخاصة التي كان ينتمي إليها فلم

يرض لنفسه بما حرمه الله عليه فكان حبه حبا عذريا كما صرح به قائلا :

16 - وأذكرني ثغرا ظمئت لورده ولاوالهوى العذري ما كنت ناسيا(99)

ويبقى لنا أن نتساءل كيف يمكن التوفيق بين هذه السيرة المحمودة وبين ما أورده ابن الخطيب إذ أخبرنا هذا الأخير بأن شاعرنا كان مولعا بشاب اسمه موسى . فما يتبادر إلى الذهن ـــ إن صح ذلك ـــ هو أن ابن زمرك ـــ رغم إرادته ـــ وقع في شبكة الحب . والعجيب أنه أتاح لنا أن نقرأ أبياتا شعرية رائعة في الغزل من الصعب أن نقتنع بقوله إنه ثمرة خياله . ولنذكر بعضا منها على سبيل المثال :

18 - وليلة بات البدر فيها مضاجعي وباتت عيون الشُّهْبِ نحوى روائيا

19 - كرعت بها بين العذيبن وبارقٍ بمورد ثغر بات بالدرّ حاليا

20 - رشفت بها شهد الرُّضاب سلافةً وقبّلت في ماء النعيم الأقاحيا

21 - فيا برد ذاك الثغر روّيت غلّتي ويا حرّ أنفاسي أذبت فؤاديا

23 - وقد بت أسقى وردة الخد أدمعي فأصبح فيها نرجس اللحظ ذاويا(99)

وإن الصعوبات التي يجدها العاشق في الطريق الموصل إلى الحبيبة تجعل اللقاء بهذه الأخيرة أمرا نادرا وبالتالي عذبا ولذيذا . فليس من الغريب أن يرى العاشق هذه اللحظة التي يجتمع فيها بمعشوقته من أغلى الأوقات في حياته وتكون من الذكريات الخالدة . ويسوّغ ابن زمرك لنفسه أن يقول بعد ليلة قضاها مع حبيبته :

4 - وليـل الهوى على الهيمــان أحسن من ليـل الشبــاب(120)

ثم يصرح بما هو ألذّ لديه من كل شيء فيقول بدون تردد :

5 - وما ماء ذاك الثغر يُفدى غالي بماء شبـابي واقتبـال زمــاني(م79)

وليعتبر العاشق الذى يتذوّق من حلاوة اللقاء بالحبيبة وإن طالت مدة الانتظار أنه من السعداء المحظوظين ولتأمل العدد العديد من الذين لم يروا لانتظارهم نهاية والسنون متوالية إلى أن يفقدوا كل أمل . وتأتى لابن زمرك أن يعيش محنة

منغمسا في أحلام طائلة فيحاول التسلي مؤاخذا نفسه قائلا :

2 - وقد كنت أرجو الوصل نيل غنيمة فحسبيَ منه اليوم نيل أمانِ
3 - أطعت هوى طرفي لحتفي لو انني عضضتُ جفوني ما غضضت بناني(م 79)

ولكن ابن زمرك لا يستطيع أن يتسلى إذ رغبته في حبيبته شديدة جدا فهو مستعد إلى بذل كل ما يملكه للوصول إلى غايته :

4 - ولو أن عمرى عُمْرُ نُوحٍ لبِعْتُهُ بساعةِ وصلٍ منك قلتُ كفاني(م 79)

وكأن ابن زمرك أصيب بجنون فيحاول تعليل سلوكه هذا وأى تعليل ياترى ؟ فهو ضحية حب طاغ هيمن عليه وأخضعه خضوع العبيد . فلا يجد شاعرنا سبيلا للتخلص من ذلك فنراه يتساءل حائرا عن مصيره فيقول :

7 - خررت لذكراه على البعد ساجدا فإن لاح من قربي فكيف تراني(م 79)

ورغم هذا كله فالحب من أعذب ما يوجد في الدنيا غير أن ابن زمرك يتمنى أن ليته استولى على القلب بهدوءٍ وسكينة . فقال متأسفا :

9 - وياطيب سكر الحب لولا جنونُه فمن لذة النشوان سخف المعربدِ(م 24)

ويلاحظ ابن زمرك أن الحبّ والخمرة يشتركان في خاصية وهي أن كلا منهما يسكر الإنسان وينسيه مدة من الزمان تعاسة حياته اليومية مع ما تتضمنه من هموم وأحزان . ولكن الفرق بينهما هو أن الخمرة حرام . وأما الحب فحلال فلا لوم إذن على من اختمر بالحب فيتأتى لابن زمرك أن يقوم بهذه المقارنة وذلك برفع الستار عن مجلس أنس حتى نشاهد ما يجرى به فيقول :

20 - يدير من ثغره الشنيب سلافة دونها العقار
21 - حلت لأهل الهوى وجلّت بالذكر والوهم تسكر
22 - كم من نفوس بها تسلّت فما لها الدهر منكر(107)

ومن المعلوم أنه يستحيل أن يخلو مجلس أنس من الخمرة المعطرة ومن يديرها من ساق وساقية يتغزل بهما الحاضرون ولا تكون النشوة كاملة إلا بهما معا . فيشير ابن زمرك بسرعة إلى الندماء في اجتماعهم وها كيف يصورهم لنا .

17 - سكر الندامى من يديه ، ولَحْظُه     متعاقبٌ مهما سَقَى وإذا. نظرْ(40)

## آلام العاشق :

لقد اهتم الشعراء العرب اهتماما بليغا بما يعانيه العاشق من آلام قاسية من جراء تعلقه بحبيبة لا محالة صعبة المنال . وابن زمرك لم يتخلف عن ذلك إذ جاء هذا الغرض مفصلا في ديوانه وسنكتشف معه كل المراحل التي يمر بها من كان ضحية الحب وما ينجم عنها عادة من صور تقليدية معهودة إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن ابن زمرك وجد أحيانا نغمات جديدة أكسبت شعره نوعا من الطرافة تستميل القارىء ويطرب لها .

وما يلفت النظر هو أن ابن زمرك عند شعوره بالحب متسربا إلى قلبه لا يبدى قلقا ولا حيرة وإنما يبقى هادئا متبصرا لعلمه — على طريق السماع — بما سيكابده في هذا المجال . فيقول متجلدا :

7 - عرفتُ بهذا الحب لم أدْرِ سلوةً     وأنّى لمسلوب الفؤاد بسلوانِ(78)

ولكن عندما يشتد ألمه ويتغلب عليه فلا يجد بدا من التشكي مثيرا الاضطراب بين أقاربه الذين يسرعون إلى استدعاء طبيب لمعالجته . ولكن ابن زمرك متيقن أن هذا الطبيب لا ينفعه في شيء لسبب بسيط وهو أن علته لا يعرفها أحد غيره . والطبيب مهما كانت مهارته لا يهتدى إليها إذا لم يدل عليها فشاعرنا هو طبيب نفسه عالم بالداء والدواء فيقول :

10 - شكوت فجاءوا بالطبيب وإنما     طبيبي سقام في لواحظ مبعدى(م 24)

وإن ابن زمرك قد هيمن على نفسه وتحكم فيها فصبر صبرا جميلا ليقينه أنه سيأتي يوم تشفق فيه حبيبته عليه فينال رضاها وبالتالي يشفى من بلائه . فلا حاجة إذن إلى التمرد والسخط على الدهر فيقول بكل هدوء :

4 - أَلِفْتُ الهوى حتى أنِسْتُ بجورِهِ     فكل عذاب نالني في الهوى عذْبُ

5 - وقلت لجسمي إنه ثوبُكَ الضَّنى     وقلت لقلبي إنه إلفك الحبُّ(3)

وإن ابن زمرك لخبرته بما سيتعرض إليه المرء من محن مضنية تنغص عليه الحياة يود أن يحذر أصدقاءه من عواقب الحب حتى لا يقعوا فيما لا تحمد عقباه . وليتوصل إلى ذلك يقول مقتديا بابن أبي ربيعة في أسلوبه :

23 - ولما تراءى السرب قلت لصاحبي وأيقنت أن الحب ما عشت دائيا

24 - حذارك من سقم الجفون فإنه سيعدى بما يعيي الطبيب المداويا(98)

وحتى لا يتردد أى أحد في صحة قوله يدعو ابن زمرك صاحبه ليتأمل مصيره . ألم يعان شاعرنا ما لا يطاق ؟ إذ أصبح لعبة تتقاذفها الظروف وهو القائل :

1 - قيادى قد تملكه الغرامُ ووجدى لا يطاق ولا يُرامُ(72)

وتجبر الحب وطغيانه يؤدى ابن زمرك إلى الشعور بالظلم والجور فيلاحظ بمرارة :

17 - ما أشقى مثلي بلا ذنب يصلى بنار حاميه(120)

ويتساءل شاعرنا في حيرة عن هذه المعاملة الشنيعة فلا يجد ما يبررها اللهم إلا إذا أعاد ذلك إلى طبيعة الإنسان . فيقول :

25 - فما بالُ سلطانِ الجمالِ قد اعتدى

26 - تحكَّمَ منا في نفوسٍ ضعيفةِ وسلَّ سيوفاً من جفونٍ نحيفةِ(103)

## مظاهر العذاب

• **الدموع** : إن كل عاشق محروم من حبيبته يشعر لا محالة بالحرج وضيق الصدر فيفضل الصمت والانعزال وليفرج عن نفسه ويخفف من همه وغمه يلجأ إلى البكاء فتذرف عيناه دموعا غزيرة حارة مع تنفس الصعداء . ولقد أشار ابن زمرك مرارا إلى دموعه الهاطلة مكثرا من الاستعارات للتعبير عن قساوة ما يتألم منه فيقول مثلا :

2 - ودمعي دونه صوب العوادى وشجوى فوق ما يشدو الحمام(72)

وإذ ما تصادف أن خرج من عزلته ولمح من بعيد حبيبته زادت نيران قلبه التهابا . فابتسامة هذه الأخيرة قد دفعته إلى العثور على هذا الطباق المفاجيء حين يقول :

15 - تبسم فاستبكى جفوني عبرة    ملأت بدر الدمع منها رديئا(99)

ويقضى ابن زمرك معظم أوقاته في ذكر حبيبته وهذا ليس من شأنه أن يوقف دموعه ولكن الدموع هذه ليست عادية فيثبت لنا شاعرنا نوعيتها معللا ذلك بقوله :

4 - ذكرك الأعطر يكيني دما    ربّ مسك بشذاه أرعفا(51)

ثم يأتي ابن زمرك إلى ما هو متداول بين شعراء الغزل وأعني تلك المقارنة بين العين الغارقة في دموعها والقلب المتسعر في لظاه . والغريب أن هذين الضدين يشتركان في أصل واحد كما يصرح به شاعرنا قائلا :

9 - أبكي وما غير النجيع مدامعي    أذكي ولا ضرم سوى أحشائي(1)

ويستعمل ابن زمرك كلمة « الكبد » ويجعل منها مقر الحب بصفة عامة . والجدير بالذكر هنا هو أن هذه الكلمة لا زالت مستعملة إلى يومنا في اللهجات الشعبية للتعبير عن حب الأم لأبنائها . وينفرد شاعرنا — فيما نعلمه — بالمقابلة بين الكبد والفؤاد فيقول :

5 - ولي كبد تندى إذا ما ذكرتم    وقلب بنيران الهوى يتضرم(71)

والعاشق عالم أنه قادر على الإمساك عن البكاء كما هو قادر على استعادة قواه كلها وذلك بمجرد اقتراب الحبيبة منه مع إبداء رضاها عنه وتتأتى لابن زمرك صورة بليغة للتعبير عن ذلك فيقول :

9 - لو كان لِلصَّبِّ ما تمنى    لطار شوقاً بلا جناح(108)

● **الأرق** : إن الأرق من الأغراض التي حظيت باهتمام كبير لدى الشعراء فجاء مفصلا عرضا وطولا في إنتاجهم الغزلي . وإنه لمن المسلم به أن انشغال البال والاضطراب وضيق الصدر لا تسمح للمصاب بها أن يغمض جفونه ويذوق راحة النوم وإذا بقي العاشق ساهرا هامت به أفكاره حول مصيره فيغلب عليه التشاؤم ، تشاؤم تزيده حدة تلك الوحدة التي تساوره في أعماق الليالي المظلمة الصامتة وقد عانى ابن زمرك من ذلك ما عاناه غيره وفضل أن ينطوى على همومه بحيث إنه لم يعتن بالقال والقيل وترك لائميه بدون جواب لاهتمامهم بما لا يعلمون . فيشير إليهم قائلا :

12 - ولي على النـــوم شاغــــل    ألـــيس تـــدرى العــــواذل

13 - إن نصائـــــح العــــــذول    ريح لنــــــا والبلابــــــــل(122)

ولكن ما يهم ابن زمرك هو أن تعْلَمَ حبيبته ما حدث له من أجلها لعلها تحن عليه فتبث في قلبه أملا . وإليها يتوجه قائلا بكل بساطة وتواضع :

10 - لــــيلي علـــيك نهارى    وبالسهــــــاد أبـــــيت(122)

ولكن هذه الحبيبة التائهة المترفّعة عنه تتجاهل ما آل إليه من يعشقها . فيريد ابن زمرك أن يستلفت نظرها شاكيا فيكثر من الاستعارات الشديدة الوقع على الآذان للتعبير عن مدى ألمه وحزنه فيقول :

11 - مفتـــرش شوك القتــــاد    مسرّد الدمع مأسور الفـؤاد(122)

ويود شاعرنا أن يجد أنيسا يبوح إليه بأسراره حتي يخفف من غمه وعزلته ولكن مع الأسف لم يوفق إلى ذلك فينتبه إلى الطبيعة الصامتة فيبدو له أن النجوم ساهرة معه ومرافقة إياه دائما فيتسلى بها شيئا ما فيلاحظ قائلا :

7 - أراعي نجوم الأفق في الليل مادحا    وأقرب من عينيّ للنوم أنجم(122)

ويجد ابن زمرك راحة في رؤية النجوم في السماء إذ استطاع أن يخاطبها متخيلا أنه ليس وحده وأن هناك من يعينه على حمل عبئه الثقيل عبء كل عاشق خاب

في سعيه فالمفيد أن يجد في ذلك عبرة فيقول :

29- أسامر النجم فيك حتـى علّـمت أجفانـه السهـاد(107)

ولكن هذا لا ينسيه الحبيبة فلا يخلو منها باله وكل ما توصل إليه هو التغافل عن صورتها ولكن سرعان ما تعود نصب عينيه فيراها نائمة هادئة في فراشها مرتاحة غير مبالية بمن يتنفس الصعداء من ورائها . والجدير بالذكر هو أن ابن زمرك في المقارنة بينه وبينها لا يسخط عليها ولا يلومها رغم أنها هي المسؤولة الوحيدة عن حالته التعسة ، فيتأتى له أن يقول في شأنها عن طيب خاطر موفقا إلى هذا الطباق الشيق :

8- وعذب بالي نعّم الله بالـه وسهّدني لا ذاق بلوى التسهُّدِ(م 24)

ولو شاء القدر أن تعلم الحبيبة بما أصيب به عاشقها ، وبما يكابده من أرق في سبيلها ، لخشي عليها ولا يريد أن تتأسف عليه حتى تشعر بما يكدر خاطرها فيرى أن يطمئنها قائلا :

24- فهل عندليلى نعّم الله لَيْلَهَا بأن جفوني ما تملُّ من السُّهْدِ(م 24)

• **نحـول الجسـم** : إن هذا الغرض لا يقل أهمية عن الغرض السابق إلا أنه لم يأت مفصلا مثله فيما بلغنا من شعر ابن زمرك . وإن المصاب بالحبّ كما ذكرناه يقاسي من عدم النوم فلا يستطيع أن يستريح وهذا ما ينهك قوى الإنسان حتى يظهر وكأنه مريض يعاني من داء يؤدى به لا محالة إلى الفناء ولكن ابن زمرك يريد أن يكون واقعيا فيحاول أن يجد تعليلا مرضيا وذلك برفض أية علاقة بين حبه ومرضه فيقول :

9- كساني الهوى ثوب السقام وإنه متى صح حب المرء لا شيء يسقم(71)

لأن هذا الهوى قد أراده ، ولم يفرضه عليه أحد ، فأصبح قطعة منه فلم يفكر البتة في التخلص منه ويعتبر نفسه من المحظوظين فيتأتى له أن يقارن بينه وبين محبوبه في بيت ذي صياغة رائقة إذ يقول :

4- وإني لثوب السقم أُجدر لابس وموسى لثوب الخز أملح مرتد(م 24)

ولكن سرعان ما ينتبه شاعرنا إلى نحول جسمه ويعتبر أنه في خطر ولعله على وشك الهلاك فيأخذ عن ابن خفاجة هذه الاستعارة الرائعة ليناجينا قائلا :

2- لست في دمعي غريقـا إنما جسدى خف ضنـاء وطفـا(51)

## الخضـــوع إلـــى الحبيبـــة :

إن المحب يشعر بالسعادة ضمن آلامه ولو خيّر بين إزالة عاطفة الحب وبالتالي إزالة العذاب والتشكي المرير وبين المحافظة عليها ، فلا سبيل إلى التردد في ذلك إذ كل إنسان يود أن يتسرب إلى قلبه الهوى راضيا بكل ما ينجرّ عن ذلك من سلبيات ، وفضلا عن ذلك فهو مستعد لتقديم كل التضحيات ليستطيع أن يتذوق حلاوته وهذا ما يؤدى إلى الملاحظة بأن الشقاء يكون باعثا على السعادة وهذا ما يقوله ابن زمرك محاولا أن يقتنع ويقنع من يستمع إليه :

1- نعيمي في الوجد أن تشقى ... بالوجـــد نـــفسي الفانيـــة
2- وموتي مـــن لحظك المصيب ... هـــي الحيـــاة الباقيـــة
3- هويت مـــن هـــوى الغـــزلان ... مستعـــذب فيهم العـــذاب

إلى أن يقول :

8- فـؤادى رهين لـذا الوجـــد ... هكـــذا عليـــه قـــــدرا(120)

ولا يخفى عن كل محب أن أفضل سبيل يوصله إلى فؤاد الحبيبة ونيل رضاها يتمثل في إظهار الخضوع لها والاستسلام طوعا إلى ما تريده . ولذا نرى شاعرنا مستعدا ـــ مهما كانت الظروف ـــ للقيام بجميع ما يطلب منه . والمتعود عليه هو أن الحبيبة عند شعورها بقوتها يخامرها الاستعطاف فترضى بتوجيه نظرها إلى من يتضرع إليها ويسترحمها فيقر ابن زمرك بهذه المعاملة ويقول بكل تواضع :

1- خضعت وأمرك الأمر المطاعُ ... وذاع السر وانكشف القناعُ
2- وهل يخفى لذى وجدٍ حديثٌ ... أتخفى النـار يحملها اليفـاعُ(م 46)

ويلاحظ ابن زمرك أنه في النهاية فريسة بين أيدى الحبيبة فلها الحرية أن تفعل به ما تشاء إذ لا دخل له في تسيير الأمور والنتيجة سواء كانت حسنة أم سيئة بيدها فلتتكلم ولتحكم فهو راض بما ستقرره وها هو يقول في أبيات مفعمة بصور غلب فيها استعمال الطباق :

1 - رضيت بما تقضي علي وتحكم    أهان فأقضي أم أعز فأكرمُ
2 - إذ كان قلبي في يديك قيادُهُ    فمالي عليه في الهوى أتحكّمُ
3 - على أن روحي في يديك بقاؤها    بوصلك تحيي أو بهجرك تعدمُ
4 - وأنت إلى المشتاق نار وجَنَّةٌ    ببعدك يشقى أو بقربك ينعمُ(71)

وليعلم كل سامع أنه رغم مقامه مقام العبد الوضيع فلا يود أن تغير وضعيته :

3 - إذا ما الوجد لم يبرح فؤادى    على الدنيا وسكـانها السلامُ(72)

## الوفــاء للحبيبـة

إن هذا الغرض ـــ وإن كان يعتبر من أهم الأغراض في الغزل ـــ لم يحظ ـــ فيما بلغنا من شعر ابن زمرك ـــ بقسط وافر . ومهما كان الأمر فإنه يتجلى لنا من خلال المقطوعات المعدودة التي لدينا أن ابن زمرك لم يتهاون البتة فيه ، وقد صرح مرارا بمدى تعلقه به إذ من المستحيل أن يتأتى حب بدونه فانشغال البال بالحبيبة قد جعل شاعرنا عاجزا عن الاهتمام بغير ما يضمره لها من هوى فتان . ولو حاول أحد أن يصدّه عن حبه هذا ملاحظا أنه يسير به في طريق الهلاك ، لما استطاع إلى ذلك سبيلا وأكثر من ذلك فإنه يتعرض للتوبيخ والكلام القبيح . وبالفعل فإن ابن زمرك يحمل بعنف على كل من أدته جرأته إلى تقديم نصائح الغاية منها إبعاده عن هذه الحبيبة فإلى هذا المغفل يوجه شاعرنا هذا البيت :

5 - ومن يطع الألحاظ في شرعةِ الهوى    فلا بد أن يعصِي نصيحاً ولا حيا(99)

وإلى صديقيه يوجه هذا النداء حتى يكفّا عنه بصفة نهائية ويتركاه ومصيره فيقول :

8 - فياصاحبي نجواى والحب غاية    فمن لبق جلّى مداه ومن واني
9 - وراءكما ما اللوم يثني مقادتي    فإني عن شأنِ الملامةِ في شانِ
11 - ولازلت أرعى العهد فيمن يضيعه    وأذكر إلفي ما حييت وينساني(78)

ومن لم يفهمه فليبق بعيدا عنه إذ المهم أن تدرك الحبيبة ذلك فهي الوحيدة التي يود شاعرنا أن يقنعها حتى تؤمن به وتصدقه ولبلوغ هذه الغاية فهو مستعد أن يقدم لها كل ما تطلبه منه كما هو مستعد للتضحية بما هو أعز عليه في الحياة ليبرهن لها على صحة أقواله . والغاية من ذلك بطبيعة الحال هي أن ترضى به الحبيبة وتجيبه عن حبه إياها بحبها إياه وها هو يقول في هذا الصدد :

16 - ولو كان لي نفس تخونك في الهوى     لفارقتها طوعا وما كنت أندمُ

17 - وأترك أهلي في رضاك إلى الأسى     وأسلم نفسي في يديك وأسلمُ

18 - أما والذى أشقى فؤادى وقادني     وإن كان في تلك الشقاوة ينعمُ

19 - لأنتَ مُنَى قلبي ونزهةُ خاطرى     وموردُ آمالي وإن كنت أحرمُ(71)

## عن استحالة كتمان السر :

ورغم أننا لم نعثر على هذا الغرض إلا نادرا فإنه من اللائق أن نشير إليه لما يتضمنه من فائدة . وإن ابن زمرك قد فرض على نفسه الكتمان ولازم الصمت التام مع ما ينجر عن ذلك من شقاء وعناء وهو يعلم حق العلم أنه لا يأمل القليل من رضى الحبيبة عليه إلا إذا أقنع هذه الأخيرة بحسن سلوكه والاحتفاظ بأسراره العميقة . ومن المعلوم أن الإباحة بالسر تثير القيل والقال بما من شأنه أن يغير العواطف ويؤدى إلى العداوة والهجران وذلك لما تشعر به الحبيبة من إهانة الحبيب لها وعدم احترام ما من شأنه أن يعظم ويبجل مثل الحب . ولم يفت ابن زمرك أن الحبيبة ترى في كتمان سره صدقه وإخلاصه لها . فيبدو لنا حرصه على ذلك حينما يقول لمن يسأله :

6 - ياسائلي عن سر من أحببتُه     السر عندى ميت الأحياءِ

7 - تالله ما أشكو المحبة والهوى     لسوى الأحبةِ أو أموت بدائي

8 - يازين قلبي لست أبرح عانيا     أرضى بسقمي في الهوى وعنائي(7)

وإذا لم يمل الفضوليون من السعي وراء اكتشاف هذه الأسرار والإجهار بها فإن ابن زمرك ينظر إليهم نظرة استهزاء واستخفاف ويدعوهم أن يقصدوا إلى

من سيطفيء غلتهم ولكن من هو هذا المخبر ياترى :

1 - سل الأفق بالزهر الكواكب حاليا فإني قد أودعته شرح حاليا

2 - وحملت معتل النسيم أمانـة قطعت بها عمر الزمان أمانيا(99)

وأن لا يبوح ابن زمرك بأسراره للغير يبدو أمرا طبيعيا إن صح هذا التعبير ولكن أن يذهب إلى عدم الإباحة بهذه الأسرار إلى الحبيبة نفسها فيبدو هذا أمرا غير منتظر يصعب علينا إدراكه . فلم يخف عن شاعرنا ما يثيره هذا الموقف من حيرة فيبادرنا بالقول :

10 - أخاف عليك أن أشكوك بثى مشافهة فيخجلك السمـاعُ

11 - وإن عبرت عن شوقي بكتب تلـهب في أنـامـلي اليراعُ(م 46)

ولكن سرعان ما يبدو لابن زمرك استحالة الحفاظ على هذه الأسرار بصفة لا نهائية فإن لم يفه بحبه وإن لم يكتب عنه فتبقى علاماته ظاهرة على المحب ، علامات جلية لا مجال للشك في نوعية شعوره . فليس لدى شاعرنا ما يساعده على محو هذه المظاهر فيقول :

8 - وما زلت أخفي الحب عن كل عاذل وتبدى دموع الصب ما هو يكتمُ

9 - كساني الهوى ثوب السقام وإنه متى صح حب المرء لا شيء يسقم(71)

ونراه يتساءل عن حسن نيته فيقول :

2 - وهل يخفى لدى وجد حديثٌ أتخفى النـار يحملها اليفـاعُ(م 46)

وفضلا عن الدموع يشير ابن زمرك إلى نحول الجسم ـــ غرض تقدمت لنا دراسته ـــ فهذه وذاك من شأنهما إثارة الهذر في هذا المجال فتضاعف عدد من توصل إلى اكتشاف حب شاعرنا . وهذا أمر غير مرغوب فيه فلا غرو أن نشاهد ابن زمرك في قلق شديد وغضب عنيف وذلك ما أداه إلى مواجهة الجميع مخالفا كل ما كان يدين به من قبل فصرح لمن أراد أن يسمع اسم حبيبه . فقال وليكن ما يكون :

3 - أشاعـوا أني عبـد لموسى نعم صدقوا علي فيما أشاعوا(م 46)

## الحوار مع الحبيبة أو تلهف الحبيب بلقاء الحبيبة :

وإن ابن زمرك قد اغتم بملازمته هذا الصمت الطويل فلم يمنعه الحياء من التصريح بأنه يتحمل ما لا طاقة له به . فمن المستحيل إذن أن يبقى بعيدا عن الحبيبة منفردا بحبه وأسراره فيعزم أن يبوح إلى هذه بما يعانيه في سبيلها من شقاء وعذاب آملا في استعطافها لعلها تلتفت إليه وتقدر ما يثير أنينه فيقول متسائلا :

18 - إلى كم أرى حبي ووجدي مصرّح وأخفي اسم من أهواه وهو شهير(28)

ويكتفي ابن زمرك للتخفيف من آلامه بإشارة خفيفة من حبيبته إشارة تسمح له بأن حبيبته سمعت صرخته صرخة غريق في حاجة إلى الإغاثة ولا يرى شاعرنا غيرها قادرا على ذلك فيسألها قائلا :

12 - إذا أنت لم ترحم خضوعي في الهوى فمن ذا الذى يحني علي ويرحم(71)

وليكن من المعلوم أن ابن زمرك وقع في هذه الشبكة ضحية جمال خلاب أفلا يستحق العذر والمساعدة ، أمن اللائق أن يعاقب من لم يرتكب ذنباً ؟ وهذا ما يؤدي شاعرنا إلى القول :

6 - كيف لا يهواك قلب المستهام وفـــيك العقــــل يهيم

7 - وعيونك في الحشى ترمي سهام أصبـــح القـــلب سليم(125)

وقد عودنا ابن زمرك باللطافة وحسن السلوك في الحوار فكيف تأتى له أن يخاطب مرة حبيبته بكلام تنفر منه الآذان ! ألم يفقد لبه فعلا في تلك اللحظة ؟ فلنعتبر ما قاله :

22 - قــل لي ياربــة الــوشاح هل لي إلى الوصل من سبيل

23 - ياكعبة الحسن زدت حسنا وللهـوى حـولك المطـاف(111)

وليتخلى شاعرنا عن حاضره المؤلم التعس يلجأ إلى الحياة في المستقبل وهكذا يذهب به خياله إلى رسم ما يتمناه أن يكون فنجد في ديوانه تحليلا طويلا لغرض الطيف . وفي مرحلة أولى يتصور شاعرنا أنه محروم مما يسعى ورائه فلم يبق له إلا أن يتأسف بمرارة على هذا الحرمان في الأحلام فيقول :

24 - لــــو كان لي زائــــــر طيــف الخيــال حــائم
25 - مـــا بت بالساهـــــــر ودمــع عينــي ساجـــم
26 - والحب عـــــــــدوان يجهـــد في ظلـــم البرى(106)

ولكن من حسن الحظ فإن ابن زمرك لم ينتظر بدون جدوى فزال ما كان يشتكي منه وحظي في الأخير بزيارة الطيف . وهذا ما ملأه غبطة وسرورا فعبر عن ذلك قائلا :

18 - خيال على بعد المزار أمّ بي فأدركني من لم أكن عنه ساليا
19 - عجبت له كيف اهتدى نحو مضجعي ولم يبق مني السقم والشوق باقيا
20 - رفعت له نار الصبابة فاهتدى وخاض لها عرض الدجنة ساريا(98)

وكان من شأن هذه الزيارة في المنام أن تبعث الأمل من جديد في نفس ابن زمرك الذى يستمر في حلمه يقظان ويرى أن وقت تحقيق منيته ليس ببعيد جدا فيسمح لنفسه بالقول :

16 - فمن مبلغ عني ...............
17 - بأن غدا أو بعده سوف نلتقي ونمسي ومنا زائر ومــزور(28)

ولكن من سيكون ياترى هذا المبلغ مبلغ يشترط فيه أن يكون سريعا وكتوما . فيتوجه ابن زمرك إلى الطبيعة ويكلف الريح أن تقوم بهذه المهمة وحتى لا تنزعج الحبيبة يرى شاعرنا أن يودع هذا الرسول أحسن صورة قلبا وقالبا فيقول :

3 - وما حال من يستودع الريح سره ويطلبها وهي النموم بـكتمانِ
6 - وأبدى إذا ريح الشمال تنفست شمائل مرتاح المعاطف نشوانِ(78)

## اللقاء بالحبيبة وخشية الرقيب :

إن الآونة المنتظرة بفارغ الصبر قد حانت . وإن السعادة التي حظى بها شاعرنا بلقائه بحبيبته لهي في مستوى الشقاء الذي طالما كان يعاني منه . والجدير

بالذكر هو أن ابن زمرك لا يشفي غلتنا ولا يطلعنا إلا على القليل من القليل وأن الأبيات التي خصصها لهذا الغرض معدودة فضمنها إشارات خاطفة تسمح لخيالنا أن نلمح ما قد جرى بين العاشقين . فيقول مثلا :

8- طالعتـه في روضة كخلالـه والطيب من هذه وتلك قد اشتهر
9- وكلاهما يبدى محاسن جمّةً ملء المشام والمسامع والبصر(41)

وابن زمرك كغيره من الشعراء المغرمين يأخذ كل احتياطاته حتى لا يرى في خلوته مع حبيبته . فالرقيب من الأشخاص الذين لا يستحب وجودهم فالعاشق يتحذر منه فلا يفوه بكلمة ولا يأتي بإشارة ولا يسلك سلوكا يمكن تأويله كل ذلك حفاظا على حبه والانفراد به حتى لا يخيب في سعيه وتفشل آماله . فيقول لنا مثلا :

5- كم زفرة بين الجوانح ما ارتقت حذر الرقيب ومدمع لم يسجم(75)

ثم يضيف قائلا :

7- إذا تجلت بعد طول ارتقاب صرفت عنها اللحظ خوف الرقيب(118)

فلهذا السبب لا يرفع ابن زمرك الستار عن حبيبته ويكتفي بإشارات عامة ومبهمة بحيث لا يمكن أن نتعرف عليها بصفة مفصلة فتبقى شبحا بعيدا لا سبيل إلى الوصول إليه وكل ما يرضى العاشق أن يبوح به هو الجمال الفتان الذى يثير الدهشة والإعجاب ويساعد على الخوض في أروع الأحلام .

o o o

# الفصـل السادس

## 1) الطبيعـة الجامـدة

### أغراض الطبيعة :

إن ابن زمرك قد افتتن فعلا بالطبيعة الغناء لغرناطة وضواحيها كما كان الأمر بالنسبة لشاعر جزيرة شقر الجنان ابن خفاجة الذى اتخذه شاعرنا قدوة وتأثر به إلى حد بعيد . وإن شعر ابن زمرك الوارد في وصف الطبيعة يشهد كله على مدى تعلق شاعرنا بالطبيعة تلك الرفيقة الأمينة في كل أوان والتي أمدته بلا حساب بمختلف الصور والاستعارات الرائقة . يتجلى لنا من خلال ما بلغنا من إنتاج شعري لابن زمرك أن الطبيعة لا تغيب أبدا مهما كان الغرض المتعرض له فهي موجودة بالكثير أو بالقليل ويحرص ابن زمرك على ذكرها في المدح مثل الغزل إن لم يخصص لها تحليلا مفصلا كما سنراه . وما تجدر ملاحظته هو أنه كان من العسير على ابن زمرك أن يجدد هذا الغرض فيأتي بالطريف بعد ما ارتفع به ابن خفاجة إلى أوجه فكان شاعرنا من أحسن التلاميذ مقلدا ومصيبا تارة ومحاولا تارة أخرى أن يفاجئنا بما يستميلنا ويطربنا . وذلك دليل على مقدرته البيانية والبلاغية .

وقد حاولنا لتكون دراستنا واضحة أن نرتب الأغراض التابعة للطبيعة مع الملاحظة أننا في غالب الأوقات بصدد مجموعات وردت فيها أغراض مختلطة .

## الحـوادث الجويـة

### السحب والندى :

فإن أتيح من دون شك لابن زمرك أن يشاهد السماء مغيمة بالعاصمة النصرية فلم يتحرك قلمه لوصف الغيوم و لم يشر لا إلى حركتها ولا إلى تكثفها ولا إلى لونها وما لفت نظره هو ما تحمله في جوفها من مياه نافعة إذ تبعث تلك المياه الحياة بنزولها مطرا أو ندى على الطبيعة . فتبدو لنا مشخصة من خلال

استعارة يقول فيها ابن زمرك :

6 - وأدمع السحب في انسياح في كل روض لها سبيل(111)

فيتأتى لشاعرنا عندئذ أن يتمتع بالمناظر اليانعة الناضرة وهذا ما يؤديه إلى القول :

2 - والظل في الأغصان ينظمه بالجوهر(106)

وإذا اكتست أرض غرناطة بالزهور المتناثرة فذلك عائد إلى المعجزة التي أتى بها السحاب فيمتلىء قلب شاعرنا شوقا وحنانا فيقول :

4 - أمذكري غرناطة حلت بها أيدي السحاب أزرة النوار(38)

## البرق والرعد :

إن ابن زمرك حسب ما يبدو لم يول هذين الغرضين اهتماما كبيرا إذ أنه لم يشر إلى البرق إلا مرتين وأما الرعد فلم نجد له أثرا في الديوان . وإن البرق ولمعانه يدفع شاعرنا إلى استعمال هذا الغرض في وصف الحبيبة وصفا هادئا مشيرا إلى الفم والأسنان حين يتكشف عن ابتسامة لطيفة . ثم يعود مرة أخرى إلى البرق فيقف عنده لحظة ليشاهده فيتذكر بالتالي صورا تقليدية متداولة فيقول :

6 - والسحب بالجوهر استهلت فالبرق سيف مجوهر

7 - صفاته المذهبات حلّت في راحة الجو تشهر(107)

## النسيم والريح :

ونلاحظ هنا أيضا أن غرض الريح لم يستلفت نظر شاعرنا إلا مرة واحدة مؤكدا على مظاهره الإيجابية . فلا أثر للرياح الشديدة التي تصحب الزوابع وما ينجرّ عنها من آفات تتألم منها الطبيعة . فابن زمرك لا يهتم إلا بما يعود على هذه الأخيرة من منافع فيقول في هذا الشأن :

11 - والريح خفاقة البنود تباكر الروض بالغمام(115)

وأما غرض النسيم العليل فقد ورد أكثر من مرة في شعر ابن زمرك إذ كان يطيب لشاعرنا أن يشير إليه وقت هبوبه ملاطفا الأزهار ومداعبا الأشجار والأغصان فيزرع في نفس شاعرنا الطمأنينة ويسمح له أن يتمتع بمشهد هادىء خلاب يثير عاطفته الشعرية فينطق قائلا :

1 - هبّ النسيم على الرياح مع السحر فاستيقظت في الدوح أجفان الزهر

2 - ورمى القضيب دراهما من نوره فاعتاض من ظل الغمام بها درر

3 - نثر الأزاهر بعد ما نظم الندى ياحسن ما نظم النسيم وما نثر(40)

وإن ذلك النسيم بمروره على الأزهار يمتلىء طيبا ويملأ بدوره الجو كله بالروائح الفائحة وما أدراك ما هذه الروائح فيقول :

8 - نواسم الوادى تمسك تفوح ونفحة النـدّ بـه تعبـق(116)

وإن ابن زمرك يشخص ذلك النسيم العليل ويجعل منه الرفيق الحنون للأحباء في عزلتهم الليلية فيزيد في سعادتهم . ويشير الشاعر إلى دوره فيقول في مجموعة :

1 - زال الخيال بأيمن الزوراء فجلا سناه غياهب الظلماء

2 - وسرى مع النسمات يسحب ذيله فـأتت تنـمّ بعـنبر وكبـاء(1)

والنسيم العليل قد يتأثر بدوره برفقة العاشقين إذ يصبح جليسْ كل منهم عالما بأسرارهم وأمانيهم فيفرح لأفراحهم ويشقى لشقائهم فيقول الشاعر في هذا الشأن :

15 - ما هب خفاق النسيم مع السحر إلا وقد شاق النفوس وقد سحر

16 - ناجى القلوب الخافقات كمثله ووشى بما تخفي الكمام من الزهر(41)

ويبدو لابن زمرك أثناء مشاهدته الرياض والأزهار أن النسيم بعد المسافات الطويلة التي يقطعها قد يصيبه التعب والكلل فتخور قواه وتذكره بالماشي على الأقدام في نهاية المطاف . وهذا ما يسمح لشاعرنا أن يعثر على هذه الاستعارة الطريفة الشيقة إذ يقول :

12 - ونسمة الصبح حين كـلّت في سندس الـروض تـعثر(107)

**الثـــلج :**

إن ابن زمرك لم يذكر الطبيعة مغطاة بالثلوج إلا بصفة عرضية . وبالفعل فإن الإشارة إلى الثلج قد وردت في مقطوعة خصصها شاعرنا لمدح الغني بالله متفقدا ضواحي مالقة . وبعد ما استغل الحادث الطارىء لمصلحة سيده التفت شاعرنا إلى البساط الأبيض المنتشر أمام أعينه ليتأمله مستخلصا من وراء ذلك قدرة الله تعالى المحدث ما يشاء . ولنتأمل بدورنا ما قاله ابن زمرك في هذا المقام :

2 - أزجر بهذا الثلج فألا إنــه ثلج اليقين بنصر مولانا الغني

3 - بسط البياض كرامة لقدومه وافترّ ثغرا عن مسرة معتني

4 - فالأرض جوهرة تلوح لمجتل والدوح مزهرة تفوح لمجتني

5 - سبحان من أعطى الوجود وجوده ليدل منه على الجواد المحسن

6 - وبدائع الأكـوان في إتقـانها أثر يشير إلى البديع المتقـن(79)

## أهم مظاهر الطبيعة الأرضية

**الأفــق :**

لم يستوقف الأفق شاعرنا إلا مرتين فقط ، فالمرة الأولى كانت في ظروف خاصة إذ حدث ذلك بعد سقوط الندى في الصباح الباكر وهذه الرؤية ساعدت ابن زمرك على العثور على استعارة أنيقة تبرهن على حذقه ومهارته فيقول :

5 - والأفـق في ملتقـى الريـــاح بأدمــــع الغــــيث يشرق(107)

وأما المرة الثانية فما هي إلا صورة تقليدية يدعونا بها شاعرنا إلى مشاهدة الأفق عند الفجر فيقول :

43 - باكرته والأفق قد خلع الدجى مسحا ليلبس حلة الأسفــار

44 - وجرى به نهر النهار كمثل ما سكب النسيم سلافة من قار(39)

**الفجــر :**

إن هذا الغرض الشعري لم يحظ بما هو جدير بالذكر فابن زمرك لم يذكره

إلا مرة واحدة وذلك من بين أغراض أخرى . وما استلفت نظر شاعرنا هي ألوانه المنسجمة الواردة في صور ربيعية فيقول :

1 - ريحانـة الفجـر قـد أطـلـت خضراء بالزهـــــر تزهـــــر(107)

## الصبح :

إن الصبح من الأغراض الشعرية التي كثيرا ما وقف عندها ابن زمرك وقد تعددت الأبيات التي يعثر فيها على هذا الغرض ولكن شاعرنا كغيره من الشعراء السابقين لا يفصل الصبح عن الليل لتتأتى له المقارنة بين ظلمة هذا وضياء ذاك وأن جميع الصور التي وفق إليها ابن زمرك تتسم بالعنف وشدة الصراع بين النهار والليل كل من هذين الأخيرين يرغب في التغلب على حصمه ولكن المعركة تنتهي دائما لصالح الصبح الذى يطرد لا محالة الليل ويتبوأ مكانه . ويرى ابن زمرك أن انتصار الصبح يتم بدون مقاومة ولا كفاح وإنما يكفي للصبح أن يظهر فقط مرغما الليل على الفرار مقلصا أذياله . وهكذا يتأتى لشاعرنا أن يقول في وصف ذلك :

1 - قـد طلـعت رايـة الصبـــاح وأذن الليـــــل بارحيـــــل(111)

ولكن ابن زمرك لا يقتنع بهذه الصورة القاسية الهاجمة وإنما يطيب له أن يطيل الوقوف أمام الصبح معجبا بجماله وبهائه وبضيائه المتدفق على الطبيعة بأسرها . ولقد استغل ابن زمرك مرارا هذا الغرض في قصائده المدحية فكان لا يفوته أن يشبه وجه الغني بالله وملامحه بالصبح اللامع الصافي حتى لا يتردد أن يقول في هذا الشأن :

29 - فكأنما فلق الصباح وقد بدا مرأى ابن نصر لاح للمتوسم(75)

## الليـــل والنجـــوم :

لا يشير ابن زمرك إلى الليل بدون أن يشير في نفس الوقت إلى النجوم المتلألئة إذ هذا لا يكون بدون ذاك فلا سبيل إلى الانفصال . وهذان الغرضان قد حظيا

باهتمام كبير لدى شاعرنا . وقد لاحظنا في دراستنا السابقة للأغراض الغزلية الدور المهم الذي يلعبه الليل بنجومه في فترات انعزال العاشق وتأمله في وحدة موحشة . والآن نحن بصدد الليل كظاهرة طبيعية تثير إعجاب شاعرنا فيفتتن بها فلا يمل ولايكل من مشاهدة الليل الذي تارة ما يبدو مخيفا وتارة مطمئنا . وكم من مرة تأتى لابن زمرك أن يتأمل الليل ساريا لا يجد جوابا لتساؤلاته حول الألغاز التي يمثلها بالنجوم المتوقدة . وها هو يقول واصفاً لنا تلك اللحظات :

17 - كم ليلة والدجى راعت جوانبها قلب الجبان فما ينفك مطرّحا

18 - سريتها ونجوم الأفق فيه طفت جواهرا وعباب الليل قد طفحا(11)

وإن مشاهدة السماء مشتعلا بالنجوم تعود بشاعرنا إلى المناظر الطبيعية فوق البسيطة ليغترف منها مادة صوره كما نلاحظه من خلال شعره . إذ يقول :

27 - والزهر زهر والسماء حديقة فتقت كمائم جنحها عن أنجم(75)

وإن المجرة المطوقة بما لا يحصى من النجوم أدت شاعرنا إلى هذه الاستعارة :

17 - وقد مثلت زهر النجوم بأفقه حبابا على نهر المجرة طافيا(98)

ويلجأ ابن زمرك إلى الطبيعة الحية لصياغة صور متعددة . فيقول عند قدوم الفجر :

28 - والليل مربد الجوانح قد بدا فيه الصباح كغرة في أدهم(75)

فبقدر ما يزداد قتام الليل يزداد ضياء النجوم فيقابل هذا بذاك فيقول في تشبيه تقليدي معتاد :

وكأن النجوم في غسق الليـ ـل جمان يلوح في أبنوس

2 - وكأن الصباح في الأفق يجلى بحلي النجوم مثل العروس(44)

وإن ابن زمرك ــ كما لاحظناه ــ لا يذكر النجوم إلا متجمعة فهي بمثابة الحلية للسماء ما عدا المجرة والثريا إذ قال :

19 - وكأن خمس الثريا راحة ذرعت مسير الليل بالأشبار(38)

**البـدر :**

فمن المعروف أن البدر في كماله استعمل كمشبه به في المدح وفي الغزل ، كما لاحظناه في دراستنا السابقة لهذين اللونين من الشعر . وإن البدر ليحتل الصدارة في الوصف للرموز التي تتعلق به . وقد شاهد ابن زمرك هذا البدر وتأمله مرارا فأدخله في صور عديدة وطالما أثار العلاقة التي يراها بينه وبين ممدوحه الغني بالله فقد قال مثلا :

18 - فكـأنما بـدر التمام بجنحـه  وجه الإمام بجحفـل جـرّارِ(38)

ثم توجه ابن زمرك بعد هذا التشبيه إلى ذكر البدر في حدّ ذاته فوصفه قائلا :

26 - والبدر في صفح الماء كأنه  مرآة هند وسط لجّ ترتمي(75)

ولقد رأينا ابن زمرك في ذكر الليل بظلماته حين شبه هذا الأخير بالبحر الخضم بأمواجه الضخمة المتحركة . فربط هذه الرؤية بالبدر الساري وحده بتؤدة واستمرار إلى مستقر له وهذا ما أدى شاعرنا إلى صياغة استعارة شيقة وردت في مجموعة . فقال :

18 - سريتها....

19 - بسابح اهتـدى ليـلا بغرتـه  والبدر في لجة الظلماء قد سبحا(11)

**الشـمس :**

يتجلى لنا من خلال الشعر العربي أن الشمس لم تحظ بامتيازات البدر وبالتالي فلم تحتل محلا مرموقا كما كان الأمر بالنسبة للبدر فالشيء الوحيد الذى لفت أنظار الشعراء هو وقت شروق الشمس ووقت غروبها . وفيما يخص ابن زمرك فإنه لم يشر إلا لغروبها في العشية مكتفيا في ذلك بذكر استعارة معهودة لم تكلفه عناء يذكر . إذ قال :

20 - والشمس تـذهب للبيـات  قد لبست ثوب عسجـد(115)

واقتصر مرة أخرى على ما يثيره وقت الأصيل من إعجاب بجماله فينادي

ابن زمرك من يرغب أن يشاركه في مشاهدة هذا المنظر الرائع ويشاطره ما يشعر به آنذاك . فلنتأمل بدورنا ما قاله من موشحة :

8 - قم ترى هذا الأصيل شاحبا حسنــــه قـــد راق(112)

## المناظـر الطبيعيـة

إن ابن زمرك كان ـــ كما أشرنا إليه سابقا ـــ معجبا بالطبيعة إلى حدّ كبير ولهذا فقد خصص لوصفها جزءاً وافراً من شعره . ويدعونا مرارا إلى مشاهدة طبيعة مرحة مبتسمة تفاجيء الناظر في كل مرة بما تكنه من عجائب وغرائب مكتفيا في ذلك بذكر ميزاتها البارزة ومتخليا عن التفاصيل المدققة المجزأة التي تثير لا محالة الملل والكلل . ولقد طاب له أن يذكر ما به أصبحت هذه المشاهد خلابة فتانة وذلك حسب الأوان والمكان .

فهذه المناظر كلها مع اختلافها وتنوعها تسبح في جو كلّه يناعة وجمال تدفع ابن زمرك إلى التعبير عن إعجابه الشديد بها فيقول :

17 - وبهجـة الكـون قـد تجلت والــروض بـــالحسن يبهر(107)

وإن أفضل الفصول فصل الربيع ففيه تستعيد الطبيعة رونقها وبهاءها فتتشخص تحت قلم شاعرنا فتتصف بالصفات البشرية المترجمة عن السعادة ورغد العيش :

17 - جادت بجارى الدمع من قطر الندى فرعى الربيع لها حقوق الجارِ

18 - فأعاد وجه الأرض طلقا مشرقا متضاحكـا بمبـاسم النـــوار(36)

ويالها من خلعة فاخرة تتحلى بها هذه المناظر إثر سقوط قطرات الندى النافعة :

7 - وما روضة غناء عاهدها الحيا تحوك بها وشي الربيع يد القطرِ(37)

وروعة هذا الثوب تثير ذكريات ابن زمرك . فيقول :

68 - والروض مختال بحلّة سنـدس من كل موشّيّ الرقوم منمنم

69 - ورياحه نسمت بنشر لطيمة | وأقاحه بسمت بثغر مثلـم
70 - وأريتنا فيــه عجــائب جمة | لم تجر في خلد ولم تتوهم(75)

أو تذكره بتلك المرأة ذات الجمال الفتان الواعية بجمالها فتبدي للناظر زهوها وافتخارها . فيراها ابن زمرك متماثلة مع السماء فيتأتى له أن يقول :

11 - يفاخر مرآها السماء محاسنا | فتزري حرم الزهر منها على الزهر(37)

وإن إعجابه ببساتين غرناطة لا نهاية له فلم يقتنع في وصفه إياها بالنعوت مهما كان رونقها لأنها في نظره دون الحقيقة . فرأى من اللائق أن يردد أسماء التفضيل الواحد بعد الآخر للتأكيد على انفرادها بميزاتها فيقول مثلا :

92 - فلم ندر روضا منه أنعم نضرة | وأعطر أرجاء وأحلى مجانيـا(99)

ولكن ابن زمرك في تملقه للغني بالله يستثني هذا الأخير ويعكس الأمور إذ لا شيء على البسيطة أجمل وأبهى من ممدوحه فهذه الرياض رغم ما قال عنها تبقى دون الغني بالله إذا ما قارنا بينه وبينها . وإن وقوف الغني بالله وسط الرياض يأتي بالعجائب . فيقول شاعرنا في هذا الشأن :

3 - وكأن الريـاض تبدي ثنـاء | للغني بالله فـوق الطـروس(44)

ثم يدقق ذلك مضيفا :

19 - وثنـاء الـروض هب نـاسما | عاطـــــــــــــــرا نشرا
20 - بث مـــن أزهـــاره دراهما | قائـــــــــــــــلا بشرا(112)

## الأزهـار :

إن ابن زمرك قد اهتم اهتماما كبيرا بالأزهار ، وأشار إليها مرات عديدة في شعره ولقد أبدى ميولا بالغا إلى روائحها وألوانها وأنواعها ونضارتها فجاءت الاستعارات متوالية كثيرة ـــ استعارات كلها كلاسيكية ـــ لإبراز ما يميز هذه الزهور من رونق وجمال . فأينما شاهدها ومتع العين بها سواء كانت هذه الزهور مفروشة في الأرض أم كاسية الأشجار فهي دائما منظر يثير الإعجاب . أليست

بالفعل أبهى حلة تفتخر بها الطبيعة ألم تزدها شبابا وحيوية . فابن زمرك متيقن بذلك . ويرى أن للأزهار دوراً فعّالاً في زينة هذه الطبيعة فيقول مثلا :

26 - وكم خرّق الزهر من جيوب وكلّل القضب بالدرر(108)

وإزاء تشبيهات معهودة مكررة . فإن ابن زمرك يحاول تارة نوعا من التجديد في صياغة بعض الصور لم يسبق إليها فيكون هكذا قد برهن على طرافة ما . فيقول مثلا :

23 - للزهر في عطفها رقوم تلوح للعين كالنجوم

24 - وللندى بينها رسوم عقد الندى فوقها نظيم(109)

وإن ابن زمرك في كثير من الأحيان لا يذكر الأزهار وحدها وإنما في محيط تدخل فيه مكونات أخرى فيصف لنا هذا المنظر حيث نشاهد فيه الأزهار مع قطرات الندى ومرور النسيم العليل عليها فيتعجب من ذلك الانسجام والتناسق كاشفا هكذا مهارة الفنان الجليل سبحانه وتعالى فها هو يقول :

1 - هب النسيم على الرياض مع السحر فاستيقظت في الدوح أجفان الزهر

2 - ورمى القضيب دراهما من نوره فاعتاض من طلّ الغمام بها درر

3 - فنثر الأزاهر بعد ما نظم الندى ياحسن ما نظم النسيم وما نثر(40)

ويتأتى لابن زمرك أن يذكر أحيانا أزهارا بأسمائها مثل الورد والنرجس والأقاحي فيجمع بينها ثم يشخصها فيتوصل إلى أن يقول :

4 - وأعين النرجس المطلول يانعة ترقرق الطل دمعا في مآقيها

5 - وافتر ثغر أقاح من أزهارها مقبلا خد ورد من نواحيها(93)

وكذلك العرار في رفقة السوسن يأتيان في استعارة بليغة . إذ يقول :

9 - تمدّ لأكواس العرار أناملا من السوسن الغض المختم بالتبر(37)

ويذكر ابن زمرك في النهاية القرنفل في ظروف بلغ فيها من التنميق حدا بعيدا وقد حدث ذلك يوم زيارة الغني بالله جبل الفتح ـــ فشاهد هذا الأخير أزهار القرنفل وبدا له أن يرتجل أبياتا في وصفها ـــ أبياتا لم تحفظ لنا . ويقال إن ابن زمرك قد أعجب بها إعجابا عظيما فشكر ممدوحه على توفيقه في هذا الشأن ثم أقبل بدوره على وصف هذه الأزهار مخصصا لها ثلاث مقطوعات تجمعت فيها ثلاثة عشر بيتا فأكثر فيها لاستمالة سيده صورا كلها غزلية . فقال مثلا :

1- أتوني بنوار يروق نضارة كخد الذى أهوى وطيب تنفسه
2- وجاءوا به من شاهق متمنع تمنع ذاك الظبي في ظل مكنسه

وقال أيضا :

2- وما أبصرت عيني كزهر قرنفل حكى خد من يسبي الفؤاد وعرفه
3- تمنع في أعلى الهضاب لمجتن تمنعه مني إذا رمت إلفه

وقال أخيرا :

1- رعى الله زهرا ينتمي لقرنفل حكى عرف من أهوى وإشراق خدِّهِ
2- ومنبته في شاهق متمنع كما امتنع المحبوب في تيه صدِّهِ(89)

## الأشجار والأغصان :

إن ابن زمرك قد أطال الوقوف لدى الأشجار بأغصانها وأوراقها معتبرا إياها جواهر الطبيعة إذ لا تكون الطبيعة طبيعة بدونها فمثل ما كان الأمر بالنسبة للأزهار . فإن شاعرنا يدعونا إلى مشاهدة الأشجار في محيطها ولا يدخل في التفاصيل وإنما يؤكد في كل مرة على صفة تسمح برؤية هذه الأشجار فيذكر تارة أوراقها وتارة أغصانها . والجدير بالذكر أن ابن زمرك قد ربط مرارا هذا الغرض بممدوحه إذ شبهه أكثر من مرة بجمالها ومنافعها فأتت هذه المجموعات مفعمة بالصور من استعارات معقدة منمقة امتازت بعضها بطرافة مستعذبة .

ويتأتى لشاعرنا أن يقول وهو يشاهد الأغصان في حركتها عقب مرور الرياح عليها :

19- والقضب مالت للعناق كأنها وفد الأحبة قادمين من السفر
20- متلاعبات في الحلي ينوب في وجناتهن الورد حسنا عن خفر(40)

وحاول ابن زمرك أن يستفسر ذلك الذهاب والإياب للغصن فيتوصل إلى أن يقول ما هو إلا ثمرة خيال :

5 - والغصن بعد الذهاب يـأتي لا كـؤ س الطـل يشرب(111)

وليتم ذلك فيلفت شاعرنا أنظارنا إلى أن الغصن قد ارتدى حلة السندس وأن بهاء هذه الحلة المتناسق مع الحركات اللطيفة لهذا الغصن وهذا ما يذكر لا محالة ابن زمرك بالفتاة المختالة في مشيها وهذا ما كان قد سبقه إليه الجنان ابن خفاجة .

ولكن هذه الحركة وهذا الاهتزاز وهذا التبختر يأتي عبارة عن شكر الغصن للنسيم واعترافه له بالجميل على ما أنعم عليه من ملاطفة ومداعبة :

10 - والدوح للشكر تحط الرؤوس وأنجم الزهـــر بها تزهـــر(114)

ولا يفوت ابن زمرك مرة أخرى أن يغتنم هذه الفرص ليمدح سيده فيجد تعليلا آخر لاهتزاز هذه الأشجار وذلك عندما يمر بقربها الغني بالله . فيقول :

11 - والدوح يومى إلى السجـود شكرا لـذى الأنعـم الجسام(115)

وبعد ذلك يأتي ابن زمرك إلى ذكر الأوراق الملتفة المكثفة التي تسمح لنا بظل ظليل مستعذب . فيقول :

6 - ودوحهـــا ظلهـــا ظليـــل يحسن في ربعـــه المقيـــل(109)

ولكن الأوراق هي المأوى الأفضل للطيور . فيذكر شاعرنا المقتدي بابن خفاجة في هذا المقام فيقول :

6 - منبر الغصن عليه قد جلس ساجـــــــــــــــع الأدواح(112)

ويرى ابن زمرك أن هذه الأشجار هي التي تسعد بالدرجة الأولى بهذه الطيور التي بزقزقتها تثير الطرب فيقول :

31 - لم يرقص الدوح بالأكام من طرب حتى شدا من قيان الطير شاديها

32 - وأسمعتها فنون السحر مبدعة ورق الحمام وغناها مغـنيها(93)

ففي هذا الإطار الفتان كان يطيب ـــ من دون شك ـــ لابن زمرك أن يتجول متمتعا بهذه المناظر ومستعذبا أوقاتا خالدة . فهذه الطبيعة تذكر بزمان مضى حيث كان شابا في رفقة حبيبة يهواها فيذكر شجر السرح الذي آواهما مرات عديدة فيتوجه إليه في حنان لإحياء أزمنة السعادة والغبطة فيقول :

33 - ياسرحـة في الحمـى ظليلـــه كم نـلت في ظـلك المنـــى

34 - روضك الله من خميله يجنى بها أطيب الجنى(109)

ويدعونا ابن زمرك إلى الاقتداء به لنتذوق السعادة والهناء في أحضان طبيعة يانعة حنون فيقول :

30 - فباكر الروض والأغصان مائلة يثني النفوس لها شوقا تثنيها(93)

**الثمار :**

إن غرض الثمار لم يحظ بما حظي به الشجر أو الأزهار فلم نعثر عليه إلا قليلا . وجملة الأبيات التي خصصت له وردت في ثلاث مقطوعات لا تتجاوز أربعة وعشرين بيتا[19] . والجدير بالذكر هو أن ابن زمرك لم يذكر الثمار إلا بعد ما أتته هدية من عند ممدوحه الغني بالله . وبما أنه تأثر تأثرا شديدا بما ميزه به سيده أقبل على نظم أبيات لا يصف فيها الثمر إلا بصفة عرضية ، إذ همه الأول هو تشكره للغني بالله والإطراء عليه . ولا نستخلص أنه يصف حب الملوك إلا من خلال مقدمة قصيرة للمقطوعة . ولا يذكره في الثانية إلا مرة واحدة ليتأتى له أن يقول :

1 - ياخير من ملك الملوك أهديتني حب الملوك

وفي المقطوعة الأخيرة قد نجد ما يشفي العليل إذ وصف لنا شاعرنا سلة ثمار اجتمعت فيها فواكه مختلفة مثل الأترج والنقل وقد أكثر ابن زمرك من الصور فلم يفاجئنا بما يستلفت الأنظار فلنذكر منها على سبيل المثال :

4 - فيها من التفاح كل عجيبة تذكى برياها صبا وشمالا

5 - تهدى لنا نهد الحبيب وخده وترى من الورد الجني مثالا

6 - ولها من الأترج شمس أطلعت من كل شطر للعيون هلالا

7 - ويحفها ورق يروق كأنه ورق النضار وقد أجاد نبالا

---

(19) انظر الديوان : رقم ، 9 ، 55 ، 57 .

8- لون العشية ذهبت صفحاتها رقت وراقت بهجـة وجمالا
9- وبها من النقل الشهي مذكر عهـدا تـولى ليتـه يتـوالى(57)

## الأنهــار والأوديــة :

إن النهر الذى احتل الصدارة في شعر ابن زمرك هو الشنيل الذى لم يمل من مشاهدته والإعجاب به متأملا فيه صنع الله تعالى . وهو ذلك النهر الذي يلتحق بالوادي الكبير من ضفته اليسرى والذي لغرناطة أن تفتخر به وإنه لمن السهل الليّن أن نلاحظ أن الصور التي يستعملها ابن زمرك في وصف جمال وروعة الشنيل هي صور قد ساقه إليها الشعراء ولاسيما شاعر جزيرة شقر كما أشرنا إليه آنفا . وهكذا يقول مثلا في تشبيه بسيط عادي :

9- والنهر كالصارم الصقيـــــل في حليـة النـور يغمـــد(107)

وإن الحباب الذى يعلو الماء في جريه لا يسمح لابن زمرك إلا بهذه الصورة العريقة المتداولة . فيقول :

11- والنهر قد سلّ كمثل الحسام حبابه تطفو وطورا تغـيب(116)

وقد يحدث لابن زمرك أن يبذل جهدا للعثور على صور تستميل السامع وتبرهن على عبقريته الخيالية . فيسمح لنا هكذا بالاطلاع على بعض الاستعارات الشيقة نذكر من بينها ما قاله مرة :

23- يجرى على الحصباء وهي جواهر متكسرا من فوقها مهما عثر(40)

وإن إعجاب ابن زمرك بشنيله لا نهاية له بحيث إنه لا يجد مشبها به يليق به ويرضيه ففكر مرة في المجرة ولكن ليقول :

11- يزيد حسنا على نهر المجرة قد أغناه درّ حباب عن دراريها(43)

وعندما يذكر ابن زمرك الشرق ونهره الجليل النيل يذكر مدى تعلق الشعراء الأندلسيين بفضائل المشرق وجعله المثل الأعلى الذى ينبغي أن يتطلع إليه كل من أراد بلوغ الغاية . ولكن ما يأتي بهذه الذكرى إلا ليعاكس ابن زمرك ما

اعتاده الناس فيخالف أذواقهم ولا يحذو حذوهم إذ لا يرى في النيل إلا نهرا دون الشنيل جمالا وأبهة ولتعليل هذا الموقف يلجأ شاعرنا إلى المقارنة بين هذا وذاك في ميدان خاص بفقه اللغة . فيقول :

26 - شنيلهـا مـدّ منـه نيـل والشين ألـف لمستنيـل(109)

وأما الأودية فلم يشر إليها ابن زمرك إلا مرة واحدة ولا ليصفها وإنما ليستنشق الروائح المتصاعدة منها المالئة الجو عطرا يذكره تارة بالند وبالمسك تارة أخرى .

## الجبـل :

إن هذا الغرض الشعري لم يستلفت نظر شاعرنا إذ لم نعثر عليه إلا بصفة عرضية . ويتجلى لنا من ذلك أن ابن زمرك لم يتأثر بتلك الجبال العالية التي كان يشاهدها بعيدا في حدود غرناطة . فضخامة هذه الجبال ورسوخها في الأرض صفتان استعملهما شاعرنا كمشبه به في قصائده المدحية إلا أنه قد تأتى له أن يقول مرة واصفا إياها بالقوة والجبروت . فيقول :

25 - ورب طـود بـه منيـف أدواحـه الخضر كالبنـود(110)

## البحـر :

إن الشعراء بصفة عامة لم يهتموا بالبحر اهتماما جديرا بالذكر وإن ابن زمرك لم يخالفهم في ذلك . وإن هذا الغرض الشعري لم يأت بوفرة في إنتاجه الشعري . ويكتفي في المرات القليلة حيث اهتدى إليه باستعمال صور عادية أخذها عمن سبقه من الشعراء أمثال المعتمد بن عباد أمير إشبيلية . فيقول مثلا :

71 - به البحر دفاع العباب تخاله إذا ما انبرى وفد النسيم مباريا

72 - إذا ما جلت أيدي الصبا صفح متنه أرتنا دروعا واكتسبنا الأياديـا(99)

وحدث له مرة أخرى أن يذكر مدينة مالقة متعجبا من بهائها فخطر بباله أن يشير إلى البحر الممتد على ساحلها . فقال :

10 - والبحـر مـرآتك الصقيلـة تشف عـن ذاك الجميـال(113)

## 2 ـ الطبيـــعة الحيـــة

إن نصيب الطبيعة الحية يبدو ضئيلا بالنسبة للطبيعة الجامدة . وبالفعل فإن ابن زمرك لم يبد رغبة بالغة في التطلع على الحيوانات فلم يهتم بها إلا قليلا وفضلا عن هذا فلا نجد أثرا للحيوانات المفترسة فكل ما ورد من إشارات في هذا المجال يقتصر على الحيوانات الأهلية . مع الملاحظة أن شاعرنا لم يتعرض لها مستقلة في حدّ ذاتها فيعثر من هنا وهناك على البعض منها في مجموعات شعرية موضوعها الرئيسي الطرديات أو المعارك ضد العدو إلا أنه ينبغي أن نلفت النظر إلى ما هو نادر في الشعر العربي ونريد بذلك وصف حيوان وصفا دقيقا في قصيدة اقتصر موضوعها عليه . وقد حدث لابن زمرك أن يفاجئنا بذلك عندما وصف لنا الزرافة كما سنراه . وقبل ذلك فلنتعرض لما وجدناه من لمحات حيوانية تضمنها شعر ابن زمرك وهي كما يلي :

**الطيــور :**

ولقد مرّ بنا أن لاحظنا في دراستنا حول وصف الطبيعة برياضها أن ابن زمرك أشار إلى العصافير وجعل منها إحدى مكونات المشاهد الطبيعية التي تزيد هذه جمالا وبهاء سواء بغنائها أو بريشها وقد تأتى له أن يطرب في جولاته في أحضان الجنان بما تسمعه من ألحان تلهم بالعطف والحنان حتى خطر بباله أن يمثلها بمعبد المغني الشهير :

9 - والـطير مفتّنــة اللغــات      تشدو بــأصوات معبـــد(115)

والجدير بالذكر أن الباز من بين هذه الطيور قد حظي باهتمام كبير لدى الشعراء[1] . ومن المعلوم أن هذا الطير المفترس كان يستعمل في الصيد أيام خروج الأمراء إلى الغابات . وأن بني نصر كغيرهم كانوا مشغوفين بهذا الحيوان ، وقد ثبت أن الغني بالله وأبناءه تعاطوا هذا النوع من التسلي . وإننا

---

(20) انظر : دراستنا حول ابن خفاجة ، ص ، 173 - 174 .

لنجد في ديوان ابن زمرك مقطوعة تضمنت خمسة عشر بيتا في الطرد . وقد اغتنم شاعرنا هذه المناسبة ليمدح ابن الغني بالله واجدا له من خصال ما وجده للباز من صفات . فمهارة الأول ممزوجة بنجاعة الثاني أدت إلى العجائب والغرائب فجاءت الإصابات متوالية والصيد متوفرا . وقد خصص شاعرنا أربعة أبيات لوصف الباز وصفا دقيقا يثير الإعجاب . ويدل على أن ابن زمرك كان له اطلاع واسع على هذا الحيوان الذى تأمله مرارا ومن قريب . فقال :

| | | |
|---|---|---|
| 4 - | من كل خافقة الجناح إذا مشت | تبدى اختيال الغدأة العذراءِ |
| 5 - | أهدت لنا سبج العيون وطوّقت | أرجاءهـــا بعقيقـــة حمراءِ |
| 6 - | واستاقت الياقوت في منقارها | ومشت على المرجان في استحياءِ |
| 7 - | ووشت يد الأقدار في أعطافها | وشيا زرى بالحلة السيراءِ |
| 8 - | ملك الطيور أتى إلى ملك الورى | فاستاقهـــا لمؤمـــل الخلفـــاءِ(2) |

**الخيـــــل :**

إنه من المعلوم أن الحصان كان يشكل دائما لدى العرب موضوع اهتمام بالغ فحظي بما لا يحظى به غيره من الحيوانات الأهلية . وإن الأندلسيين مثل الشرقيين كانوا مشغوفين بالخيل إلى حد بعيد . فلا سبيل إذن إلى التعجب من وجودها في شعر ابن زمرك فهو كغيره من الشعراء أكثر الوصف فيها لأهمية الأدوار التي تقوم بها في الحياة الاجتماعية .

وقد لاحظنا في دراستنا للأغراض المدحية أن شاعرنا لم يمل من ذكرها وخصوصا أثناء المعارك ضد العدو المسيحي ومرارا ما عاد الفضل للفرسان في انتصارات الغني بالله وسط ميدان الكفاح ــ ولقد أُتيح من دون شك ــ لابن زمرك أن يشاهد هذا الحيوان النبيل في هجومه وتنقلاته السريعة مبديا الشجاعة والقوة في صراعاته العنيفة فسمح لنا أن نتمتع بمشاهد تجمعت فيها الخيول ذات الألوان المختلفة المختلطة من الأسود والأبيض والأشقر . فيقول :

| | | |
|---|---|---|
| 74 - | من أشهب كالصبح يطلع غرّه | في مستهل العسكـــر الجرارِ |

| | | |
|---|---|---|
| 75 - | أو أدهـم كالليـل إلا أنــه | لم يرض بالجوزاء حلي عذارِ |
| 76 - | أو أحمر كالجمر يذكى شعلة | وقد ارتمى من بأسه بشرارِ |
| 77 - | أو أشقر حلّى الجمال أديمه | وكساه من زهو جلال نضارِ |
| 78 - | أو أشعل راق العيون كأنه | غـلس يخالـط سدفــة بنهارِ |
| 79 - | شهب وشقر في الطراد كأنها | روض تفتح عن شقيق بهارِ(32) |

**الزرافـــة :**

إنه كان ـــ من دون شك ـــ من النادر أن تشاهد زرافة في شوارع مدينة فاس هذا الحيوان الذى قال في حقه ابن الخطيب بأنه « غريب » في مقدمة قصيرة عرض علينا فيها الظروف التي دعت ابن زمرك إلى وصف هذا الحيوان فقال : « وورد على السلطان أبي سالم ملك المغرب رحمة الله تعالى عليه وفد الأحابيش بهدية من ملك السودان ومن جملتها الحيوان الغريب المسمى بالزرافة فأمر من يعاني الشعر من الكتّاب بالنظم في ذلك الغرض »[21] . وكان ابن زمرك من بين هؤلاء فاغتنم هذه الفرصة ليمدح الأمير القائم بقصيدة خصص فيها عشرة أبيات لذكر هذا الحيوان .

وإن ابن زمرك قد اندهش هو الأول من هذه الرؤية إذ جلبت الزرافة جمهورا غفيرا . فكان وصف ابن زمرك شيقا لما أثاره اندهاشه من صور كان أكثرها مقتبسا من الطبيعة . فلنذكر هذه الأبيات لما اتسمت به من غرابة وطرافة . فقال ابن زمرك بعد أبيات سبقت :

| | | |
|---|---|---|
| 29 - | وأتتك ياملك الزمان غريبـة | قيد النواظر نوّهـة الأبصار |
| 30 - | موشية الأعطاف رائعة الحلى | رقمت بدائعها يـد الأقـدار |
| 31 - | راق العيـون أديمهـا فكأنــه | روض تفتح عن شقيق بهار |
| 32 - | ما بين مبيض وأصفر فاقع | سال اللجين به خلال نضار |
| 33 - | يحكى حدائق نرجس في شاهق | تنساب فيـه أراقــم الأنهار |

(21) انظر : الإحاطة ، 2 ، ص ، 227 .

| | | |
|---|---|---|
| 34 - | تحذو قوائم كالجذوع وفوقها | جبل أشم بنوره متوارى |
| 35 - | وسمت بجيد مثل جذع مائل | سهل التعطف ليّن خوار |
| 36 - | تستشرف الجدران منه ترائبا | فكأنما هو قائم بمنار |
| 37 - | تاهت بكلكلها وأتلع جيدها | ومشى بها الإعجاب مشي وقار |
| 38 - | خرجوا لها الجم الغفير وكلهم | متعجب من لطف صنع البارى |
| 39 - | كل يقول لصحبه قوموا انظروا | كيف الجبال تقاد بالأسيار(38) |

○ ○ ○

# الفصـــل السابــع

## المـــــدن

### غرنــاطـــــة :

إن ابن زمرك قد أحب غرناطة مسقط رأسه حبا جما فكانت علاقته بها علاقة العاشق بمعشوقته . وهذا ما أداه إلى رسم مشاهد شيقة زاخرة بالألوان الرائقة . فلا غرو إذن أن احتلت هذه المدينة في شعره محلا مرموقا وبالفعل فقد عثرنا على خمس مقطوعات تتفاوت طولا وردت موزعة في أربع موشحات وفي عيدية بلغ مجموع أبياتها المائة والستة عشر[22] وما يزيد ذلك قيمة هو أن ابن زمرك انفرد بهذا اللون الشعرى فعرفنا بغرناطة من خلال عواطفه . فلهذه المدينة أن تفتخر بذلك إذ حظيت بما لم تحظ به لا قرطبة مع ابن زيدون ولا إشبيلية مع المعتمد ابن عباد وإن ابن خفاجة رغم تعلقه الشديد بجزيرة شقر وبلنسية لم يأتنا بما أتانا به ابن زمرك في هذا المقام .

إن هذه المدينة التي شاهدت ولادته وسمحت له بأن يتخطى الحواجز القائمة في سبيل المجد لهي في عينيه رمز العظمة والجلال النصري فبها شب وترعرع وسما إلى أعلى المناصب في ظل ممدوحه الغني بالله كما مرّ بنا . فعاملها معاملة المعترف بفضلها وبما منت به عليه من خيرات فباح لها بمشاعره في حب وحنان يشبه حب وحنان مجنون لحبيبته ليلى فكان غيورا عليها لا يرضى لأحد أن يفوه فيها بما لا يرضى . والدليل أنه كلما ورد الكلام عنها كان ذلك عن طريق التشخيص فوصفها بما توصف به الفتاة العذراء ، فتاة سعد باستمالتها ورضاها عليه .

ولقد اختار ابن زمرك الموشحة إطارا لها وذلك ربما ليتغنى بها غيره عبر

---

(22) انظر : الديوان الأرقام ، 93 - 108 - 109 - 110 - 118 .

الأجيال حتى لا تنسى ولا يغفل عن محاسنها ضامنا هكذا لها البقاء والخلود .
ولكن ابن زمرك لعله وجد نفسه في حرج عندما مدح غرناطة إذ بها كان ممدوحه المعظم فكيف العمل إذن . فلقد رأى شاعرنا أن الاختيار بين هذا وتلك لا تردد فيه فمصلحته تغلبت لا محالة على عواطفه وجعل غرناطة مدينة للغني بالله فما هي عليه إلا بإرادة هذا الأخير[23] ولكن هذا لا يمنعنا من استخلاص صورة غرناطة حسبما رسمها لنا في لمحات متوالية خاطفة . فقال مثلا :

| | | |
|---|---|---|
| 16 - | غرناطة ........................ | |
| 17 - | تبهر بالمنظـــر العجـــيب | فـلا عـدا ربعـا المطـــر |
| 18 - | عـروسة تاجهـا السبيكـــة | وزهرهـــا الحلي والحلـــل |
| 19 - | لم ترض من عزها شريكة | بحسنها يضرب المثــــل |
| 20 - | أيدهـا اللـه مـن مليكـــة | تملكهـــا أشرف الـــدول |
| 21 - | بدولـــة المرتجى المهـــيب | الملك الطاهـــر الأغـــر |
| 22 - | تختال مـن بردهـا الـقشيب | في حلـة النـــور والزهـــر |
| 23 - | كـــرسيها جنــــة العريـــف | مـــرآتها صفحـــة الغديـــر(108) |

وإن العيشة رغدة بغرناطة إذ يخيم عليها الهدوء والطمأنينة والمرح ويود ابن زمرك أن تلبى دعوته فيقول :

| | | |
|---|---|---|
| 33 - | غرناطة آنس الرحمن ساكنها | باحت بسر معانيها أغـانيها |
| 35 - | فخلد الله أيام السرور بها | صفـرا عشيتها بيضا ليـاليها(93) |

ويأتي ابن زمرك هو الآخر ــ بعد ما سبقه إلى ذلك ابن خفاجة ــ إلى تشبيه غرناطة بالجنة . فيقول مخاطبا سكانها :

| | | |
|---|---|---|
| 23 - | ياساكنـــي جنـــة العريـــف | أسكـْـنتم جنـــة الخلــــود(110) |

ويبقى ابن زمرك متأملا في دهشة مشهدا رائعا تعرضه عليه غرناطة بضواحيها

---

(23) ما عدا الموشحة ، رقم 109 .

مشهدا مرصعا بالمباني الفاخرة هي رمز حضارة إسلامية أنيقة فتخالجه هذه الأفكار فيقول مبتهجا :

22 - تلك القصور التي رافت مظاهرها تهوى النجوم قصورا عن معاليها
23 - لله لله عينا من رأى سحرا تلك المنارة رقت حـواشيها(93)

وإن غرناطة لهي مهد ذكرياته الخالدة شاهدة على الآونة المرحة السعيدة التي عاشها فيذكر كل ذلك بشوق وحنان . فيقول :

1 - أبلـغ لغرناطـة سلامـي وصف لها عهـدي السليم
3 - كم بت فيها على اقتـراح أعل مـن خمرة الـرضاب
4 - أديـر منها كـؤوس راح قـد زانت الثغـر بالحبـاب
5 - اختال كالمهر في الجمـاح نشوان في روضة الشبـاب(110)

ولقد لاحظنا أن ابن زمرك لم يكن مشغوفا بالأسفار فلم يغادر مدينته إلا ليرحل إلى مدينة فاس بالمغرب في بعثات معينة للتفاوض وحل المشاكل التي كانت تعاني منها السلطة . ولكن هذه الغيابات عن غرناطة لم تستغرق إلا أياما معدودة . إلا أنه قد حدث له أن يبقى بعيدا عن غرناطة زمنا طويلا فأصبح مثل ذلك الحبيب المحروم من رؤية الحبيبة . فتألم من ذلك وطال عليه وقت الأوبة فضاق صدره وذاق مرارة التغرب عن الوطن فرأى ليفرج عن نفسه أن ينظم موشحة في غرناطة وهو قائم بالعاصمة المرينية فيبوح لنا بعواطفه معبرا هكذا عن حزنه ووجعه ولكن مع الأسف ليس فيها ما يسمح لنا بوضع تاريخ لها فيبقى ذلك مجرد اجتهاد فما هو ثابت أنه قالها وقت إقامته بالمغرب ووجهها إلى الغني بالله .

وإن ابن زمرك ليبدو لنا من خلال هذه الموشحة رجلا في شقاء مرير متحسرا على مصيره وعلى ما قدره الله عليه . فيخاطبنا قائلا في غير حشمة :

18 - أعنـدكم أننـي بفـاس أكابـد الشوق والحنين
19 - أذكـر أهلي بها ونـاسي فاليوم في الطـول كالسنين

20 - الله حسبي فكم أقاسي من وحشة الصحب والبنين

21 - مطارحا ساجع الحمام شوقا إلى الإلف والحميم

22 - والدمع قد لج في انسجام وقد وهى عقده النظيم(110)

**مالقة :**

إن المدينة الثانية التي استلفتت نظر ابن زمرك هي مالقة المنتشرة على ساحل البحر الأبيض المتوسط والمتمتعة بموقعها الفتان ولكن رغم ذلك فتبقى مالقة دون غرناطة الخالدة . فعلاقته بها ليست تلك التي كانت له بغرناطة . وقد ميز الشاعر بين المدينتين بالمرتبة ثم بالسياق الذى ورد ذكرهما فيه . فغرناطة هي العاصمة ومقر الحكم والسلطة . أما مالقة فهي مدينة ولائية فذكر الأولى لأسباب أشرنا إليها آنفا فانفردت بابن زمرك وحركت قلمه لصالحها دون أن يشاركها في استمالته أحد . وأما مالقة فقد جاء ذكرها في ظروف معينة ولو لم تكن هذه لما ذكرها . فلا تصح المقارنة بين هذه وتلك لتفوق إحداهما على الأخرى .

وبالفعل فإن ابن زمرك اغتنم لذكر مالقة ــ زيارة تفقدية للغني بالله إلى هذه المدينة ــ فلم ينظم إلا موشحتين[24] في حقها أهداهما لممدوحه . فكانت الأولى حسب ما يبدو في فصل الربيع . ولكن من أية سنة ؟ وما هي الظروف التي دعت الغني بالله إلى هذه الرحلة ؟ فالإجابة عن هذا السؤال مستحيلة لعدم توفر معلومات تسمح لنا بذلك . وما هو ثابت من خلال الموشحتين هو أن ابن زمرك اكتشف للمرة الأولى هذه المدينة ورأى أنها إطار مثالي ليتم استقبال الأمير على أحسن ما يرام . وقبل أن يشرع في مدح الغني بالله الذى هو الموضوع الأساسيّ بدأ في وصف مالقة وصفا كان بمثابة توطئة لموشحته فنشر أمام أعيننا مشهدا كله جمال وبهاء . وبالفعل فإن مالقة قد تهيأت لاستقبال هذا الزائر الجليل فتحلت بالحلى الثمينة وارتدت بخلعها الفاخرة التي زودتها به طبيعتها

---

(24) انظر الديوان : الأرقام 113 - 114 .

اليانعة المنورة . فاستعمل ابن زمرك أسلوب التشخيص فأحيى كل مكوناتها حتى تستطيع أن تبوح بعواطفها وتعبر عن مشاعرها . وهكذا فتحت ذراعيها في وجه الغني بالله مصرحة له بحبها له وباعترافها لما منّه عليها من خيرات وشاكرة على حسن الاختيار الذى ميزها به عن غيرها من المدن . فهي مسرورة مفتخرة بملكها .

وإن معظم الصور من تشبيهات واستعارات اقتُبِسَت من الطبيعة . ولقد مر بنا بعضها في دراستنا لأغراض الطبيعة المختلفة بالإضافة إلى صور غزلية تظهر مالقة في عنفوان شبابها محتفلة بهذا اليوم السعيد الفريد . فيقول مخاطبا إياها :

| | | |
|---|---|---|
| 8- | عروسة أنت يا عقيلة | تجلى على مظهر الكمال |
| 9- | مدت لك الكف مستقبلة | تمسح أعطافك الشمال |
| 10- | والبحر مرآتك الصقيلة | تشف عن ذاك الجمال |
| 11- | والحلي زهر له انتظام | يكلل القضب بالدرر(113) |

ويتصور ابن زمرك أهل مالقة في حيرة ودهشة أمام هذا المشهد الرائع فنراه يحاول استفسار ذلك متسائلا عما حدث وما سيحدث . فما من عروسة إلا وتكشف بهذه الزينة فمن هو الزوج المحظوظ السعيد الذى سيخلو بها . وكان ابن زمرك قد توقع هذا التساؤل فأعد لنا جوابا . إذ قال بكل ارتياح :

| | | |
|---|---|---|
| 13- | إن قيل من بعلها المفدّى | ومن له وصلها مباح |
| 14- | أقول أسنى الملوك رفدا | مخلّد الفخر بالصفاح |
| 15- | محمد الحمد حين يهدى | ثناؤه عاطر الرياح(113) |

فهذا الحظ الذى تتمتع به مالقة من شأنه أن يثير الغيرة والحسد وقد تدارك شاعرنا ذلك فأعد ما به تبعد مساوىء العين مذكرا بهذه العوائد المعمول بها في ظروف كهذه في المجتمعات الإسلامية :

| | | |
|---|---|---|
| 6- | وأعين الزهر لا تنام | تستعذب السهد والسهر |
| 7- | تنفث من تحتها الغمام | ترقيك من أعين الزهر(113) |

وحسب ما يبدو فإن الغني بالله قد رضي عن هذه المدينة فأراد أن يميزها عن غيرها مرة أخرى فاختارها لتكون مقرّ مبنى فاخر سمي بالمحدث ينسجم وإطارها الخلاب . فكانت هذه المناسبة الثانية التي أتيحت لابن زمرك أن ينظم موشحة أخرى في هذا الموضوع . فرأى أن لمالقة أن تفتخر حقا بهذه الهدية الفخمة إذ هي واعية حق الوعي بأنها انفردت به فمن الطبيعي إذن أن تبدى شكرها الجزيل فطبيعتها بما فيها تثنى على الغني بالله فهذه البلابل التي تعبر عن عواطفها بأسلوب خاص . فيقول ابن زمرك في هذا الشأن :

20 - وروضة بالسر منه تبوح ... بلابل عن وجده تنطق

21 - لو أن من يفهم عنها الكلام ... فهي تهنيك هناء الأديب(114)

ثم يأتي دور سكان مالقة . فيعبرون عن اعترافهم بالجميل مبدين سرورهم وغبطتهم . كما يلاحظه شاعرنا حين يقول :

9 - والبشر يسرى في جميع النفوس ... وراية الأنس بها تنشر(114)

وأخيرا الدوحة والنهر في انسجام مع الحمام :

10 - والدوح للشكر تحط الرعوس ... وأنجم الزهر بها تزهر

11 - وراجع النهر غناء الحمام ... وقد شدت تسجع سجع الخطيب(114)

o o o

# الفصــل الثـامــن

## المبـانــي

يسوغ لنا أن نعتبر ابن زمرك مبدعا في هذا المجال إذ لم يسبقه إلى ذلك غيره من الشعراء . فرأى من اللائق أن يخصص مكانا مرموقا في إنتاجه الشعري لوصف المباني التي يراها رمزا حيا يشهد على عظمة الدولة النصرية في ميدان الفن والعمران ولقد عثرنا في ديوانه على ست مقطوعات[1] بلغ عدد أبياتها الأربعين حيث يدعونا فيها إلى تأمل هذه العجائب من قصور ومنازل سلطانية .

وفي نظر ابن زمرك فإن الفضل يعود لمن أمر بإشادة هذه المباني العجيبة من الأمراء النصريين ولا سيما الغني بالله . ومن الجدير بالذكر أن وصف هذه المباني لم يرد مستقلاً وإنما ضمن قصائد مدحية مبرهناً على حسن صنع الممدوح الذى يبدو لنا رجلا مثقفا ومتحضرا يميل للفن والجمال إلى جانب ما يتمتع به من خصال أخرى سبق لنا ذكرها . وهكذا تضمحل تلك الصورة التي يبدو لنا فيها الممدوح في قتال وحروب مستمرة بما ينجر عنها من تخريب وخسائر فكانت هناك أوقات الهدنة والسلم اغتنمت للتشييد والبناء وهذا ما بقي دليلا - إلى يومنا هذا على حضارة بلغت آنذاك أوجها .

ومن المباني التي اسوقفت ابن زمرك فلنذكر .

### 1- المشـــور :

ذكر ابن زمرك المشور في مولدية طويلة نظمها سنة 767 تضمنت مدح الغني بالله . فلم يطل الوصف وإنما اكتفى بالإشارة إلى ما لا يخفى عن العين . فقال فيه :

69 - لله منه قبة مرفوعة    دون السماء تفوت لحظ الرائي

70 - راقت بدائع وشيها فكأنها    وشي الربيع بمسقط الأنداء(25)

---

(25) انظر الديوان الأرقام : 1 - 41 - 93 - 99 - 103 - 114 .

### 2 - قصـــر شنيـــل :

استعمل ابن زمرك هذا القصر للوصول إلى مدح الغنى بالله فلم يعتبره إلا وسيلة إذ قيمته وفخامته كامنتان فى الأمير النصرى الذى شرفه بزيارته فلا يتعرض شاعرنا إلى وصف هذا القصر وإنما اكتفى هنا أيضا بالإشارة إلى ما فيه وإلى ما يحيط به فيخاطبه طالبا منه أن يثنى على ضيفه ويعترف بفضله فيقول :

19 - ياقصر شنيل وربعك آهـل    والروض منك على الجمال قد اقتصر
22 - قبّل بثغر الزهر كف خليفة    يغنيك صوب الجود منه عن المطر
23 - وافرش خدود الورد تحت نعاله    واجعل بها لون المصاعف عن خفر
24 - وانظم غناء الطير فيه مدائحا    وانثر من الزهر الدراهم والدرر(41)

### 3 - المحـــدث :

هذا المبنى الذى سبق لنا ذكره قد اعتبره ابن زمرك من أفخر القصور وما استحق هذه الصفة إلا لأن الغنى بالله أمر بتشييده . فيشير إليه شاعرنا وسط الرياض المحيطة به فيرسم لنا هذا المشهد البديع لمدينة مالقة :

13 - ياحبذا مبناك فخر الـقصور    بدوحة طالت بروج السما
14 - ما مثله فى سالفة العصور    ولا الذى شاد ابن ماء السما
15 - كم فيه من مرأى بهيج ونور    فى مرتقى الجو به قد سما(114)

### 4 - دار المـــلك :

إن هذا الصنيع المخصص للأمير أبى عبد الله استلفت نظر ابن زمرك الذى غاير طريقة الوصف فيه على المنوال الذى تقدم . فشاعرنا هنا لم يكن مشروكا بمدح الغنى بالله فكانت له حرية فى النظم فخصص شعره لذكر هذه الدار الفاخرة فى حد ذاتها فأطلعنا على بعض الجوانب الفنية التى يتمتع بها هذا القصر فيقول :

60 - ولله مبناك الجميل فإنـــه    يفوق على حكم السعود المبانيا

| | | |
|---|---|---|
| 61 - | فكم فيه للأبصار من متنزه | تجد به نفس الحليم الأمانيا |
| 64 - | به البهو قد جاز البلهاء وقد غدا | به القصر آفاق السماء مباهيا |
| 65 - | وكم حلة جلّلته بحليّها | من الوشي تنسي السابرىّ اليمانيا |
| 66 - | وكم من قسي في ذراه ترفعت | على عمد بالنور باتت حواليا |
| 67 - | فتحسبها الأفلاك دارت قسيّها | تظلّ عمود الصبح إذ لاح باديا |
| 68 - | سوارى قد جاءت بكل غريبة | فطارت بها الأمثال تجرى سواريا |
| 69 - | به المرمر المجلوّ قد شف نوره | فيجلو من الظلماء ما كان داجيا(99) |

### 5 . الحمـــراء :

من المستبعد ألا يخصص ابن زمرك أبياتا لذكر الحمراء الخالدة التى تعتبر إلى حدّ الآن من أروع ما توصل إليه الفن النصرى وإن شاعرنا كان واعيا بقيمة هذا المبنى وبمكانته عند الغرناطيين وغيرهم فجاء وصفه للحمراء بأسلوب ومفردات تعودنا العثور عليها في القصائد المدحية المخصصة للغني بالله . ومن المعلوم أن ابن زمرك لا يفصل بين هذا وتلك فهما متكاملان لا يتأتى لأيهما أن يكون بدون وجود الآخر فحدث لشاعرنا أن يشاهد مشهدا رائعا توسطته الحمراء فيدعونا إلى أن نتأمل ذلك لما أثار في نفسه من إعجاب شديد لا نهائي . فقال :

| | | |
|---|---|---|
| 2 - | قف بالسبيكة وانظر ما بساحتها | عقيلة والكثيب الفرد حاليها |

إلى أن يقول :

| | | |
|---|---|---|
| 17 - | وللسبيكة تاج فوق مفرقها | تودّ درّ الدرارى لو تحليها |
| 18 - | كأن حمراءها والله يكلؤها | ياقوتة فوق ذاك التاج يعليها |
| 19 - | إن البدور لتيجان مكللة | جواهر الشهب في أبهى مجاليها |
| 20 - | لكنها حسدت تاج السبيكة إذ | رأت أزاهره زهرا يجليها |
| 21 - | بروحها لبروج الأفق مخجلة | فشهبها في جمال لا تضاهيها(93) |

# الباب الثالث

---

## ابن زمرك : مذهبه الشعري

# المفـــردات

لقد سبق لنا أن لاحظنا في دراستنا لابن خفاجة أن المفردات مبوبة تبويبا محكما بين الأنواع الشعرية وحتى بين الأغراض[1] . فالمدح له مفرداته الخاصة به وكذلك الأمر بالنسبة للغزل والأنواع الأخرى . فمن هذه الكمية المكدسة اقتبس ابن زمرك « المفردات حسب الاحتياجات »[2] تلك المفردات التي بودنا أن نتعرض لدراستها حتى نوفق لوضع قاموس شاعرنا وليتأتى لنا ذلك فقد اخترنا النوعين من الشعر المتوفرين لدى ابن زمرك ونريد بذلك المدح والغزل . فكل نوع له شبكته من المفردات . وليس الغرض أن نضع قوائم مفردات منعزلة خارجة عن سياقها وإنما غايتنا أن نكتشف كيف ينتظم هذا المجموع اللغوى ولما كان من المستحيل أن نفسر حادثا لغويا بقطع النظر عن سياقه السياسي والاجتماعي والاقتصادى ــ وهذا ما يطرح علينا مشكل العلاقات بين اللغة والتاريخ بشكل لم ننو التطرق إليه ــ لجأنا إلى الاكتفاء بإشارات إلى البيئة التي كان يعيش فيها ابن زمرك . وهذا « سبير » اللغوى الشهير الذى يقول بأن مفردات لغة تعكس بصفة أوضح البيئة المادية والاجتماعية لمن ينطق بها .

وقد تتبعنا في ترتيب هذه المفردات التصميم نفسه الذى وضعناه لدراسة الأغراض الشعرية في القصائد المدحية ثم القصائد الغزلية . وأوردنا كل مفردة متبوعة ببيت من الشعر تضمنها حتى نثبت هكذا معناها في سياق كلام محكم وأتبعنا كل بيت برقمين أولهما رقم البيت وثانيهما رقم القصيدة في الديوان .

## المفردات المدحية :

### ورث - وارث :

ياوارث الأنصار وهي مزية    بفخارها أُثنى الكتاب المنزّل64,1

---

(1) ابن خفاجة ، ص ، 186 .

(2) انظر : « اللغة الفرنسية » رقم 2 : القاموس 1969 مقالة دى سلاكتا « مشاكل القاموس على ضوء البحوث والأعمال الحديثة » .

**فخار ــ مجد :**

أصبحت وارث مجدهم وفخارهم     ومشرف الأمصار والأبطـــال66,38

**سماحة :**

ورث [illegible]سّماحة عن أبيه وجدّه     فالأكرم ابن الأكرم ابن الأكرم75,43

**مآثر** [illegible]

ياوارثا عنها مآثرهـا التـــي     قد شيّدت للفخر أشرف معلم75,55

**حسب ــ سؤدد :**

[illegible] الحسب الوضّاح والسؤدد الذى     يضيق نطاق الوصف فيه عن الحصر37,17

**نسب :**

[illegible]وارث نسب النبوّة جامعا     في العلم والأخلاق والأعراق52,31

**عليــ**[illegible]

[illegible] العلياء كل خليفــة     نماه إلى الأنصار كل مقدّس42,12

[illegible]

[illegible] عن [illegible]     تراث حلال يستخفّ الرّواسيا99,43

**فر**[illegible]

[illegible] الإله على العباد محبةً     لله وفرض كتابها [illegible]ـا9,1

[illegible]

[illegible] مولانــا بعصمــة     بأى باب إلى العلياء قد فتحا11,73

**خصّه الإله :**

[illegible]ـذى قد خصّه الإله بخلافة     إله له في خلقه النهي والأمر27,4

**عناية الله :**

وعناية الله اشتملت رداءها وعلقت منها عروة لا تفصل62,22

**حجّة الله :**

ياحّجة الله التي برهانها عز الحق به وذلّ المبطل11,27

**جنود الله ــ روح الإلٰه :**

وعليك من روح الإلٰه تحيّة تهفو إليك مع الأصائل والبكر41,47

**عطف الإلٰه :**

لما ازدهته عواطف ألطفتها عطف الإلٰه عليك عطف سوار36,14

## المفردات العائدة إلى السلف

**آل نصر ــ أبناء أنصار ــ الأنصار :**

لا غرو أن فقت الملوك سيادة إذ كان جدّك سيد الأنصار32,83

**المفاخر ــ الفخر ــ الفخار :**

من شاء يعرف فخرهم وكمالهم فليتل وحى الله فيهم والسّير40,34

**المجد :**

ما شئت من مجد قديم شاده أبناء قيلة أشرف الأقيال66,31

**المصطفون ــ الأولون ــ السابقون :**

السابقون الأولون إلى الهدى والمصطفون لنصرة المختار32,84

**المؤثرون :**

المؤثرون أثنى الله بهم في الحشر خلّد وصفهم مسطورا30,5

**حنين ــ أحد ــ بدر :**

ففي حنين وفي بدر وفي أحد تلقى مفاخرهم مشهورة فيها93,93

**فتح مكة :**

وبفتح مكّة كم لهم في يومه      بلواء خير الخلق من متقدم75,51

**القرآن ـــ الكتاب المنزل ـــ كتاب الله :**

وإذا كتاب الله يتلو حمدهم      أودى القصور بمنّة الأشعـار32,90

**مصحف الوحي ـــ وحي الله :**

ماذا يجيد بليغ أو ينمّقه      من الكلام ووحي الله تاليها93,96

**الذّكر :**

أبناء أنصار النبي وصحبـه      في الذكر أصبح فخرهم مذكورا30,4

**(41,25) آى السور ـــ آى الكتاب :**

إذا تلـيت مفاخـر قومــه      آى الكتاب بذكرها تتنـزّل63,88

**أثنى :**

ماذا عسى أثنى وقد أثنت على      عليائهم آى الكتاب المحكـم75,54

**خلّد القرآن :**

مآثـر خلـد الرحمن أثــرتها      ينصها من كتاب الله قاريها93,95

**حزب الرسول :**

أنصار دين الله حزب رسوله      والسابــقين بحليــة العليـــاء1,56

**المختــار :**

من آل سعد رافعي علم الهدى      والمصطـفين لـنصرة المختــار39,28

**خير الورى ـــ خير الخلق :**

أنصار خير الورى مختار هجرته      جيران روضته أكرم بأهـليها93,91

**الصحيح والسير :**

واسأل مواقفهم بكل مشاهد      واقرأ المغازى في الصحيح وفي السير41,38

# المفردات العائدة إلى الذات

**محيّا :**

إلى أن بدا الصبح المنير كأنه   محيّا ابن نصر لم يشن بغروب4,3

**وجــه :**

يا من له الوجه الجميل إذا بدا   فـاقت محاسنـه البـدور كمالا57,1

**وجنــة :**

بوجه يرينا البدر عند طلوعه   وفي وجنة البدر المنير التكلّف48.21

**الغـــرّة :**

لك غرة ودّ الصباح جمالها   ومحاسن تهوى البـدور كمالها96,1

**جبــين :**

ورأت جبينا دونه شمس الضحى   لبّتـه بالإجــلال والإكبـــار32,21

**طلعــة :**

ذو غـرة تسحـر البـدور   وطلعـــة تخجــل الصبـــاح113,18

**ثغـــر :**

ثغرك الوضّاح مهما أومض   أخجـــــــــــــــــل البرق112,29

# المفردات المقتبسة من الطبيعة

**الصّبــاح :**

يقابلني منك الصباح بوجنة   حكى شفقا فيه الحياء الذى تبدى24,38

**الضحــى :**

محيّاك أجلى في العيون من الضّحى   وذكرك أحلى في الشفاه من الشهد24,40

**الشمس :**

أطلعت وجها تريك الشمس غرّته    تبارك الله ما شمس تساميها93,69

**البـدر :**

يابدر تـمّ في سماء خلافـة    حفّت نجوم السعد هالة قصره83,1

**الهـلال :**

طلع الهلال وأفقـه متهلّـل    فمبكّـر لطلوعـه ومهلّـل63,1

**لاح ـ تجلّى ـ طلع ـ بدا :**

**بهر ـ عشا :**

يامن إذا لاحت محاسن وجهه    تعشو العيون ويبهر المتأمـل63,86

## المفـردات الخلقيـة

**شمائل :**

شمائله مهما أديرت كؤوسها    قلائـد أسماع وأنس قلـوب4,4

**مناقـب :**

ياوارثـا عنها المنـاقب    التي تسمو مراقيها عن الجوزاء1,61

**سجايـا :**

رقّت سجاياه وراقت مجتلى    كالشمس في بعد وفي إشراق52,28

أهـــدى ........

**محامـد :**

للبـاسه ثوبـا وقـد    لبس المحامـد وارتـدى15,2

**محاسـن :**

لقد كملت فيك المحاسن كلّها    وما كلّ من يعطى الخلافة كامل61,112

**شيم :**

شيم يقرّ الحاسدون بفضلها والصبح ليس ضياؤه بمكتم75,42

**خلق :**

خلق ابن نصر في الجمال كخلقه ما بعدها من غاية تستكمل62,14

**خلال :**

والروض في نعمته يغتدى بطيب ما قد حزته من خلال118,23

**المعالي :**

معال إذا ما النجم صوّب طالبا مبالغها في العزّ خلّف وانيا98,27

**الكمال :**

من قاس بالبدر المنير كماله فالبدر ينقص والخليفة يكمل63,82

**الإخلاص :**

سريرة لك في الإخلاص قد عرفت حسنى عواقبها حتى أعاديها93,55

**الهمّة :**

تطاولت علوى النجوم بهمّة لا فاقدا عزّا ولا مكسال66,45

**الهمام :**

يا أيها الملك الهمام المجتبى فاقت علاك مدارك العقلاء1,73

**الطاهر :**

الطّاهر الطّاهر الهمام أعزّ من صال وافتخر113,21

## المفردات المقتبسة من الطبيعة

**الروضة ـ الروض :**

وشمائل كالرّوض باكره الحيا وسرت بريّاه الصبا والشمائل62,13

**الأزهـــار :**

أضياء هدى أم ضيـاء نهار وشذا المحامد أم شذا الأزهار36,1

**النهـــر :**

رقّت سجاياه وراقت مجتلى كالنهر وسط الروضة الفيحاء1,53

**الشمس ـــ الزّهر ـــ البدر :**

كالزّهر في لألائه والبدر في عليائـه والزّهـر في الإبـراق52,29

**النجـــوم :**

« سبق ذكر الشاهد فيه » 66,45

**الكواكـــب :**

لاحت مناقبه كواكب أسعد فرأت ملامح نوره عين العمى75,32

**الثواقـــب :**

تلك المناقب كالثواقب في العلا من رامها بالحصر أدركه الحصر41,42

**الأكـــوان :**

لقد ضاقت الأكوان وهي رحيبة بما حزت من فخر وسؤدد18,13

**قلائـــد :**

شمائله مهما أديرت كؤوسها قلائـد إسماع وأنس قلـوب4,4

**الجوهر ـــ الصدف :**

وياصدفا قد حاز جوهر العلا لكل نفيس بالنفـاسة مفـرد18,9

**الصنـــدل ـــ المســـك :**

يامن إذا نفحت نواسم حمده فالمسك يعبق طيبه والصندل63,85

**المـــاء :**

وما الماء في جوف السحاب مروّقا　　بأطهر ذاتا منك في كنف المهد24,72

**أنار ــ أبرق ــ أشرق ــ لألأ ــ طاول ــ فاق ــ سما :**

## المفــردات في الكــرم

**الجـــود :**

حنينا لمولى أتلف المال جوده　　ولكنـه خلّـد الفخـر باقيـــا100,2

**التكـــرّم :**

فالبدر دونك في علا وإنارة　　والبحر دونك في ندى وتكرّم75,37

**سخا ــ جاد ــ أعطى :**

تعطي الذى لا فوقه لمؤمّل　　وتجود بالإحسان قبل سؤال66,44

**الغمـــام :**

تسخو الغمام ووجهها متجهّم　　والوجه منه مع الندى يتهلّل63,77

**السحـــب :**

إذا استمطرت في المحل بنانه　　فهن لمستجد هـوام هوامــل61,16

**الغيـــث :**

وفي الروض من رياك عرف ونفحة　　ومن الغيث من يمناك جود ونائل61,94

**الحيـــا ــ النـــدى :**

كفّ أبت ألا تكفّ عن الندى　　أبدا فإن ضنّ الحيا تسترسل62,12

**عشرة أبحر ــ البحر :**

سل بالغمائم صوبها عن كفه　　تنبيك عن بحر بها زخـــار32,42

**اليـــد :**

وجه كما حسر الصباح نقابه　　ويـــد تمدّ أنامـــلا ببحـــار39,30

**الكـف :**

قبّل بثغر الزّهر كفّ خليفة　　يغنيك صوب الجود منه عن المطر 41,22

**الرّاحـة :**

لك راحة تزجي الغمام بأنمل　　فجّرت منها بالنـوال بحورا 31,

**اليمنى :**

ودعني أرد يمناك فهي غمامة　　تبخّل صوب العارض المتجبّس 42,20

**الأنمـل :**

فجّرت من كفيك عشرة أبحر　　تزجى سحاب الجود وهي الأنمل 63,75

**البنـان :**

ولا عيب فيه غير أن بنانه　　تغرق مستجديه في أبحر الندى 103,55

**تفجّر ـ فاض :**

فاضت علينا من نداك غمائم　　وتفجّرت من راحتيك بحورا 30,6

**سـال :**

وإن سال ماء البشر فوق جبينه　　فليس بمدفوع على الورد سائل 61,17

**ساكب ـ غيداق ـ واكف :**

أودى الذى غيث العباد بكفّه　　يزرى بواكف غيثك الغيداق 52,41

**زخّار ـ صوب :**

« سبق ذكر الشاهد فيهما » 32,42

**مورد ـ مناهل ـ نهل :**

فوجدته قد طلّه صوب الندى　　بسحائب تنهل من يمنـاك 53,4

**هوامل ـ هوام ـ همل ـ همى :**

62,7

**أغــرق :**

سبق ذكـر الشاهـد فيــه 103,55

**والى ــ روّى :**

فروّاهم من عذب جودك كوثر ووواليت من نعماك ما ليس يحصر103,322

**عــمّ :**

أتعطش أولادى وأنت غمامة تعمّ جميع الخلق بالنفع والسقيا101,1

**ورد :**

« سبق ذكر الشاهد فيه » 42,20

**الظمآن :**

يامـــورد الظمــــآن ورأس مـــــال المعسر106,42

**المستجدي :**

سبق ذكر الشاهد فيه 61,16

**الصــادى :**

هو الغيث مهما يمسك الغيث سحبه يروى بسحب الحود من كان صاديا99,38

**العافــي :**

هو البحر بالإحسان يزخر موجه ولكنه عذب لمن جاء عافيا99,37

**السّائل ــ الراجي :**

فراجيه تستجدى العفاة نواله وسائله ترحي إليه الوسائـل61,90

**المحل ــ المحول :**

« سبق ذكر الشاهد فيه » 61,16

**المــوات :**

يحكي الخليفة كفّا كلّما وكفت بالجود فوق موات الأرض يحييها93,37

## المفردات في القوة

**اللّيــث :**

كابن نصر تراه في الحرب ليثا وهو بدر الهدى وغيث السّماح14

**الدّهر :**

كالدّهر في سطواته وسماحه تجرى صباه بزعزع ورخـاء1,52

**العزم ـــ الرأى :**

وعزم كما انشقّ الصباح مصمّم ورأى به بيض الصوارم ترهف48,22

**الحروب ـــ الحرب :**

إن شمّروا يوم الحروب ذيولهم سحبوا من الزّرد المفاض ذيولا56,101

**الوغـــى :**

مولاى سعدك كالمهنّد في الوغى لم يبق من رسم الضلال و لم يذر41,29

**الطّعـان :**

وقصروا يوم الطّعان رماحهم وصلوا بها الخطو الوساع طويلا56,102

**القـــراع :**

سعودك تغني عن قراع الكتائب وجودك يزرى بالغمام السّواكب103,71

**الغـــوار :**

يامرسل الخيل في الغـــوار لـو تطـلب البرق تلحـــق113,23

**الكفـــاح :**

غيوث سماح والعفاة مسايل ليوث كفاح والكماة تنازل61,11

**الطّـــراد :**

شهب وشقر في الطراد كأنها روض تفتّح عن شقيق بهار32,79

**يـوم اللقـاء :**

**أنسى سماحة حاتم وكفاك في يوم اللقاء ربيعة بن مكدّم**75,35

### الفتح :

فأثمر فيها النصل نصرا مؤزرا فأجنى قطاف الفتح غضا ودانيا39,50

### الجهـــاد :

وكم من جهاد قد أقمت فروضه يزار به البيت العتيق وزمزم70,10

### القتـــال :

والعاديات إذا تلت فرسانها آى القتال صفوفها تترتّـل63,62

### فتّـــح :

فتح بالسيف الممالك عنـوة ومدّت له أملاكها كّف مجتدى18,

### غـــزا :

وإذا غزوت فإنّ سعدك ضامن ألّا تخيب وإن قصدك يكمل62,39

## الجيـــوش

### جيش :

تظلّل سحب الطير جيشك حيثما تميل الرايات وهي حوامـل61,102

### جنـــود :

وإذا أنت لم تزج الجنود إلى العلا فإن جنود الله عنك تقاتل61,95

### عسكـــر :

من أشهب كالصّبح يطلع غرّة في مستهلّ العسكـــر الجرّار32,74

### جحفل ( جرار ) :

فمن السّعود أمام جيشك موكب ومن الملائك دون جندك جحفل62,40

### كتائب ـــ كتيبة :

وحولك من حفظ الإله كتائب وفوقك من ظل السعادة رفرف48,23

**طلائع ــ طليعة :**

فقل لعميد الرّوم دونك فارتقب طلائع فيها للمنايا رسائل61,104

## الســـــلاح

**سلاح :**

من كلّ منفخر بلمحة بارق حمل السّلاح به على طيّار32,73

**سيوف ــ سيف :**

هذه سيوفك في الأجفان نائمة والمشركون سيوف الله تفنيها93,55

**رماح ــ رمح :**

تبلّ غليل الرمح من مهج العدا إذا ما كست منها الرماح غلائل61,110

**صوارم ــ صارم :**

وعزم لما انشقّ الصباح مصمّم ورأى به بيض الصوارم ترهف48,22 «

**قنا :**

ولولاك لم تنهل غصون من القنا وكانت إلى ورد الدماء صواديا99,49

**حسام :**

كم عزمة جرّدت منها إلى العدا حساما به داء الضلالة يحسم70,11

**بيض :**

نصرت بالرّعب في القلوب والبيض لم تبرح الغمود107,35

**سمر :**

كم موقف ترهب الأعداء موقفه والخيل تردى ووقع السّمر يرديها93,65

**أسنة ــ سنان :**

ترى الدّوح منها بالأسنّة مزهرا إذا ما سقته السيوف الجداول61,169

**نصـــزا ـــ نصول :**

ولولاك لم ترفع سماء عجاجة تلوح بها بيض النصول دراريا99,48

**قسيّ ـــ قـوس :**

ما إن رفعت قسيّ السفن في وطن إلا ونلت قصيّ السؤل والوطر35,2

**أسهم ـــ سهام ـــ سهم :**

وإن لم تقومها بسهاما مريشة فأسهام اللـه عـنك تنـاضل61,96

**دروع ـــ درع :**

حدائق خضر والدّروع غدائر وما أنبتت إلا ذوابل مرّان78,64

**درع ـــ زرد ـــ زرود :**

إن شمروا يوم الحروب ذيولهم سحبوا من الزّرد المقاض ذيولا56,101

## صفـاتهـا

**مهنّـد :**

مولاى سعدك كالمهند في الوغى لم يبق من رسم الضّلال و لم يذر41,39

**مثقّف :**

من كل معتدل القوام مثقف لكنه دون الضريبة يـعسل62,47

**يمانـي :**

فرأي كما انشق الصباح وعزمة كما صقل القين الحسام اليمانيا98,49

**لمّاع ـــ لموع ـــ لامع :**

وشهاب أفق أم سنان لامع ينقضّ نجما في سماء غبـار32,36

**بـارق ـــ بـروق :**

وللسيوف بروق كلما لمعت تزجي الدّماء وريح النصر يزجيها93,68

**صقيــــل :**

سلّت يمين الملك منك على العدا عضبا مهيب الشّفرتين صقيلا56,88

**رقـراق :**

حسامك رقراق الصفيح كأنه بكفّك من ماء السّماء ينطف48,46

**أبيض ـ ناصع :**

أوردت صفح السّيف أبيض ناصعا فأصدرته في الرّوع أحمر قانيا98,51

**مريشــة :**

« سبق ذكر الشاهد فيــه » 61,96

**ذوابل ـ ذابل**

وخضرة الأرجاء في جنباتها مسارح تحميها الرّماح الذوابل61,108

**عضــــب :**

« سبق ذكر الشاهد فيه » 56,88

**أمضى ـ مضاء ـ ماض :**

وعزمك أمضى من حسامك في الوغى وإن كان مصقول الغرارين ماضيا99,44

## المفردات المقتبسة من الطبيعة

**جـداول :**

فإذا الحروب تسعّرت أجزالها ينساب في يمناك منه جدول62,51

**أنهــار :**

إذا ظمئت منها الذوابل في الوغى جداول أنهار السيوف تروّيها95,45

**غدائر ـ غدير :**

لبسوا الدروع غدائرا مصقولة والسّمر قضب فوقها تتهدّل62,46

**هــلال :**

وكم هلال لقوس كلما نضبت ترى النجوم رجوما في مراميها93,58

**شهــب :**

وللأسنة شهب كلّما غربت في الدّار عين تجلّت من عوّاليها93,67

أنجـــم :

وكم ليلة قد جئت فيها بليلة        من النّقع فيها للأسنة أنجم70,13

## المفردات العائدة للغبار

غبـــار :

وشهاب أفق أم سنان لامع        ينقضّ نجما في سماء غبـار32,36

نقـــع :

ولا عيب فيه غير أن سنانه        إذا شم ريح النقع في الحرب يرعف42,49

عجاجة ــ عجاج :

ثارت عجاجته واليوم محتجب        والنقع يؤثر غيما من دياجيها93,66

قتـــام :

وشم بارق السيف اللّموع جفونه        سحاب قتام تحته الدّم سائل61,105

تيّار :

أرست بجودى الجود في يوم الندى        وجرت بيوم الحرب في تيّار36,7

## مفــردات اللــواء

لـــواء :

العزّ مجلوب بكلّ كتيبـــة        والنصر معقـود بكـل لـواء1,60

رايـــة :

ألواء صبح في ثنية مشرق        أم راية في جحفل جـرار32,35

أعــلام ــ علــم :

أعلامك الحمر فوق السفن خافقة        وريح سعدك تجريها على قدر35,1

بنـــود ــ بنـــد :

وتخفق بالنصر العزيز بنـوده        إذا خفقت فيها الصّبا والشمائل61,76

# المقاتلــون

## 1) المسلمـــون :

### ليـوث :

« سبق ذكر الشاهد فيه » 61,11

### آساد الرجال :

ولـكنها والله ينجز وعـده جوار بآساد الرجال حوامل 61,107

### أبـطال :

حملت من الأبطال كلّ مشمّر لا يقتني سمر القنا ونصولا 56,99

### فرســان :

والعاديات إذا تلت فرسانها آى القتـال صفوفهـا تترتـل 63,62

### جيـاد :

لك الجياد إذا تجرى سوابقها فللريـاح جيـاد مـا تجاريها 93,71

### كماة ـ كميّ :

حتى إذا ملك الكمِيّ عنانهُ يهوى كما يهوى بجوّ أجدل 62,44

## 2) الأعـداء

### الـرّوم :

« سبق ذكر الشاهد فيه » 61,104

### الكفر ـ الكافرون ـ أئمّة الكفر ـ الكفّار :

أئمة الكفر ما يمّمت ساحتها إلا وقـد زلـزلت صيـاصيها 93,66

### المشركـون :

هذى سيوفك في الأجفان نائمة والمشركون سيوف الله تفنيها 93,55

. عبّاد المسيح :

فأصليت عبّاد المسيح من الوغى سعيرا به يرضى المسيح ومريم70,28

عبّاد الصليب :

وتفتح من بلدانه كلّ مقفل يعبد عبّاد الصليب ويؤسف48,44

فرية التثليث :

سلّ السّعود وخلّ البيض مغمدة واضرب فيها فرية التثليث تفريها93,50

الأعداء ـ الأعادى ـ العدا :

لسيفه في العدا احتكام جرى به سابق القدر113,22

عداة الدين :

تخاف عداة الدين منهم وتتّقى كما تتقي الأسد الظباء الجوافل61,13

المفردات العائدة للخوف

يخاف ـ خاف :

تخاف عداة الدين منهم وتتّقي كما تتقي الأسد الظباء الجوافل61,13

يفرق ـ فرق :

وتفرق أسد الغاب منه بسالة وترضاه أنصار الرسول سلالة103,94

يرهب ـ رهب :

كم موقف ترهب الأعداء موقفه والخيل تردى ووقع السمر يرديها93,65

الرّعب :

نصرت بالرّعب في الحروب والرّعب أجدى من السلاح111,33

يروع ـ راع ـ الرّوع :

همام يروع الأسد في حومة الوغى كما راعت الأسد الظباء الجوازيا98,30

المهابـــة :

أخذت قلوب الكافرين مهابة فعقولهم من خوفها لا تعقل63,98

## المفردات العائدة إلى القضاء على العدو

يدمى ــ دماء ــ دم :

وذابل من دم الكفار مشربه يجني الفتوح وكفّ النصر تجنيها93,84

دم موار :

عوّدتها أن ليس تقرب منهلا حتـى يخالـط بالــدم الموار32,80

عسجـد :

لم يرض سيفك أن يحلى جوهرا حتى يحلّى عسجدا محلـولا56,89

## الأعضـــاء المصابـــة

رؤوس ــ أروس ــ رأس :

تجرى الرؤوس حبابا فوق صفحته وما جرى غير أن البأس يجريها93,83

قلــوب :

« سبق ذكر الشاهد فيه » 63,96

مهــج العــدا :

تبلّ الرمح من مهج العــدا إذا ماكست منها الرماح الذوابل61,108

مقاتــل :

تريش لك الأقدار أسهم أسعد تصاب بها للدار عين مقاتل61,97

جنى ــ قطف :

فما أرؤس الكفار إلا حصائد بسيفك سيف الله تجني وتقطف48,45

**روّى :**

فياعجبا للرمح روّيته دما وقد راق منه العين ريّان ذابل61,111

**أصدر :**

أوردت صفح السيف أبيض ناصعا فأصدرته في الروع أحمر قانيا98,51

**يبلّ ــ بلّ :**

سبق ذكر الشاهد فيه 61,110

**يبيد ــ أباد :**

فلاقي بها عقبان طير وراية تبيد الأعادى والرماح حبائل61,103

**يفنى ــ أفنى :**

سبق ذكر الشاهد فيه 93,55

**يجرى ــ جرى :**

سبق ذكر الشاهد فيه 93,83

## المفردات العائدة إلى تدخل الله

**أمر الله :**

وسرت وأمر الله طيّ برودها يهدى البرية صنع لفظ البارى32,4

**عادة الله :**

وعادة الله فيك دلّت أنك بالكفر تظفر107,42

**قضى الله :**

قضى الله من فوق السماوات أنه على من أبى الإسلام في الأرض قاضيا99,52

**حفظ الإله :**

وحولك من حفظ الإله كتائب وفوقك من ظلّ السعادة رقرق48,23

**يد الأقدار ـــ القدر :**

لسيفـه في العـدا احتكـام　　　جـرى بـه سابـق القـدر113,22

**جنـد الله :**

من كان جندك جند الله ينصره　　　أناله الله ما يرجوه وأسناه80,25

**ملائك السبع :**

يغزو أمامك والسعود أمامه　　　وملائك السبع العلا تتنـزّل63,12

**سيوف الله :**

سبق ذكر الشاهد فيه　　　93,55

**اسهام الله :**

سبق ذكر الشاهد فيه　　　99,96

**التوحيد ـــ التثليث :**

ففتحت مرقاة الممنّع عنـوة　　　وبات التوحيد يعلو مناديـا99,54

**التكبير :**

يتجاوب التكبير في جنباتها　　　فتعيـده غـرّ الجيـاد صهيـلا56,98

**أصلى سعيرا ـــ جهنم :**

ونهر حسام كلّما أغرق العدا　　　تلـقتهم منـه سريعا جهنّـم70,27

## المفردات العائدة إلى دور الملك في المجتمع

**يمن ـــ أمّن :**

والله ما عرف الزمان وأهله　　　أمنـا ويمنـا دائمـا لـولاك53,2

**مؤمن ـــ أمّن :**

مؤمّن ظلال العدوتين مما يخاف　　　مـــن سطـــوة العـــدا110,33

**ظلال الأمن :**

ومدّ ظلال الأمن إذ قصر العدا    فيتلى ثناء الملك بالمدّ والقصر37,22

**الأمان :**

كم ليلة قد بتّ فيها ساهرا    تهدى الأمان إلى العيون النُّوَّم75,60

**أيام غرر :**

يـاأيها الملك الـذى أيّامـه    غرر بوجه الدهر لا تتقنّع46,2

**أعياد كبر :**

في كل يوم من زمانك موسم    في طيّه للخلق أعيـاد كبر41,32

**دار النعيم :**

قد أذكرت دار النعيم عبيده    وتضمنت من فضله رضوانا76,3

**ثوب الكرامة :**

ألبستهم ثوب الكرامة ضافيا    وأرحت من كدّ وارهـاق52,44

## الأفعـــال وأسمـــاء الفاعـــل

**شيّد دولة :**

وشيّدها والمجد يشهد دولـة    محافلها تزهـى بيمـن وإيمان78,72

**أعاد الملك :**

إمام أعاد الملك بعد ذهابه    إعادة لا نابي الحسام ولا واني78,70

**آنس الملك :**

فآنس من تلقائك الملك رشده    ونال بك الإسلام ما كان راجيا98,47

**أفاد بالمكرمات :**

إمام أفاد بالمكرمات زمانـه    وشاد له فوق النجوم العواليا99,34

**جـــدّد :**

مولاى مولاى وأنت الـذى جدّدت للأملاك عهد الجلال118,21

**أبقى شرفا :**

إن الخلافة ــ أعلى الله مظهرها أبقت لنا شرفا والله يبقيها93,89

**شاف ــ شفى :**

وافيت هذا الثغر وهو على شفى فشفيت معضل دائه المستحكم75,58

**راعى :**

وراعيته بسياسة دارت على مختطّــه دور السّوار بمعصم75,59

**حمى :**

فلا زلت للعلياء تحمي ذمارها وتسحب أذيال الفخار على النسر37,26

**هدى :**

هديت سبيل الله من ضلّ رشده فلا زلت مهديا إليه هاديا98,35

**مورد ــ أورد :**

وأندلسا أوليت ما أنت أهله وأوردتها وردا من الأمن صافيا98,42

**والى :**

واليت للخلق ما أوليت من نعم والى لك الله ما أولى ووالاه80,53

**ألبس :**

عطفت على الأيام عطفة راحم وألبستها ثوب امْتِنانِكَ ضافيَا98,46

**قلّد :**

قلّدت عطف الملك منه صارما بفنائــه ومضائــه يتمثّـــل63,10

**حلّى :**

حلّيته بحلى الكمال وجوهر الـ ـخلق النفيس وكل خلق يجمل63,11

**بلّغ :**

بلّغت آمال العبيد فبلّغت — فيك العبيد من البقا آمالها 96,7

**ذلّ ــ اعتزّ :**

ودمت لألف مثله في سعادة — يذلّ بها باغ ويعتزّ مسلم 70,50

**أراح :**

سبق ذكر الشاهد فيه — 52,44

**محيي المعالي :**

عميد بني الأنصار غير مدافع — ومحيي معاليها ومولى مواليها 95,3

**فارج الكرب ــ مذهب الخطب :**

وفارج الكرب إن ألما — ومذهب الخطب والرّدى 110,34

## صفات الملك

**فخر الوجود ــ فخر الأندلس :**

يافخر أندلس وعصمة أهلها — كم خضت طوع صلاحها من مهمه 1,62

**ظلّ الإله :**

ظلّ الإله على البلاد وأهلها — فخر الملوك السادة الخلفاء 1,50

**شمس خلافة ــ شمس هدى :**

وشمس هدى بلا مغيب — وبحر جود بلا حسر 108,32

**بدر الهدى :**

وبقيت يابدر الهدى تجرى بما — شاءت علاك سوابق الأقدار 32,102

**غوث العباد ــ غوث البلاد :**

لا زلت ياغوث البلاد وأهلها — مبلّغ أوطار ممهّد أوطان 78,77

**رحمة ــ مورد رحمة :**

فلا زلت يامولاى مورد رحمة　　　عطاش الأماني في رضاك نواهل61,120

**حرم العفاة :**

علم الهداة قطب أعلام الورى　　　حرم العفـاة لمجتنـى الأرزاق52,27

**ملاذ :**

ياإمامـــا قـــد تخذنـــا　　　ه مـــن الدهـــر مـــلاذا26,1

**مجير ــ ولي :**

حسب الخلافة أن تكون وليّها　　　ومجيرها من كل ما يتخيّل63,90

**منعم :**

في كلّ يوم منك منه منعم　　　لو طاولت سمك العلا ما طالها96,6

**قرّة العين :**

في كل عين من محيّاك قرة　　　وفي كل كفّ من نوالك أنعم70,40

## المفـــردات في العـــدل

**العدل :**

وعدلك للأملاك أوضح مرشد　　　بآثاره في مشكل الأمر تقتدى103,28

**ظلال العدل :**

مدّ ظلال العدل في كل وجهة　　　وكفّ أكفّ البغي من كل معتدى18,17

**أفاض عدله :**

ملك أفاض على البسيطة عدله　　　فالشاة لا تخشى اعتداءَ الضَّيْغمِ75,30

**يجلو ــ جلا :**

طلعت في أفق الخلافة نيّرا　　　تجلو ظلام الظّلم والإظـلال66,38

**باسط العدل :**

سبق ذكر الشاهد فيه 111,30

**أقام الحدود :**

فسيفك سيف الله مهما سللته يقيم حدود الله قائم حدّه84,9

## المفـــردات العائـدة إلى المــلك والإســـلام

**الإسلام :**

لا زلت للإسلام سترا كلّما أمّ الحجيج البيتَ ذا الأستار32,101

**عزّ الإسلام :**

طوى الحيف منشور اللواء مؤيدا فعز حمى الإسلام بالطي والنشر37,21

**ناصر الإسلام :**

ياناصر الإسلام ياملك العلا إليـه يؤتـيك الجزاء جزيـــلا56.105

**ناصح الإسلام :**

قد ناصح الإسلام خير خليفةٍ وحمى عرينَ المُلْكِ أغلب مشبل62,60

**الدين :**

لولاك كان الدّين يغمط حقه ولكان دين النصر فيه يمطل62,35

**دين الله :**

أمولاى يافخر الملوك ومن به سيبلغ دين الله ما كان راجيا99,121

**ناصر الدين**

سمّي رسول الله ناصر دينه معظمه في حال سرّ وإعلان78,61

**الإيمان :**

وجدّد للفتـح المبين مــواسما أقام بها الإيمان أفراح معرّس42,4

**الجهاد :**

وكم بيت مال في الجهاد بذلته وأقرضت منه الله ما الله يعلم70.12

**أحيى الجهاد :**

أيّد الله من أحيى جهادهم ﷺ وأوصل الفخر أولاه بأخراه80.27

**سنّة الأنصار :**

جدّدت دون الدين عزمة أروع جـدّدت منها سنـة الأنصار39.31

**أدّى فريضة :**

هي سنة أحييتها وفـريضة أدّيتها قربـــاتها تتقبـــل62.54

**قام بمفروض :**

قام بمفروض الجهاد عن الورى وعوّد دين الله خير معـوّد18,18

**ألبس الإسلام :**

وألبسته بردا من الفخر ضافيا على عطفه وشي المديح يفوّف48,52

**طهّر :**

طهّر محاربا وجدّد مـــنبرا وأعلن ذكر الله في كل مسجدِ18,22

**كسّر التماثيل :**

كسرت تماثيل الصليب وأخرست نواقيس كانت بالضلال تناغيها93,41

**أخرس النواقيس :**

البيت السابق .

**منبر ـــ ناقوس :**

وناقوسه بالقسر أمسى معطّلا ومنبره بالذكر أصبح حاليـا99,56

**دعوة الحق ـــ أعاد الأذان :**

وكم من منار قد أعدت أذانه وأعلن فيه دعوة الحق داعيها93,42

**التكبير والتهليل :**

كم بلدة للكفر قد عوّضت من ناقوسهـا التكـبير والتهليـــل56,83

**التوحيد :**

ففتحت مرقاة الممنع عنــوة وبات به التوحيد يعلو مناديا99,55

**تعليق**

إن حصر المفردات المستعملة في المدح أدانا إلى توزيعها على شبكتين تتفاوتان كمية ، كلتاهما تنتظم حول محور أساسي فالأولى تخص السلف والثانية تخص الملك الممدوح . ويلاحظ في كثير من الأحيان امتزاج الشبكتين لتكونا شبكة واحدة الغاية منها إبراز الشخصية الممدوحة التي هي صميم الموضوع الذي يشغل بال الشاعر المادح .

إن الأغراض الشعرية التي تعرض إليها ابن زمرك قد فرضت على هذا الأخير اختيار مفردات معينة تنتظم هي الأخرى بدورها حول مفردة أساسية تبدو أهميتها في ترددها محتلة هكذا مكانا مرموقا تتميز به عن غيرها .

فإذا التفتنا إلى غرض « الأصل » لاحظنا أن الشاعر يؤكد على « الوراثة » وأن الفعل ورث مع مشتقاته قد استعمل إحدى عشرة مرة وهذا ما يؤدى ابن زمرك إلى ذكر الوارث والوقوف عنده طويلا لإبراز طبيعته وأن المفردتين الأكثر استعمالا هما الفخر والمجد الموجودان عند السلف . ولا سيما الفخر الذى ورد ذكره تسع مرات فهناك ارتباط وثيق بين السلف والخلف .

وإن الرغبة الشديدة للشعراء العرب في تتبع سلالة ممدوحهم إلى الوصول به إلى أسرة الرسول ( ﷺ ) وإلى أقاربه أدت ابن زمرك هو الآخر إلى البحث عن هذه الرابطة فاعتمد لذلك على الفعل نصر الذى اشترك فيه بطريقة الاشتقاق بنو نصر وأنصار النبي ( ﷺ ) بالمدينة المنورة فاستخلص أن الملك النصرى الغني بالله ينخرط فى هذه النخبة وأصبح مشرفا بالانتماء إليها وهذا ما يفسر استعمال تلك المفردات التاريخية العسكرية وحتى القرآنية مبديا هكذا أن ممدوحه

لم يكن له إلا أن يواصل عمل أولئك السابقين في نصرة الإسلام كما أراده الله تعالى والدليل على هذه الإرادة هي تلك المفردات التي أحصيناها قد جعلت من الغني بالله الرجل المصطفى والأفضل للارتقاء على العرش ولتسيير شؤون الأمة الغرناطية . وإن كل مسلم ليستسلم بدون نقاش أمام هذا الوضع ويتقبل بكل ارتياح شرعية الخلافة .

ثم يأتي ابن زمرك إلى وصف ممدوحه ويبدأ بوصف أخلاقه وملامحه الذاتية إلا أن المفردات التي جمعناها في هذا الشأن اقتصرت على وجه الملك في جملته ثم في مكوناته . وقد أكثر من ذكر الوجه فتكررت هذه المفردة ستاً وعشرين مرة إلى جانب مترادفاتها إذ أورد « المحيا » ثماني مرات والغرة إحدى عشرة مرة والجبين ست مرات والوجنة والثغر كل منهما ثلاث مرات . فهذا الاعتناء بالوجه يعود إلى الاعتقاد السائر بأن الوجه مرآة تعكس العواطف كاشفة هكذا عن سريرة الإنسان . وإن التأكيد على بهاء الوجه ولمعانه أدّى ابن زمرك إلى اقتباس مفرداته من الطبيعة مفردات اقتصرت على البدر في تمامه الذى ورد ذكره إحدى وعشرين مرة وعلى الشمس والصبح الذى ورد ذكر كل منهما تسع عشرة مرة هذا إلى جانب الأفعال التي ترافق عادة هذه المظاهر الطبيعية .

وأما المفردات المستعملة في الخلق والخصال الحميدة فقد وردت في غالب الأحيان غير مدققة فهي جموع لا يعنى بها خصلة معينة مثل « المحامد » و « المناقب » و « المحاسن » وما أشبه ذلك . ولقد حدث مرة أن ذكر ابن زمرك خصلتين بدقة فأشار إلى « الإخلاص » وإلى « الهمة » .

وقد يعثر أيضا على مفردات مقتبسة من الطبيعة هي تلك التي سبق ذكرها في وصف الملك من بدر وشمس وصبح إلا أنها لم ترد بتلك الكثرة التي لاحظناها ولكن إلى جانب ذلك فإنه قد أكثر من مفردات طبيعية أخرى عزّز بها ما قل مثل الأزهار والندى والحجارات النفيسة إلى جانب الروائح الطيبة مثل المسك والند والصندل .

وما يلفت النظر هو المكان المرموق الذى احتله الكرم فهذا الغرض جاء

مفصلا إلى الغاية . إذ هو الموضوع الأساسي في القصيدة المدحية فمن المعلوم أن الشعراء العرب في أغلبيتهم كانوا يعيشون من العطايا والهدايا التي يمنحها لهم الممدوحون. فكان من الطبيعي أن تتردد هذه المفردة بدون ملل ولا كلل .

وإن المفردات التي أحصيناها قد جاءت في معظمها مستعارة . فمفردة « الجود » لم يرد ذكرها إلا خمس عشرة مرة ومرادفها « التكرم » مرة واحدة فقط . وإن المفردة التي كثر ترددها هي « الماء » بمختلف أشكاله كالغمام والسحب التي ورد ذكرها سبعا وعشرين مرة ثم الغيث والحيا تسع عشرة مرة ثم الندى سبع عشرة مرة وأخيرا البحر تسع عشرة مرة وهذه المياه كلها اتصلت باليدين اللتين ورد ذكرهما ثلاثاً وعشرين مرة فعثرنا على الرحى واليد والكف مع تفضيل اليد اليمنى على اليسرى وهذا يعود من دون شك إلى اليد التي تمنح الهدايا وتمدها من جهة ومن جهة أخرى فلا ننسى أن اليد اليمنى فضلها الله تعالى ورسوله ( ﷺ ) . وإلى جانب اليد فقد عثرنا على مايقوم مقامها مثل البنان والأنامل ولعل الغاية من ذلك مضاعفة المنابع المتدفقة بالخيرات .

إن هذه المجموعة من المفردات تجلب مجموعة أخرى من أفعال وأسماء الفاعل تشير إلى الوفرة مثل : فاض ــ واكف ــ تفجر ــ زخار ــ أغرق ، وما أشبه ذلك .

فمن المعلوم أن هذه المياه مياه نافعة تشفي العليل وتطفيء الظمأ ومن هنا تلك المفردات كلها التي عثرنا عليها تدل على العطش . وعلى القحط مثل « ظمآن » و « ماحل » وإن المقابلة بين هاتين المجموعتين تفيدنا بأهمية مصدر المياه وقدرته العجيبة في إحياء الطبيعة والبشرية جمعاء .

ومن المجموعات المهمة تلك التي تعود إلى القوة وهذا مما لا غرابة فيه إذ نحن نعلم السياق التاريخي للمجتمع حيث تسود فيه حروب متواصلة أو تكاد حروب كان على الملك أن يواجهها لكبح الأعداء الواقعيين والمتوقعين وإن مفردة « الحرب » بمختلف أشكالها لا تغيب عن الشاعر إذ تعبر عن حقيقة يعيشها كغيره من الرعية . فلا عجب أن تردد بكثرة في كل مقام ومقال ولقد أحصينا

أربعة وثلاثين استعمالا لهذه المفردة إلى جانب « الوغى » الذى ورد ذكره عشر مرات .

وعن هذه المفردات تنجر مفردات أخرى وهي تلك التي تعود إلى الأسلحة فعثرنا في شعر ابن زمرك على الرمح والسيف والقنا بمختلف أشكالها ثم القسي والدروع المستعملة آنذاك . فإن الصفات التي تمتاز بها هذه الأسلحة هي دائما الحدة واللمعان دليل على جودتها . فمن المنتظر أن تكون هذه المجموعة من المفردات متوفرة للغاية إذ تعبر من مظاهر قوة الملك الممدوح .

إن تقسيم العالم إلى قسمين متباينين : المسلمون من جهة والكفار من جهة أخرى أو بعبارة أخرى الممدوح ورعيته من جهة وأعداؤه من جهة أخرى جعلنا نميز بين مجموعتين من المفردات الأولى تعود للمسلمين والأخرى لغيرهم . ويراد هنا بالمسيحيين . ولا يريد ابن زمرك أن يرى في هذا المجال إلا الجانب الدينى عائدا بنا إلى الحروب الصليبية . فخصص للمسلمين المفردات النبيلة الشريفة وما عداها للعدو فالأولون جنود أمام عداة الدين أو الكفار أو المشركين مع ما في هذه التسميات من صدى في قلوب المسلمين الذين يشعرون هكذا أنهم قائمون بالجهاد لوجه الله ونصر الدين الحق الذى أوحى به .

وهذه المعارضة في مستوى الفريقين توجد أيضا في مستوى الصفات التي يتصف بها كل منهما . فإن كانت البطولة والإقدام من حق المسلمين فالرعب والإدبار من نصيب المسيحيين وهذا ما يؤدى بصفة حتمية إلى انهزام هؤلاء فهم الخاسرون في الدنيا وفي الآخرة . ولقد عثرنا في ميدان الكفاح على المفردتين « الرأس » من جهة و « القلب » من جهة أخرى مصحوبتين « بالدم » عشر مرات إلى جانب أفعال تدل على القساوة والعنف . ويضيف ابن زمرك إلى هذا تدخل الله تعالى وبالتالي مجموعة معبرة من مفردات وعبارات تدل على أن الله يريد انهزام الكفار واعداً إياهم بنار جهنم .

وفي المفردات التي تعود إلى دور الملك في المجتمع فينبغي أن نميز مجموعة أولى خاصة بالرعية وثانية خاصة بالقتال . فالجهاد من أجل استرجاع دين

الإسلام إلى ما كان عليه في عهد الرسول (ﷺ) واجب مقدس على كل مسلم فينبغي أن يبدى في القيام بهذا الواجب عزما وصرامة مهما كانت العواقب فنلاحظ مرة أخرى أن الدين يخدم مصلحة السياسة .

وإن مفردات المجموعة الأولى تعبر عن التطلع الشديد للرعية جمعاء للسلم والهناء ورغد العيش وعدت بها مرات عديدة ونادرا ما عاشتها فليس من العجيب أن نلاحظ تردد مفردة « الأمن » أو عبارة « أيام غرر » كل ما يلبي رغبات الناس وإلى جانب هذا ينبغي أن نضيف قائمة من الأفعال تجعل الملك في الصدارة ضامنا ما رعيته في حاجة ماسة إليه مثل الحماية والشفاء واسترجاع الهمة والعزة والشرف لغرناطة الخالدة فتلك هي المفردات الواردة بكثرة في شعر ابن زمرك وبجانب هذه لاحظنا مجموعة من الصفات العائدة إلى من حقق ذلك أى الملك الممدوح فجاء في حقه أكثر من مرة العبارة « فخر الإسلام » مصحوبة بالمفردات التي تشير إلى ما منّ به هذا الملك الذى إليه تولى الأبصار كلها . وهي مفردات في معظمها مقتبسة من الطبيعة مثل الشمس والظل الظليل . والبدر والعنصر المروى .

وإن ابن زمرك يولى للعدل اهتماما كبيرا ذاكرا معه أفعالا تدل على سعته وامتداده في دولة أصبحت بفضل العدل السائد فيها وانعدام الظلم والعدوان دولة مثلى يقتدى بها .

وأما المجموعة الثانية فتخص دين الإسلام الذى استهين به وعلى الملك أن ينقذه ويرد إليه رونقه عائدا به إلى أصالته . وإن الفعل المستعمل بكثرة هو الفعل « جدّد » وذلك بانتصار الملك الممدوح على العدو الكافر فيعود بنا الشاعر مرة أخرى إلى مقابلة المفردات التي تدل على المظاهر الإسلامية والمفردات التي تدل على مظاهر دين المسيح فيذكر الصومعة مع الناقوس . والمسجد مع الكنيسة والأذان مع النواقيس وكذلك الأفعال مثل استعاد وخرب أو أسكت أى النواقيس وأسمع مكانها أصوات المؤذنين . وهكذا يبدو الممدوح مهتما بالإسلام ذائدا عنه فهو تارة « ناصر الإسلام » وتارة « ناصر الدين » فيكون هكذا قد لبّى دعوة ربه وقام بواجبه .

# المفـردات الغزليـة

**حبّ ــ هوى :**

وما الحبُّ إلا نظرةٌ تبعثُ الهوى      وتعقُب ما يُعيي الطبيبَ المداويا 99,7

**صبا ــ صبابة :**

رفعت نارُ الصبابة فاهتـدى      وخاض لها عرض الدجنّة ساريا 98,20

**صبّ ــ صباحه:**

وقالوا صبا والشّيب لاح صاحبه      فقلت ببيض كالصّباح أنا صبُّ 21,6

**غرام ــ وجد :**

قيادى قـد تملّكـه الغــرامُ      ووجدى لا يطاق ولا يُرامُ 72,1

**ألوف ــ ألف :**

خلقت من عـادتي ألوفـا      أحــنّ للإلــف والسّكـــن 108

**عشّاق ــ عاشق :**

تقتل العشاق بالحمر الخدود      والعــــذار السّنـــــدسي 124,4

**هيمان :**

وليـل الهوى عـن الهيمـــان      أحسن من ليـل الشبـاب 120,4

**مستهام ــ يهيم ــ هام :**

كيف لا يهواك قلب المستهام      وفـــيك العقـــــل يهيم 125,6

**محاسن ــ حسن :**

ومشتمل بالحسن أحوى مهفهف      قضى رجع طرفي من محاسنه الوطر 29,1

**جمال ــ مرأى جميل :**

يــا مطلـــع الأنـــوار      كم فيك من مرأى جميـل 106,18

**منظر جميل :**

أصبحت تزهـو على الملاح      بـــذلك المنظـــر الجميـــل 111,25

**روض جمال :**

وروض جمال ضاع عرف نسيمه		وما ضاع غير الورد في صفحة الخد24,13

**روض حسن :**

وكم جال طرف الطرف في روض حسنه		يقيّده فيه العذار بسنـدس42,6

**روض شباب :**

وروض شباب ماس غصن قوامه		وفتّح فيه اللحظ أزهار نرجس42,4

**كمال :**

تهوى البدور كماله وتوّد أن		لو أوتيت منه المحاسن والغرر40,14

**مطلع الأنوار :**

يامطلـــــع الأنـــــوار		كم فيك من مرأى جميـل106,18

**روضة الأزهار :**

يــــاروضة الأزهـــــار		وعرفهـــا يرى العليـــل106,20

**نزهة الأبصار :**

ونزهــــــــــة الأبصار		ما ضرّ لو تشفي الغليـل106,19

**نزهة الخاطر ـــ مورد الآمال :**

لأنت منّي قلبي ونزهة خاطرى		ومورد آمالي وإن كنت أحرم71,19

**كعبة الحسن :**

ياكعبة الحسن زدت حسنا		وللهـوى حـولك المطـاف111,23

**بدر :**

أسهــر في ليلــة التمّــام		وأنت يابــدر في التّمــام111,19

**ظبي أغرّ :**

غنّى عليه الطير وهو بدوحه		والآن غنّى فوقه ظبي أغر40,49

**ظبية :**

وفي السّرب من نجد تعلّقت ظبية — تصول على ألبابنا وتغير28,8

**رشأ :**

رشأ قد صاد قلب الأمم — بجمـــال وشرد124,1

**شادن :**

نفسي الفداء لشادن مهما خطرْ — فالقلب من سهم الجفون على خطرْ41,1

**غزلان :**

هويت من هوى الغزلان — مستعـذب فيهم العـذاب120,3

**بلبل :**

وبلبل الـدّوح إن تغنّى — أسهر ليلي إلى الصّباح108,10

**حبيب :**

جفونك بالسحر ياحبيبي — قد أهلكت سلطانيه120,27

**ربّة الوشاح :**

قل لي ياربّة الوشاح — هل لي إلى الوصل من سبيل111,22

**أغيد :**

إذا ما رنا شزرا فعن لحظ أحور — وإن يلو إعراضا فصفحة أغيد24,7

**غادة رداح :**

أهيم بالغادة الـرّداح — والجسم من حبّها عليل111,16

**أحوى مهفهف :**

ومشتمل بالحسن أحوى مهفهف — قضى رجع طرفي من محاسنه الوطر29,1

**رشيق القدّ :**

بدر تمام رشيق قدّ — لقاؤه يذهب السقام121,12

**ناعم القدّ :**

وكم صارم قد سلّ من لحظ أحور وكم ذابل قد هزّ من ناعم القد24,10

**مائلة القدّ :**

ومالت بقلبي مائلات قدودها فما للقدود المائلات وما ليا99,24

**رطب الجسد :**

ليس في العرب ولا في العجم مثلـــــــــه رطب الجسد124,3

**لين القوام :**

ويفضح الغصن بلين القوام وأيـن منـه قـدّ الـغصون118,4

**قضيب :**

عود ثوى حجر القضيب رعى له أيام كانا في الرياض مع الشجر40,50

**غصن البان :**

وروضة حسن للشباب نضيرة هصرت بغصن البان فيها المجانيا99,22

**غصن القوام :**

وروض شباب ماس غصن قوامه وفتّح فيه اللحظ أزهار نرجس42,4

**الشعر ـــ الوجه :**

عجبا لليل ذوائب من شعره والوجه منه عن صباح قد سفر41,3

**وجه وضاح :**

ووجهك الوضّاح يغشي نظرى عـــن بـــدور تجتنـــا125,2

**الشمس :**

ووجهك الشمس في اتضاح لـو أنها لم تكـن تميـــل111,27

**صفحة القمر :**

تخيـل للعيـنين جرحـــا وإنما بدا كلف منه على صفحة القمر29,5

**لواحظ ـــ ألحاظ ـــ لحاظ ـــ لحظ :**

شكوت فجاءوا بالطبيب وإنما طبيبي سقام في لواحظ مبعدى24,10

**جفون ـــ جفن :**

حذارك من سقم الجفون فإنه سيعدى بما يعيي الطبيب المداويا98,24

**عيون ـــ عين :**

ولتخش من أسهم العيــون فــــإنها رائــــد المنــــــون111,14

**مقلة :**

فرأيت جسما قد أصيب فؤاده من مقلتيكِ وأنتِ لم تتأثّمي75,22

**غنج ـــ حور :**

فقلت لجُلاّسِي خُذُوا الحِذْرَ إنما به وصب من أسهم الغنج والحور29,3

**نرجس اللحظ :**

سبق ذكر الشاهد فيه 99,23

**خمر الّلحاظ ـــ خمرة الجفون :**

ولا تــــذر خمرة الجفــــــون فسكرهــا في الهوى جنــــون111,13

**سقم الجفون :**

سبق ذكر الشاهد فيه 38,24

**قسيّ ـــ سهام :**

سهام جفون عن قسيّ حواجب يصاب بها قلب البرىء على عمد24,12

**سيوف ـــ سيف :**

يسلّ مــن لحظــه سيوفـــا فالقلب بالــروع مــا سكــن108,14

**صارم :**

وكم صارم قد سلّ من لحظ أحور وكم ذابل قد هزّ من ناعم القدّ24,10

**يفتك ـــ فتك :**

يفتكن من قاماتها ولحاظهـا ... وبالمشرفيـة والقنـا الخطــار 39,21

**يرمي ـــ رمى :**

فطعنت من قدّ القوام بأسمر ... ورميت من غنج اللحاظ بأسهم 75,18

**سلّ ـــ نزع :**

نزعن عن الألحاظ كلّ مسدّد ... فغادرن أفلاذ القلوب دواميا 98,22

**يسبي ـــ سبى :**

يسبي القلوب بلفظه وبلحظه ... وافتنني بين التكلـم والنظـر 40,53

**يمضي ـــ مضى :**

ولحظـة يمضي مضاء الحسام ... ويذهل القلب بسحر الجفون 118,5

**أرسل :**

ما ضرّ إذ أرسلْتَ نظرةَ فاتكٍ ... أن لو عطفت بنظرة المترحّم 75,21

**خدود ـــ خدّ :**

فأبصرت أشباه الرياضِ محاسناً ... وفي خدّه جرح بدا منه لي أثر 29,2

**ورد الخدّ :**

وما زال ورد الخدّ وهو مضعّفٌ ... يُعير أقاحي الثغرِ طيبَ تنفُّس 42,5

**تفّاح الخدود :**

ويظنّ أن عِذَارَهُ مـن آسِهِ ... ويظنّ تفّاحَ الخدودِ من الثَّمَرْ 40,52

**حمر الخدود :**

سبق ذكر الشاهد فيه 124,6

**وجنة :**

ويا وجنةً قد جاورتْ سيفَ لحظِهِ ... ومن شأنِها تدْمَى من اللّمح والبصرْ 29,4

**صفحة :**

سبق ذكر الشاهد فيه 24,13

**روضة ــ روض :**

ونرجس لحظ أرسلَ الدَّمْعَ لُؤْلُوءاً    فرشّ بماءِ الوردِ روضاً من الورْدِ24,14

**عذار ــ سندس :**

وكم جال طرف الطّرف في روض حسنه    يقيّده فيه العذار بسندس42,6

**نون العذراء ــ آس :**

قد خطّ نون عذاره خَدِّهِ    قلمان من آسٍ هناك ومن شعرٍ40,15

**ثغر :**

**ثغر ــ أشنب ــ شنيب :**

يذكّرني في ثغرا لأسماء أشنبا    إذا ابتسمت تجلو من الليل غيهبا103,41

**عقد الثغر :**

عجباً لعِقْدِ الثّغرِ منه منظماً    والعقدُ من دمعي عليه انتثر41,4

**أقاح الثغر :**

ما رمت أن أجني الأقاح بثغرِهِ    إلا وقد سلّ السيوفَ من الحورْ41,5

**درر ــ درّ :**

لا سيما لما رأى من ثَغْرِهِ    زهراً وأين الزهرُ من تلك الدررْ40,51

**شهد الرضاب ــ ماء النعيم :**

رشفتُ بها شهدَ الرضابِ سُلاَفَةً    وقبّلْتُ في ماءِ النعيم الأقاحيا99,2

**ريق غليل :**

لو بتّ منها على اقتراح    نقعت من ريقها الغليل111,17

**ماء الثغر :**

وما ماء ذاك الثغر عندى غالي    بماء شبابي واقتبال زماني79,5

**مورد ثغر :**

كرعت بها بين العذيب وبارق　　　بمورد ثغر بات بالبدر حاليا99,19

**سلافة :**

يدير من ثغره الشّنيب　　　سلافـــة دونها العقـــــار107,20

## المفـــردات العائـــدة إلـــى متعـــة العاشـــق

**وصل :**

ولو أن عمرى عمُر نُوحٍ بعتُهُ　　　بساعة وصل منك قلت كفاني79,4

**نعم ـــ قضّى :**

وقل لليالِ في الشباب نعمتها　　　وقضّيتها أنسا سقيت لياليـــا99,26

**لذّة الصبا :**

من لم يكـن طبعُـهُ رقيقـاَ　　　لم يـدرِ مـا لـذّةُ الصّبـــا108,3

**سكر الحب :**

وياطيب سكر الحبّ لولا جنونه　　　فمن لذّة النّشوان سخف المعربد24,9

**نشوان :**

نشوان لم يشرب الرّحيقـــا　　　لكن إلى الحسن قد صبـــا108,5

**تسلّى :**

كم من نفـوس بها تسلّت　　　فمـــا لها الدّهـــر منكــــر107,20

**لم أصح :**

ولم أصح من خمرة اللحاظ وقد غدا　　　به الجوّوضّاح الأسرة ضاحيـــا99,13

**خلا ـــ يخلو :**

خلوت بمن أهواه من غير رِقْبَةٍ　　　ولكن عفافي لم أكن عنه خاليا99,11

**مضاجع :**

وليلةَ باتَ البدرُ فيها مُضَاجِعِي　　　وباتتْ عيونُ الشُّهْبِ نحوى روانيا99,18

**كرع :**

كرعت بها بين العذيب وبارقٍ بموردِ ثغرٍ باتَ بالدرِّ حاليا99,19

**رشف ـ قبّل :**

رشفتُ بها شهد الرّضابِ سلافةً وقبّلتُ في ماءِ النعيمِ الأقاحيا99,20

**روّى غله :**

فيا بردَ ذاك الثغرِ روّيْتَ غلّتي وياحرَّ أنفاسي أذبْتَ فؤاديا99,21

**لثم ـ يلثم :**

وألثم الزهـر في الكمـام عليه من ثغرك ابتسام111,20

**نقع ـ ينقع :**

لو بتّ منها على اقتراح نقعت من ريقها الغليل111,17

**هصر :**

سبق ذكر الشاهد فيه 99,22

**طوّقه نعمة :**

ومن قبل ما طوّقتني كلَّ نعمةٍ كأني وإياها سوار ومعصم71,14

**نار / جنّة :**

وأنت إلى المشتاق نارٌ وجنّةٌ يبعدك يشقى أو بقربك ينعم71,4

**عفاف :**

فقضّيت منها فوق ما أحسب المنى وبرد عفافي صانه الله من بردِ24,26

**الهوى العذرى :**

وأذكرني ثغرا ظمئتُ لوِرْدِهِ ولا والهوى العذرىّ ما كنت ناسيا99,16

## المفـردات العائـدة إلـى ألـم العاشـق

**عذّب ـ عذاب :**

وعذّب بالي نعّم الله بالَهُ وسهّدني لا ذاق بلوى التسهُّدِ24,8

**أشقى ــ شقاوة :**

أما والذى أشقى فؤادى وقادني وإن كان في تلك الشقاوة ينعم71,18

**موت ــ حتوف :**

وموتي مـن لحظك المصيب هـــي الحيـــاة الباقيـــة120,2

**قتيل :**

ظلمت قتيل الحب ثم تبيّنت للسقـم فيها فتـرة المتظلــم75,19

**عبد :**

أشاعـوا أننـــي عبـــد لموسى نعم صدقوا على فيما أشاعوا46,3

**رقيق :**

فـربّ حـرٌّ غـدا رقيقـا تملكـــه نفحـــة الصّبـــا108,4

**مأسور :**

مفتـــرش شوك القتـــاد مسرّد الدمع مأسور الفـؤاد122,11

**عدوان :**

والحبّ ذو عـــــــدوان يجهـــد في ظلـــم البرى106,26

**جور :**

ألفت الهوى حتى أنستُ بجوره فكل عذاب نالني في الهوى عذب3,4

**رهين :**

فـؤادى رهين لـذا الوجـد هكـــذا عليـــه قــــدّرا120,8

**مسلوب :**

عرفت بهذا الحبّ لم أدر سلوة وأنّى لمسلوب الفؤادِ بسلوانِ78,7

**أوّاه ــ معنّى :**

أوّاه مـــن قلبـــي المعنّـــى يهفـو إذا هــبّت الريـــاح108,8

**غليل ـ ظمآن :**

وكالطيف أستقريه في سنة الكرى          وهل تنفع الأحلام غلّة ظمآن78,4

**عليل :**

سبق ذكر الشاهد فيه          111,16

**سقام :**

كساني الهوى ثوب السقام وإنه          متى صحّ حبّ المرء لا شيء يسقم71

**ضناء :**

لست في دمعي غريقا وإنما          جسدى خفّ ضناء وطفا51,2

**شوق :**

وإن عبّرت عن شوقي بكتب          تلـهب في أنـاملي اليراع46,11

**شجون :**

سوى صادح في الأيك لم يدر ما الهوى          ولكن دعا منّي السجون على وعد24,23

**أشجى ـ شجاء ـ شجوى :**

ولربّ أشجى فؤادى عنده          ورقاء تنفث شجوها بترنّم75,9

**لوعة :**

أشعرت قلبي حبّهن صبابة          فرميّنني من لوعتي بجمار39,22

**أهلك :**

جفونك بالسحر ياحبيبي          قـد أهلـكت سلطانيـه120,27

**جفا :**

جفـاني بغنـج أجفـان          مسدّدا بسهـام الحمـام120,20

**هجر :**

على أن روحي في يديك بقاؤها          بوصلك تحيى أو بهجرك تعدم71,3

**لا يطاق ولا يرام :**

سبق ذكر الشاهد فيه 72,1

**مرّ المطاعم :**

أذوق مرّ المطاعم علقما وأذكر مزجي الهوى فيطيب122,15

**خطر :**

نفسي الفداء لشادن مهما خطر فالقلب من سهم الجفون على خطر41,1

**أصاب :**

سبق ذكر الشاهد فيه 24,12

**أذهل ـــ يذهل :**

ولحظه يمضى مضاء الحسام ويذهل القلب بسحر الجفون118,5

**قلب ـــ قلوب :**

فياعجبا للعين تمشي طليقةً ويصبح من جرّائها القلب عانيا99,8

**فؤاد :**

إذا ما الوجدُ لم يبرح فؤادى على الدنيا وساكنها السّلام72,3

**أحشاء :**

أبكي وما غير النجيع مدامعي أذكى ولا ضرم سوى أحشائيّ1,9

**كبد ـــ أكباد :**

فقلبه من شوقه في التهاب قد أحرق الأكباد منه الوجيب108,11

**يتضرّم ـــ تضرّم :**

ولي كبدٌ تندى إذا ما ذُكِرْتُمُ وقلبٌ بنيرانِ الهوى يتضرّمُ71,5

**أذكى جمرة :**

عجبا له يندى على كبدى وقد أذكى بقلبى جمرة البرحاء1,12

**أصلى نارا :**

ما أشقى مثلي بلا ذنب يصلى نارا حامية 120.17

**عين :**

أواعد الطيف للمنام ومن لعينيّ بالمنام 111,18

**طرف :**

وطرفي يرقب السّهدا والنجم معقود العرى 120,9

**مقلة :**

جاء غيث الدّمع من بعدك في مقلتي رسم الكرى حتى عفا 51,3

**جفن ـ جفون :**

فهل عند ليلى نعّم الله ليلها بأن جفوني ما تملّ من السّهد 24,24

**لحظ :**

إذا تجلّت بعد طول ارتقاب صرفت عنها اللّحظ خوف الرقيب 118,7

**بكي / بسم :**

أبكي ويبسم والمحاسن تجتلي فعلقت بين تبسّم وبكاء 1,17

**دمع ـ أدمع ـ دموع :**

ودمعي دونه صوب الغوادي وشجوي فوق ما يشدو الحمام 72,2

**عبرة :**

تبسّم فاستبكى جفوني عبرة ملأت بدرّ الدّمع منها ردائيا 99,15

**دموع حمر :**

لترى دموع العاشقين برسمها حمرا كحاشية الرداء المعلم 75,12

**دمع همر :**

قضيبك الفينان يسقى بدمع همر 196,21

**دمع ساجم :**

مــــــا بتّ بالساهـــــــــر ودمـــع عينـــي ساجـــــم106,25

**دمع سكيب :**

والجفن منه سحبه في انسكاب قد رّوض الخدّ مع سكيب118,12

**فيض الدموع :**

ذكرتك فوق البحر والبعد بيننا فمدّته من فيض الدموع بحور28,12

**غيث الدّمع :**

جاء غيث الدمع من بعدك في مقلتي رسم الكرى حتى عفا51,3

**مسرّد الدموع :**

مفتــــــرش شوك القتـــــاد مسرّد الدمع مأسور الفؤاد122,11

**أبكى دما :**

ذكرك الأعطر يبكيني دمـا ربّ مسك بشذاه أرعفـا51,4

**رقاد / تسهّد ــ سهّد :**

وعذّبَ بالي نعّمَ اللهُ بالَهُ وسهّدني لا ذَاقَ بلْوىَ التسهُّدِ24,8

**سهر :**

عساك إن زرت ياطبيبـــي بالطيف في رقدة السحـــر108,11

أن تجعل النّوم من نصيبـي والعين تحمى من السهــر12

**وسنان :**

لي الله أما أومض البرق في الدجى أقلّب نحو الليل مقلة وسنان78,13

**سامر النجم :**

أسامر النجـم فيك حتـىّ علّــمت أجفانــه السّهــاد107,29

**راعي النجوم :**

أراعي نجومَ الأفْقِ في الليل مادّجا وأقربُ من عينّي للنومِ أنجمُ71,7

**ليلي ــ نهاري :**

لــــيلي علـــــيك نهارى وبالسّهـــــاد أبيــــت122,1

**أكنى ــ أخفى :**

إلى كم أرى أكني ووجدى مصرّح وأخفي اسم من أهواه وهو شهير28,18

**كتم :**

إن كان واشي الدّمع قد كتم الهوى هيهات واشى السقم لم يكتم75,6

**باح / سعر :**

باحت أناملك اللّدان بكل ما كان المتيّم في هواه قد ستر40,50

**خاف :**

أخاف عليك أن أشكوك بثّى مشافهة فيخجلك السّماع46,10

**سرّ :**

ياسائلي عن سرّ من أحبيته السّر عندى ميت الأحياء1,6

**خضع :**

خضعت وأمرك الأمر المطاعُ وذاع السّرّ وانكشف القناعُ46,1

**هان ــ قضى :**

رضيت بما تقضى عليّ وتحكمُ أهان فأُقضي أم أعزُّ فأُكرم71,1

**دان له :**

دانت له القلوب منا بطاعة والسيف يملك ربّه فيمن قهر40,62*

## الأشخاص

**طيف :**

أواعد الطّيف للمنام ومن لعيني بالمنام111,19

**طيف الخيال :**

لو كان لي زائر طيف الخيال الجاثم106,24

ما بتّ بالساهر ودمع عيني ساجم25

**خيال :**

خيال علي بعد المزار ألمّ بي فأذكرني ما لم أكن عنه ساليا98,18

**رقيب :**

كم زفرة بين الجوانح ما ارتقت حذر الرقيب ومدمع لم يسجم75,5

**وشاة :**

ولو سكت الوشاة اليوم عنا أقرّ الخصم وارتفع النـزاع46,4

**عذول ــ عواذل :**

إن نصائــــح العــــذول ريح لنــــا وبلابــــل122,13

**نصيح ــ لاح :**

ومن يطع الألحاظ في شرعة الهوى فلا بد أن يعصي نصيحا ولا حيا99,5

**لوم :**

قد كنت أعذل ذا الهوى من قبل أن أدرى الهوى واليوم أعذلُ لُوَّمي74,4

## تعليــق :

إن دراسة المفردات الغزلية أدَّتْنا إلى التمييز بين شبكات ثلاث تتفاوت أهمية الشبكة الأولى كان محورها الحب والثانية تدور حول العاشق والثالثة حول المعشوقة . وإن هاتين الأخيرتين جاءتا في كثير من الأحيان على طرفي نقيض إذ كل منهما ينتمي إلى محيط ينفرد به فلا مجال للتكامل والتناسق بينهما فلم نعثر إلا في مرات نادرة على مفردات يشترك فيها العاشق والمعشوقة إذ اجتماعهما لا يدوم إلا تلك اللحظات المختلسة السريعة فلا كلام عن الزوجية ولا عن الرجل والمرأة في عشرة طائلة بما تتضمنه من أقراح وأفراح .

والجدير بالذكر أن المرأة تُشكِّل موضوعا يحرره غيرها إذ لا تتكلم عن نفسها أبدا . فالمفردات التي تعود إليها جاءت على لسان عاشقها فهو الذى يتصرف فيها ويقول ما يشاء آتيا بما لا يسمح لنا بالاطلاع على عواطف وأذواق المحبوبة التى ما هي إلا تلك الصورة الصامتة المتولدة عن خيال في هيجان . وإن أهم الشبكتين هي لا محالة تلك التي تجمعت فيها المفردات العائدة إلى العاشق ، مفردات متوفرة تكشف عن عواطفه وعن خواطره وعما يختلج في صدره . فيكون دائما في وضعية الضحية المتألمة تاركا المرأة في وضعية المجرمة . فهى الرامية وهو المصاب .

وإذا رجعنا إلى الشبكة الأولى تبين لنا أن ابن زمرك أكثر من استعمال مفردة « الهوى » التي ورد ذكرها سبعا وعشرين مرة وتليها مفردة « الحب » مستعملة ثلاث عشرة مرة . وأخيرا الهيام .

أما المفردات الخاصة بالحبيبة فتنقسم إلى قسمين : فالقسم الأول جمعت فيه مفردات ذات معانٍ عامة مثل « الحسن » و « الجمال » إلى جانب مفردات مقتبسة من الطبيعة الحية والجامدة ومستعملة في استعارات مثل « الروض » و « البدر » أو « الرشا » و « الظبي » . والقسم الثاني جمعت فيه مفردات خاصة بذات الحبيبة . وتجدر الملاحظة إلى أن الشاعر قد اقتصر على بعض الأعضاء من الجسم تلك التي يهواها العاشق لما تثير في نفسه من اضطراب وهيجان . وإن المنظر العام للمعشوقة يؤدى إلى ذكر القامة مع ما يصحبها من الصفات المفضلة المستحسنة مثل « رشيق رطب » « ناعم » وهذا ما يسمح باستعمال ما يقابلها من مفردات طبيعية مثل الغصن والقضيب لشجرة اللبان . ومن القامة ينتقل بنا العاشق إلى ذكر الوجه مع الوقوف لدى جميع ملامحه فالوجه يمثل صفحة لا يتوقف الحبيب عن مطالعتها لعله يكتشف إشارة يستفسر بها ما يلي به في ضميره . ولقد ورد ذكر الوجه مرات عديدة مصحوبا بصفة واحدة متمثلة في كلمة « وضّاح » ومن هنا تلك الإشارات إلى الشمس والقمر الساطعين .

وأما العين فهي من الحواس التي تتمتع بمكانة مرموقة إذ اهتم بها الشعراء اهتماما كبيرا والدليل على ذلك العدد البالغ الذى أحصيناه عند ابن زمرك فقد عثرنا على ما لايقل عن ستين استعمالا يشترك فيها الرجل بالثلث والمرأة بالثلثين حيث غلب استعمال كلمة اللحظ وهذا مما لا غرابة فيه إذا تذكرنا ما قاله ابن حزم في هذا المقام في كتابه « طوق الحمامة »[3] .

ومن بعده صرح بوحديبة بدوره أن المجابهة والصراع بين الجنسين من شأنهما

---

(3) انظر : طوق الحمامة ، ص 325 .

أن يجعلا من الفريقين أي الرجل والمرأة « شخصين نظرين » على حد تعبير الفيلسوف جان بول صارتر[4] فالنظر إذن هو الوسيلة الوحيدة التي تصل بين العاشق والمعشوقة . ويشير بوحديبة إلى أن كيفية النظر بالنسبة للناظر من جهة وللمنظور من جهة أخرى فنّ يتعلمه كل من الطرفين . وإن عين المعشوقة تمتاز بصفات معينة قد عثرنا عليها مثل الفتور والضعف والسكر وغيرها . أما العاشق الذى يعتبر نفسه ضحية إليها توجه الضربات فيرى في لحظ المعشوقة صفات أخرى مثل القساوة والتعدى والعدوان فكل ما يؤدى إلى استعمال مفردات سلاحية مثل الصوارم والسهام المتمثلة في الأشفار والقسي المتمثلة في الحواجب ومع هذا يؤكد العاشق على حذاقة ومهارة المعشوقة في تصويب هذه الأسلحة نحوه بحيث لا تخطيء في رميها أبدا .

وبعد العين يأتي الخد الذى لم يستوقف الشعراء طويلا فالمفردات المخصصة له قليلة وكلها تنتمي إلى الطبيعة اليانعة للتأكيد على نضارة الخد ورونقه ولونه الأحمر مثل الرياض والتفاح والورد المتفتح .

فأما الفم فيفوق الخد أهمية فاستعذب فيه الشعراء الشفاه والأسنان البيضاء المنتظمة والريق العذب وقد عثرنا على مفردة « الثغر » اثني عشرة مرة ذلك الثغر الذى يمتاز بصفة واحدة وهي « شنيب » أما الأسنان فهي الدرر أو الأقاح وإذا جاء الكلام على ريق الحبيبة فهو ماء عذب أو خمرة معتقة وهذه نقطة اللقاء بين الريق والنظر إذ كلاهما يثير النشوة وهذا ما يؤدينا إلى مفردات المتعة بالنسبة للعاشق .

ولما كان الحب أمرا مسليا يجد فيه صاحبه لذة ومتعة يريدهما طائلتين شبه بالخمر وما تثيره في شاربها من طرب ونشوة وذلك ما يفسر استعمال مفردات تنتمي كلها إلى شعر الخمريات مثل « السكر » الذى استعمل أربع مرات إلى جانب « نشوان » والعبارة « لم أصح » ولما كان الحب خمرة فلا غرو أن نجد

---

(4) انظر : بوحديبة في كتابه : الجنسانية والإسلام ص 51 . وصارتر في الوجود والعدم ، ص 327 .

كل المفردات التي تدل على الشرب وإطفاء العطش مثل « كرع » و« رشف » و« روى » وإلى جانب هذه المفردات المستعارة نعثر على مفردات تعبر عن الحب والمداعبة وما يشير إليه الشاعر في كثير من الأحيان هي القبلة على الشفاه والملامسة اللطيفة وكل ما يهيىء العاشقين إلى الوصل الذى هو آخر مرحلة اللقاء . وقد عثرنا على هذه المفردة ست مرات وكل عاشق يرى في الوصل الجنة بعينها وإلى جانب هذا فقد عثرنا على استعمال مفردات تدل على الحب العذرى . فالمفردة الأكثر استعمالا هي « العفاف » وهي مفردة تتضمن معنى دينيا وخلقيا ويراد بها عدم الوصل بمن ليست حلالا والعفيف هو من يغض الطرف إلا على زوجاته أو ما ملكت يمينه .

وإلى جانب هذه المفردات التي تدل على اللذة والمتعة نجد مفردات في مقابلها تدل على الألم والشقاء . ويلاحظ تباين شديد بين هذا وذاك . فأوقات السعادة كما هو معروف قصيرة جدا إذا قيست بأوقات الشقاء التي تبدو لا نهائية .

ولما كان العاشق ضحية حبه كما أشرنا إليه سابقا فإن المفردات التي عثرنا عليها في هذا المقام تدور حول محور واحد ألا وهو الألم والتحسر على الحبيبة وما هذا إلا مصير من أصيب بسهام الحبيبة فالعاشق « رقيق » تارة و « مأسور » تارة أخرى ويتواجد أن يكون قتيلا . وقد أتى التأكيد على عواقب من وجد نفسه في هذه الحالة مثل الحزن والشوق الذى ورد ست مرات والمرض الذى لا دواء له مرض يؤدى إلى الضعف والضنى مفردتان كثر استعمالهما في الشعر الغزلي .

وإن مقر ألم العاشق هو القلب من جهة ومن جهة أخرى العين وهناك صلة وثيقة بين هذين العضوين رغم تباينهما . إذ العين هي التي تكشف لنا ما توارى في القلب من آلام مبرحة .

فالقلب أو الفؤاد قد ورد استعماله ستا وثلاثين مرة وينبغي أن نضيف إلى هذا بعض الكنايات مثل الأحشاء أو الكبد الذى ورد أربع مرات . والملاحظ أن كل هذه الاستعمالات جاءت مصحوبة بمفردات مدلولها النار أو اللهب أو الحرقة وهكذا تتأتى المقابلة بين الوصل أى الجنة والهجر أى الجحيم .

وأما عين العاشق مع مترادفاتها فقد وردت عشرين مرة . فإن كان القلب محل النيران فالعين مصدر دموع غزيرة دموع ورد استعمالها ستا وعشرين مرة وإلى جانب مفردات تدل على الكثرة والغزارة نجد مفردات مدلولها الدم الذى يعبر عنه مرارا بلونه فالحمرة الشديدة تدل على قساوة الألم . وإن هذه العين التي تنبعث منها دموع متواصلة لا تعرف راحة النوم . فالسهد مع مترادفاته قد ورد عشر مرات .

ومن مظاهر الألم ضرورة كتمان السر والرضى بما ترضاه الحبيبة والخضوع لها تلك شروط لا بد من مراعاتها ليكون العاشق عاشقا بأتم معنى الكلمة . إلا أنه ينبغي أن نلاحظ أن المفردات المستعملة في هذا المقام قليلة نسبيا .

أما الأشخاص المعثور عليهم عادة في شعر الغزل مثل الرقيب والواشي والعاذل أشخاص لا يحمد وجودهم سواء كانوا واقعيين أو خياليين فالمفردات الخاصة بهم ليست كثيرة ويتجلّى لنا من خلال ذلك أن ابن زمرك لم يهتم بهم اهتماما كبيرا . وأما « الطيف » أو « الخيال » فلهما دور معتبر إذ إليهما يبوح العاشق بأسراره وبهما يستنجد لتبليغ الحبيبة رسالته الغرامية .

o o o

# الصور عند ابن زمرك

إن الصورة مهما كان شكلها ــ تفترض لفظين : مشبه به ومشبه ملفوظ به أو غير ملفوظ به وكلاهما ينتمي إلى مجموعتين كبيرتين : جامدة / حية ، ومعنوية / محسوسة وبصفة عامة ــ كما تلاحظ عليه السيدة فرابيي ــ مازور ( Frappier Mazur ) « فإن الصلة بين الجامد والحي وبين المعنوي والمحسوس أليق لتفتح الصورة لأنها تنشيء بعدا كافيا بين المشبه والمشبه به »[5] . وإن قيمة الصورة الشعرية كما يلاحظ عليه اللغوى هنرى ويبير تكمن قبل كل شيء في نوع الصلة بين المحسوس والمعنوى بين العالم المادى والعالم الخلقي كما تكمن في مفاجأة تناسق يبرز بغتة إلى الوجود بين مظهرين متباينين »[6] .

وليتأتى لنا ترتيب الصور التي عثرنا عليها عند ابن زمرك لجأنا إلى ترتيب المشبهات بها اقتداء بفرابيي مازور التي تفضله عن غيره لأنه أليق نظرا لصعوبة وتعقيد المادة[7] .

إن دراسة هذه المشبهات تسمح لنا بأن نميز بين مجموعتين كبيرتين : الطبيعة الجامدة من جهة والطبيعة الحية من جهة أخرى . وسنحاول داخل كل من هاتين المجموعتين أن نضع شبكة المشبهات التي تشترك في مشبه به واحد لنستخرج المعاني الزائدة على ما جاءت به القواميس تلك المعاني التي تعطي للرسالة صبغة خاصة .

وإن ابن زمرك في كثير من الأحيان يشرح لنا هذه المعاني الزائدة التي تساعدنا على إدراك العلاقات التي تربط المشبه بالمشبه به فيتجلى لنا المشهد الذى يريد عرضه على أعيننا وتلك هي ميزة الاستعارة .

---

(5) انظر : La Creation Poétique au XVII° S. T. II. P. 658.

(6) انظر : L' expression métaphorique de la Comédie humaine. P. 36.

(7) انظر : Frappier Mazur المصدر نفسه : ص 88 .

**الطبيعة الجامدة :**

فمن بين الصور التي أحصيناها في هذه المجموعة ينبغي أن نخصّ بالذكر الصور الذاتية التي ترد في المقابلة بين الكون السماوى وذات الإنسان بين اللا منتهى في الكبر واللا منتهى في الصغر أى (Macrocosme et Microcosme)

إن المشبهات بها المختلفة تتفاوت أهمية نظرا لكمية كل منها فهي على التوالى :

**الشمس :**

إذا ألقينا نظرة على المشبهات بالشمس تبين لنا أن أغلب الصور وردت في شأن الأمير الغني بالله ممدوح ابن زمرك وهذا مما لا يتعجب منه إذا علمنا ما تشير إليه الشمس من رموز .

فالشمس هي منبع النور والحرارة فلا حياة على البسيطة بدونها فكذلك الأمر بالنسبة للأمير الذى يبعث أشعته المضيئة على دولته وعلى رعيته المحظوظة .

ومن قال الشمس قال النهار حيث تتكشف الكائنات ويستعيد الناس والحيوانات نشاطهم فيهتدون في سعيهم إلى ما يعود عليهم بالخير والسعادة . وكل ذلك تحت مراعاة الأمير المحسن البار فهو قائم وسط مملكته ورعيته حوله مثل الشمس المستقرة وسط السماء . ومن هذه المكانة المرموقة والمرتبة الأولى فلا تخفى عنه خافية فهو على علم بكل ما يجرى في كونه ومن هنا معنى القوة والسيطرة اللتين يتمتع بهما هذا الأمير الذى لا يغيب إلا ليظهر من جديد . فهذه العودة المتجددة على مر الأيام تعبر عن دوامه وخلوده .

ويلاحظ أن هذه المجموعة من الصور جاءت بالشمس كمشبه به مستقل عن المشبه الذى هو الأمير نفسه وأما المجموعة الثانية فقد جاءت بالشمس وهي كامنة في المشبه الذى هو تارة الوجه وتارة الجبين أو الغرة وأخيرا الأخلاق . فيكون هكذا المشبه به والمشبه شيئا واحدا ويرمي ذلك إلى جعل الأمير شمسا بكل ما تتضمنه هذه من مزايا إذ يتأتى لهذا الأمير من خلال هذه الصور أن يكون مصدر النور المنبعث من وجهه أو من جبينه فلا حاجة إلى رفع الأبصار

إلى السماء إذا تغير المكان فيدعونا ابن زمرك إلى تصويب الأنظار نحو من يقوم مقام الشمس في الكون اعترافا له بما يمنه علينا من منافع وخيرات .

والمجموعة الثالثة من الصور في شأن الأمير هي تلك التي يريد فيها ابن زمرك تفضيل ممدوحه على الشمس . فيذهب في مغالاته إلى عكس الأمور جاعلا من الأمير العنصر الوحيد الذى ينبعث منه النور فكل الكائنات ــ والشمس من بينها ــ مدينة له بذلك وخلاصة القول فالكل مصيره الفناء لو لم يكن هذا الأمير قائما بين الموجودات .

وأما المشبه الثاني بالشمس فهو النبي ( ﷺ ) وقد أراد ابن زمرك بهذه الصورة أن ينسب إلى الرسول الصفات التي أشرنا إليها آنفا ويصل هكذا إلى المقارنة بين المصطفى والغني بالله فكلاهما مصباح منير يهتدى به فالأول ينير الأمة الإسلامية والثاني الرعية الغرناطية . فيستويان في أفعالهما وإحسانهما لمن كان في ذمتهما فقال شاعرنا على سبيل المثال في حق الرسول :

27 - أطلعت للهدى بغير احتجاب     شمسا ولكن ما لها من غروب(117)

ثم في حق الأمير :

36 - هو الشمس بثّت في البسيطة نفعَهَا     وأنوارُها أبدت قريبا وقاصيا(99)

وأما المشبهات الأخرى بالشمس فعددها قليل ويبدو من خلالها أن ابن زمرك أراد الإشارة إلى اللون الذهبي الذى تكتسي به الشمس عند الغروب مع حرارة لطيفة وحركة هادئة فشبه هكذا الخمرة في شاربها ملاحظاً أن بعد غيابها في الذات تبدو من جديد على الخدود بلونها الأحمر حيث يشاهد شاعرنا شمسا مشرقة باهرة . فيقول :

10 - والكأس تطلع شمسها في خدِّهِ     فتكادُ تُغْشِي بالأشعةِ من نظرْ(41)

وبعد الخمرة يأتي ابن زمرك إلى الأترج وسط الفواكه المنتظمة في سلة فيعجب بلونه وبشكله فيذكر الشمس في الأفق للتأكيد على هاتين الميزتين . فيقول أيضا :

6 - وبها من الأترج شمس أطلعت     من كل شطر للعيون هلالا(57)

وقد تأتّى مرة لابن زمرك أن يشبه بالشمس وجه الحبيبة ، وهي صورة غير معهودة ولعل ما أداه إلى ذلك هي رؤية حبيبته متلثمة طورا ، وطورا سافرا ، مبدية وجها ساطعا أليس الأمر كذلك بالنسبة للشمس المختفية تارة وراء الأفق والمشرقة تارة أخرى غامرة الكون بأشعتها اللامعة . فقال شاعرنا في هذا الصدد :

6 - أبصرت منه إذ يحط النقاب شمسا ولكن ما لها من مغيب(118)

وإذا تأملنا المشبهات التي تقدم لنا عرضها تبين لنا بصفة جلية أنها متباينة مختلفة نوعيا وأن العلاقة الوحيدة بينها هي أنها شبهت بالشمس وهذا المشبه به استعمل تارة رمزيا وتارة ماديا والغاية منه في الحالتين التأكيد على الضياء والنور والصفاء الذى يتسم به كل مشبه حتى يكون مثاليا في الجمال والبهاء .

**البــدر :**

إن ابن زمرك كغيره من الشعراء قد استعمل كثيرا البدر كمشبه به في صوره وقد جاء البدر أحيانا مقرونا بالشمس والغاية من ذلك التأكيد على الجمال الباهر الذى يتصف به كل مشبه . لماذا هذا الافتتان بالبدر في الشعر العربي ؟ فلعل ذلك عائد إلى ما يلهمه هذا الفلك من إتقان وكمال في شكله المستدير مع الإضافة إلى ما يلهمه من أسرار في عالم كله ظلام فبينما تبدو الكائنات كلها نائمة مطموسة الأشكال والألوان فالبدر يبدو ساهرا ساريا وحده وسط سماء مترامي الأطراف مرسلا على البسيطة نورا خفيفا لطيفا يستأنس به في الليل الموحش .

ونلاحظ مرة أخرى أن ابن زمرك لم يتغافل عن ممدوحه الغني بالله إذ ورد هذا الأخير مشبها بالبدر في صور عديدة كما كان الأمر بالنسبة للشمس فيبقى أن هذا الأمير شمس بالنهار وبدر بالليل وهذا دليل على الاستمرارية والدوام فضلا عن الجمال الذى ينفرد به فيقول مثلا :

10 - وقد ملك الإسلام خير خليفة من البدر أبهى بل من الشمس أشرق(48)

وما يستلفت نظر ابن زمرك بالخصوص هو وجه الأمير بملامحه المنسجمة

ولونه المشرق واحمرار خدوده وكل تلك السمات التي تبشر بالخير والسعادة التي ينعم بها صاحبها في حياة رغدة . فقال في هذا الصدد :

21 - بوجهٍ يُرِينا البدرَ عند طلوعِهِ     وفي وجنةِ البدرِ المنيرِ تكلُّفُ(48)

وإن كلمة بدر في الجمع قد وردت كمشبه به في شأن أبناء الأمير وبالأخص في شأن وجوههم للتأكيد على جمالها ونضارتها ولقد يتأتى للشاعر أحيانا أن يستعمل الهلال كمشبه به في مكان البدور وهذا ما يؤديه إلى المقابلة بين الأب والابن من جهة والبدر والهلال من جهة أخرى . فيقول مثلا :

1 - أسائل بدر التم كيف هلالُهُ     وأدعو له الرحمن جل جلالُهُ(81)

وأما المجموعة الثانية من الصور التي تتضمن البدر كمشبه به فهي تلك التي تعود إلى المرأة ذات الجمال الفتان وهذا ما يوجد بوفرة في الشعر الغزلي عند العرب ويعود ذلك إلى الاعتقاد بأن البدر أبهى الكائنات التي خلقها الله تعالى في العالم فكلما أراد الشاعر أن يشير إلى حبيبته ويصف وجهها ولونها تبادر إلى الذهن مشبه به واحد ألا وهو البدر في كماله ، بدر ساطع ومرتفع في السماء صعب المنال لطول المسافة بينه وبين المشاهد الذى رغبته الاقتراب منه . أليس الأمر كذلك بالنسبة للمحبوبة البعيدة عن عاشقها الزاهية في عزلتها الغيورة بجمالها في عالمها الشاسع .

**النجـوم :**

إن هذا المشبه به لم يرد إلا في الجمع وما استلفت نظر الشاعر هنا هو الكثرة والتلألؤ في سماء مظلمة مرصعة بها فهي بمثابة المصابيح التي يستضاء بها ، مصابيح ذات أشعة قوية تخرق بها ظلمة الليل .

ويلاحظ مرة أخرى أن ابن زمرك يرد كل الكائنات في الطبيعة إلى ممدوحه ولهذا أشار هنا إلى أخلاق هذا الأخير وشمائله ورأى أن يشبهها بالنجوم التي عددها لا يحصى كما نلاحظ للمرة الأولى أن الشاعر يقرن بين ما هو معنوى غير محسوس وبين ما هو مادى ملموس ليدرك السامع مدى ما يتمتع به هذا الممدوح من خصال سامية طاهرة صافية لامعة .

وقد تأتى لابن زمرك أن يتأمل السماء ليلاً ملاحظاً حركة بعض النجوم وسرعتها المدهشة فبدا له أن يشبه الأسلحة الحادة الساطعة بتلك النجوم العديدة وهذه الأسلحة في أيدى المقاتلين تنقضّ على العدو بعنف وشدة راسمة في الفضاء خطوطا مشتعلة فالمشابهة بين هذه وتلك بلغت حدا جعل ابن زمرك حائرا متسائلا :

36 - وشهاب أفقٍ أم سنانٌ لامعٌ ينقضُّ نجما في سماء غبـار(32)

ويبقى شاعرنا في ميدان الحرب متأملا الفرسان في الكرّ والعدْو نحو العدو وهذه الرؤية تأتي كمشبه بالنجوم والغاية من هذا التشبيه هنا أيضا هي الوفرة والسرعة والقوة التي ينسبها ابن زمرك لجنود ممدوحه . فيقول في هذا الصدد :

46 - أتبعتها غرر الجيـادِ كواكبـاً تنقض نجما في سماء غبـار(39)

وأما المشبه الثالث بالنجم فقد ورد في طردية حيث أشار فيها ابن زمرك إلى الباز في انطلاقه نحو ما يصطاده وقد أراد شاعرنا هنا التنبيه إلى السرعة أيضا وإلى الدقة فى الإصابة الحتمية بحيث إنه لا يترك لفريسته المجال للفرار والنجاة .

وبعد هذه الصور القاسية العنيفة ينتقل بنا ابن زمرك إلى صور كلها هدوء وسكون فوصل بنا إلى ذكر المشبه الرابع وهو ذلك المنظر الذى تشكله الخيم المتوالية المنتشرة في البعد فعددها البالغ وشكلها ولونها قد ذكر شاعرنا بالنجوم الثابتة في السماء فقال متسائلا :

51 - لمن الخيـــــــام تحسب أنها زهر الكواكب أطلعت بهلال(66)

والمشبه الأخير الذى أشار إليه ابن زمرك هو منظر أيضا تشكله الأزهار البيضاء اليانعة فما لفت نظر شاعرنا هنا هو الجمال والرونق فبدا له الحقل المكتسي بها سماء مكتسية بالنجوم .

وإذا تأملنا الآن شبكة المشبهات لاحظنا أنها تنقسم إلى مجموعتين لا علاقة بينهما معنويا فالأولى تتميز بالحركة والتنقل والثانية تتميز بالاستقرار والثبات . إلا أنهما تشتركان في الكثرة والبهاء واللمعان صفات مستمدة من النجوم كما لاحظناه سابقا .

## الصبـــاح :

إن الصباح مستهّل النهار حيث لا زال النور صافيا طاهرا لم يدنس بعد ولذا يعتبر أفضل أوقات النهار ففيه يقدم الإنسان على الحياة لتحقيق آماله وأعماله بنشاط وحماس .

ونلاحظ هنا أيضا أن أول مشبه أشار إليه ابن زمرك هو ممدوحه الغني بالله بل وجهه الوضاء وإن مشاهدة هذا الوجه يستبشر بها كما يستبشر بالصباح رمز الوعود فإن كان هذا الأخير يطرد الليل والظلام فالأمير بوجهه يطرد الهموم والأحزان ألم يقل في هذا الصدد :

1 - وابن نصر له محيّا كصبح إن تجلى جلا دجى كل كرب(5)

وقد تأتي لابن زمرك مرة أن يشير إلى جبين ممدوحه مشبها إياه بالصباح الوضاح المرح . ثم يبدو له أن هذا التشبيه لا يصح لتفوق المشبه على المشبه به فيؤديه هذا إلى أن يقول :

18 - ذو غـرة تسحـر البـدورا وطلعـة تخجـل الصبـاح(113)

وبعد الوجه يأتي ابن زمرك إلى النسب فيجعل منه المشبه الثاني ليؤكد على طهارته ، نسب ــ كما لاحظناه ــ يربط الممدوح بأسرة النبى ( ﷺ ) . فيقول موضحا ذلك :

40 - فيابن الملوك الصيد من آل خزرج وذا نسب كالصبح عز مساميا(99)

وإن الأمير بصفته قائدا ومرشدا كان عليه أن يتخذ قرارات وأن يدلى بآراء فيرى ابن زمرك في هذه الآراء وهذه القرارات المشبه الثالث بالصباح والغاية من هذا التشبيه التأكيد على التوافق بين هذا وذاك فكلاهما يتميز بالوضوح وكلاهما يفرض نفسه علينا بصرامة :

22 - وعزمٌ كما انشق الصباحُ مصمّمٌ ورأى به بيض العوارم ترهف(48)

ولما فرغ من تشبيه الأمير أتى شاعرنا إلى الشعر الأسود حينما يختلط بالشيب معلنا بقدوم الكبر ومغادرة الشباب . وهذه صورة عريقة متداولة بين الشعراء

وردت في شكل مقابلة بين الليل أى الشباب وبين الصباح أى الشيب . فإن كان لا شيء يرد الصباح فلا شيء يرد السنين والكبر فكلاهما حتمي لا مفرّ منه ومن جهة أخرى فإن لون المشبه ولون المشبه به لون واحد وهو البياض والضياء ذلك البياض الذى يتغلب على السواد فيطرده ويحل محله إلا أن رموز هذا السواد في غاية الاختلاف نظرا للمقام والمقال فرؤية رأس اشتعل شيبا سمحت لابن زمرك أن يقول :

1 - هذا الصباح صباح الشيب قد وضحا سرعان ما كان ليلا فاستنار ضحى(11)

وبقي لنا في النهاية أن نشير إلى تشبيه فرس أشهب بالصباح والغاية من ذلك التأكيد على لون هذا الفرس لون وضاء لامع مشوب بالأسود وأردف ابن زمرك على هذه الصورة صورة أخرى حيث استعمل أيضا الصباح كمشبه به . فتضمن هذا البيت صباحين وهما الفرس والفارس فقال :

67 - من أشهب كالصبح يعلو سرجه صبح به نجم الضلالة يأفل(63)

وإن شبكة هذه المشبهات مع اختلافها تشترك كالتي تقدمت في البياض واالصفاء الخالص الذى يتميز به الصباح .

## الليــل :

إنّ الليلَ لظلامه القاتم قد ورد مرارا كمشبه به في الشعر العربي وكانت الغاية منه التأكيد على سواد المشبه المتمثل في شعر الحبيبة تارة أو في القتام الكثيف المثار في ميدان القتال بعد مرور الفرسان وتارة في الفرس ذي الشعر الأسود[8] . وقد أتى ابن زمرك بهذه التشبيهات ليعبر عن إعجابه بالمشبه به فالفتاة الحسناء تتمتع بشعر أسود يرمز به إلى الجمال والشباب وكذلك الأمر بالنسبة للفرس وأما سواد القتام فيراد به شدة العدو وكثرة الخيول المرتمية على صفوف الأعداد .

---

(8) انظر الديوان ، البيت 3 ، رقم 41 و 13 رقم 70 و 32 رقم 75 .

وأما المعاني الأخرى التي يسمح بها الليل بسواد ظلامه فهي معاكسة للمعاني التي يسمح بها النهار بضيائه . وهكذا يتأتى لنا أن نقابل بين الليل والنهار أي بين الجهل والمعرفة وبين الشقاء والسعادة وبين السلبي والإيجابي ففي الليل يطمس ما كان جليا وتتوقف فيه كل حركة أو تكاد ويصبح الإنسان عاجزا مستسلما لطغيان الظلام وهذا ما يثير في نفسه الحيرة والقلق والاضطراب .

وإن الليل عادة هو الوقت المناسب الذى يحدث فيه ما لا يحمد عقباه فلا غرابة إذن أن نعثر على هذا المشبه به عند ابن زمرك مصحوبا بالعسر والضلال والمكر والظلم والعدوان فيستخدم شاعرنا هذه المعاني في مدحه الغني بالله الذى يتمتع بتلك الصورة الفريدة التي تسمح بالقضاء على هذه الحوادث الليلية .

فيتجلى لنا من خلال ما تقدم أن الليل قد استعمل مشبها به بمفهوميه الحسي والمعنوي فكانت لنا مجموعتان من الصور متباينتان لا علاقة بينهما فاستقلت كل منهما بصفة معينة مقتبسة من الليل الذى يبقى نقطة اللقاء بين هذه وتلك .

**المـــاء :**

إن الماء بجميع أشكاله من سحاب ومطر وأنهار وبحار له أهمية عظمى إذ هو قبل كل شيء مصدر الحياة ولقد ورد ذكره في الآية الكريمة حيث يقول الله تعالى : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهورا ﴾ ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ . ويقول أيضا : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ﴾[9] .

ومن المعلوم أن الآبار والعناصر في الصحارى تشكل نقطة اللقاء بين الرحالة فحولها تنتظم الحياة فبالماء يطفأ العطش وبه تفلح الأرض وبه يطهر الإنسان ذاتيا ومعنويا .

ولقد ورد الماء بكثرة في الشعر العربي وكانت الغاية هنا من هذا الاستعمال

---

(9) انظر القرآن : سورة 2، آية 164 .

التعبير عن الكرم والسخاء . فكل ممدوح موصوف بهما ولا يفوت الشاعر المداح ألا يذكرهما ملحا عليهما صادقا كان أو كاذبا . فمن المعروف أن الشاعر العربي يعيش من العطاء فهو ماؤه ورزقه والممدوح هو العنصر الفياض بهذه المادة الثمينة .

إن ابن زمرك كغيره من الشعراء قد استخدم المشبه به المتمثل في السحاب مرات عديدة فجعل من الغني بالله سحابا غاصا بالمياه النافعة الطاهرة التي تنزل منه ذهبا صافيا خالصا وفي كثير من الأحيان قد اقتصر شاعرنا على الإشارة إلى اليد اليمنى إذ بها يتم العطاء وإلى مترادفاتها مثل الراحة والكف الواردة في المفرد وتارة في الجمع للتأكيد على كثرة ووفرة ما يقطر منها ويذهب ابن زمرك في غلوه إلى تعويض السحاب باليد اليمنى بل إلى تفضيل المشبة على المشبه به وهكذا يتأتى للمدوح أن يقوم بالمعجزات ومنها إحياء ما كان ميتا على البسيطة بفضل عطاياه النازلة منه باستمرار . ويشير ابن زمرك أحيانا إلى الأنامل عوض اليد قصد مضاعفة العناصر التي تتفجر منها المياه الغزيرة . فيقول على سبيل المثال :

16 - إذا استمطرت في المحل سحب بنانه فهن لمستجد هوام هوامل(61)

89 - لك الله من تول غمام بنانه أقامت فروض البر منها النوافل

وأما المشبه الثاني فيتمثل في الدموع التي شبهها ابن زمرك بالسحاب المتهاطل من السماء والغاية من ذلك التأكيد على كثرتها وغزارتها وسيلانها المتواصل الذى يترجم عن الألم الشديد والتوجع اللاذع لصاحبها . وقد استخدم شاعرنا هذا التشبيه في حقه وذلك بعد وفاة ممدوحه وحاميه الغني بالله فقال معبرا عن حزنه العميق على منْ فَقَدَه حزن أمده إلى الجميع :

14 - فلا جفن إلا مرسِلٌ سُحْبَ دمعه ولا قلب إلا بالجوى يتلهف(48)

وإن السحاب لكثافته وسواده قد جاء مشبها به للمشبه الثالث المتمثل في القتام الذى تثيره الخيول في ميدان القتال والغاية من ذلك هنا الإشارة إلى كثرة هذه الخيول الدالة على القوة العسكرية التي يتمتع بها الممدوح قوة تفوق قوة

العدو فتسمح له بالانتصار . فيذهب إلى أن يقول :

66 - ثارت عجاجته واليوم محتجبٌ والنقع يؤثر غيماً من دياجِيهَا(93)

وتجدر الإشارة إلى صورتين معهودتين استخدمهما ابن زمرك هو الآخر بدوره وضمنهما السحاب كمشبه به . فالأولى جاء فيها المشبه « الدخان » الكثيف المتصاعد من سقوف القصر الملكي للدلالة على أهمية تهيّؤ الوجبات اليومية التي تقدم للضيوف والزوار وأبناء السبيل والغاية من هذا التشبيه الإشارة إلى كثرة الوفود التي تقصد هذا الأمير الكريم لعلمها أنها ستجد لديه كل ما ترغب فيه من طعام وفراش وإن الممدوح الذى يقوم بهذا الدور يعد من الكرام الأسخياء الذين يتمتعون بالخيرات الطائلة .

وأما الصورة الثانية فهي التي جاء فيها المشبه المتمثل في « الحياة » تلك الحياة التي هي لا محالة زائلة . فما استوقف ابن زمرك هنا هو حركة السحاب المتنقلة في السماء من مكان إلى مكان حتى تخفى عن الأبصار خفاء بمثابة الاضمحلال والموت . والمعروف أن السحاب لا يستقر ولا يدوم وهذا ما جعل شاعرنا يفكر فيه عند الكلام عن الحياة فقال :

6 - والعمر قد مرّ كمرّ السحابِ والملتقى بالله عمّا قريبِ(117)

ولقد عثرنا على صور أخرى بنفس المعاني السابقة نفسها حيث استعمل ابن زمرك مكان السحاب المطر أو الطل أو الندى أو الغيث أو الحيا وكل هذه المشبهات بها يرمز بها إلى كرم الأمير الذى لا يتأتى للحياة أن تكون بدون عطاياه المتناثرة على البشرية جمعاء .

ويذكر ابن زمرك في النهاية « البحر » كمشبه به ويبقى المشبه دائما الأمير والغاية من هذا التشبيه الإشارة إلى ما يسمح به البحر من معان مثل العمق وحجم المياه المتلاطمة والأمواج العالية الغزيرة المنتشرة على مساحات مترامية الأطراف دليلا على عظمتها وقوتها وسيطرتها وكل ما يثير في النفس من خوف ورعب وأسرار غامضة وهذه الصفات كلها لا تكفي شاعرنا الذى يذهب به خياله إلى أن يقول :

85- تفجر من كفّيْهِ عشرةُ أبحرٍ يغصّ بهن البحرُ وهي أناملُ(61)

ويرى أن وجود الغني بالله بيننا كافٍ ، يغنينا عن المياه بجميع أشكالها فلا حاجة إلى الأمطار ولا إلى البحار فهو قادر أن يلبي دعوة كل داع مهما كان نوعها .

وإذا تأملنا الآن شبكة المشبهات استخلصنا أنها اقتصرت أو كادت على الأمير الغني بالله للتأكيد على شدة كرمه في كل مكان وفي كل أوان ويتجلى لنا من خلال ذلك همّ الشاعر بهذه الصفة الأولية التي لا بد من توفرها لدى الممدوح لعلمه أنه بدونها لا يحصل على ما يسد به رمقه .

## الطبيعة في فصل الربيع :

إن فصل الربيع هو الفصل الذى تعود فيه الطبيعة إلى الحياة عارضة على المشاهد منظرا رائعا افتتن به الشعراء منذ القديم وإن مكونات هذا المنظر من أشجار مورقة مثمرة وأزهار مختلفة الألوان طيبة الروائح جاءت منسقة منسجمة بيد فنان ماهر فتبتهج بها العيون وتطرب بها الآذان فتلك الصفات الشيقة الرائقة التي تتميز بها الرياض قد استمالت ابن زمرك كغيره من الشعراء فأشار إليها واصفا تارة ومشبها بها تارة أخرى .

وإن أول مشبه تكرر ذكره عند ابن زمرك هو شمائل أو محامد ممدوحه الغني بالله تلك الشمائل السامية اللطيفة المعطرة قد ذكرته بالرياض اليانعة المرتوية بمياه الأمطار في الصباح الباكر ( رقم 62 بيت 13 ) .

وأما المشبه الثاني بالرياض فهو المتمثل في الشباب والصبا وهو أفضل مرحلة في الحياة حيث يتمتع المرء فيها بالقوة والبهاء جسما وعقلا كما هو الأمر بالنسبة لكل شيء في مستهل ربيعه . والإعجاب بهذا الشباب يجعل ابن زمرك يصيح قائلا :

1- لله ما أجمل روض الشباب من قبل أن يفتح زهر المشيب(118)

وقد تأتى لابن زمرك أن يجيب بعض مراسيله مادحا ما تلقاه منهم من رسائل

بديعة رائعة الأسلوب مفعمة بالمحسنات البلاغية والبيانية فعبر عما أثارته في نفسه قراءتها من عواطف كلها إعجاب شديد بها فخطر بباله أن يشبهها بالرياض المزهرة المعطرة . فقال مخاطبا ابن الخطيب وناهيك به من كاتب جليل :

4- فأتت كما شاءت وشاء نجيها    تذكي الحجا وتنعّم الأرواحا

5- لا بل كمثل الروض باكره الحيا    وسقى به زهر الكمام ففاحا(13)

وأما المشبهات الأخرى التي أحصيناها فلم تتردد بكثرة وكثيرا ما عثرنا على بعضها إلا مرّة واحدة وكلها تدل على خيال بارع تمتع به شاعرنا وهذا ما أداه إلى ذكر سماء اشتعلت نجوما وغزالة تميزت بشعر ذهبي تخللته بقع سوداء في انسجام شيق كساها جمالا ورقة ( انظر رقم 75 بيت 27 ورقم 38 بيت 31 ) . ثم انتقل إلى الأيام السعيدة ولعل ذلك عائد إلى ما يتمتع به الإنسان فيها من مرح ورغد العيش وأخيرا إلى الفكر لما فيه من تشابه بالأرض الطيبة الخصبة المثمرة فبنات الفكر هي ثمار الرياض الحلوة طعما ، الشيقة رائحة . ( انظر رقم 38 بيت 45 ورقم 41 بيت 37 ) .

وإن شبكة هذه المشبهات كلها متجانسة وما يربط بينها هو الحسن والجمال واللطافة والعذوبة صفات اجتمعت كلها في مشبه به واحد ألا وهو الرياض .

**الأشجار والغصون :**

إن ابن زمرك قد خص بالذكر شجرة الدوح واستعملها كمشبه به ومن المعروف أن هذه الشجرة تتميز بضخامة جذعها وصلابته وبارتفاع غصونها في الفضاء وكثافة أوراقها وامتداد عروقها تحت الأرض ذلك ما يضمن لها الثبات والاستقرار فاستعار شاعرنا هذه الصفات كلها للتعبير عن القوة والمتانة وعن الضخامة والأبهة فكان أول مشبه أشار إليه ابن زمرك هو أسرة بني نصر التي ينتمي إليها ممدوحه فتأتى له أن يقول في إعجاب :

73- ملك إذا لثم الوجود يمينه    فالبحر عذبا والرياض بليلا

75- من دوحة نصرية يمنية    وشجت فروعا في العلا وأصولا(56)

ثم عاد ابن زمرك إلى الغني بالله لافتا النظر إلى شهرته وسمعته من جهة وإلى مواليه من جهة أخرى فجمع بينهما في مشبه به واحد فجعل الشهرة دوحة والموالي أغصانها الطويلة فإن كانت هذه الشجرة لا تخفى عن الأبصار لعظمتها فكذلك الأمر بالنسبة للغني بالله الذى يفرض نفسه على البعيد والقريب لعلو شأنه .

وإذا انتقلنا إلى الشعر الغزلي لاحظنا أن بعض الصور الواردة فيه تضمنت الغصن أو القضيب كمشبه به وهذا التشبيه قديم معهود لدى الشعراء وكانت الغاية منه الإشارة إلى ما يتميز به الغصن من صفات تتمثل في ليونته واستقامته واهتزازه العذب اللطيف عند هبوب النسيم تلك الصفات التي جعلت ابن زمرك وغيره يفكر فيها عند ذكر قامة الحبيبة قامة تتميز بالرشاقة والنحول تهتز عند مشية صاحبتها اهتزازا يفتتن به العاشق المحروم لما يثير في نفسه من تشوق شديد إلى المعشوقة المتبخترة المتدللة .

وإن ليونة الغصن ولدانته أدت شاعرنا إلى استعماله كمشبه به للإشارة إلى السيوف الجديدة المشهرة السهلة الانعطاف حتى لا تتكسر عند الاصطدام بالعدو .

والمشبه الثالث الذى أشار إليه ابن زمرك مرتين يتمثل في أبناء الأمير والغاية من هذا التشبيه التأكيد على حداثتهم ونعومة أجسادهم وكل ما أدى شاعرنا إلى أن يقول :

122 ـــ فلله عينا من رآهم تطلَّعُوا غصونا بروض الجود منك ترعرعوا(103)

وقد تأتى لابن زمرك في ظروف خاصة أن يستعمل جذع الشجرة كمشبه به وذلك عند وصفه الزرافة كما مرّ بنا وما لفت نظره وأثار دهشته هو عنق هذا الحيوان العجيب لما يتميز به من طول وغلظة وكذلك أطرافه العالية المستقيمة . فقال في هذا الشأن :

34 - تحدو قوائم كالجذوع وفوقها جبلٌ أشمُّ بنورِه متـوارِى

35 - وسمت بجيد مثل جذعٍ مائلٍ سهلِ التعطف ليِّنٍ خـوّارِ(38)

## الأزهار والثمار :

إن الأزهار كمشبه به قد وردت بكثرة ولا سيما في الشعر الغزلي . والجدير بالذكر هو أن هذه الصور ثابتة منتظمة لا تتغير فكل زهرة إلا ويقصد بها مشبه واحد معين فهذه للونها وتلك ليناعتها والأخرى لنضارتها بحيث إن كل مشبه به يفرض حتميا مشبهه فالنرجس مثلا يراد به العين الحوراء للتأكيد على سواد إنسانها وبياض ما حوله والوردة يراد بها الخد للونه الأحمر الساطع فتأتى لابن زمرك أن يجمع أكثر من مرة بين هذين المشبهين بهما . إذ قال :

23 - وقد بت أسقى وردة الخد أدمعي 		فأصبح فيها نرجس اللحظ ذاويا(99)

وأما الأقاحي فكانت الغاية منها الإشارة إلى الأسنان لبياضها الناصع وإلى ترتيبها المنتظم وقد كرر ابن زمرك هذا التشبيه سبع مرات في ديوانه فقال مثلا :

20 - رشفت بها شهدَ الرضابِ سلافةً 		وقبلت في ماء النعيم الأقاحيا(99)

وإن السوسن[10] يقصد به عادة العنق اللين الصافي الشفاف إلا أن ابن زمرك قد استعمله في حق الأنامل البيضاء الناعمة . وإذا أراد الشاعر الإشارة إلى الحمرة الشديدة لشفاه الحبيبة استعمل زهرة الرمان للونها ونضارتها .

ولقد عثرنا على الأزهار مستعملة في الجمع كمشبه به والغاية منه الإشارة هنا إلى الروائح الطيبة فكان المشبه سجايا ممدوح ابن زمرك من جهة وأبنائه من جهة أخرى . ما أداه إلى أن يقول :

19 - وأبناؤه درٌّ تناسق عِقْدُهُ 		يحلّى بهم من لبّةِ الفخْرِ عاطلُ

20 - أزاهِرُ في روضِ المحاسِنِ أينعتْ 		فلا روضُها ذاوٍ ولا الزَّهْرُ ذَابِلُ(61)

وإلى جانب ذلك فقد ذكر ابن زمرك مشبها ثالثا يختلف تماما عما تقدم وهو المتمثل في السيوف ولعلّ لمعانها وعددها العديد وترتيبها هو الذى جعل شاعرنا يفكر في منظر كستْه الأزهار البيضاء المصطفة . فقال واصفا مركبة :

---

(101) انظر الديوان : رقم 37 ، بيت 9 .

109 ـــ ترى الدوح منها بالأسنة مزهرا إذا ما سقتْهُ للسيوفِ الجداولُ(61)

وإذا أتينا الآن إلى الثمار تحتّم علينا أن نلاحظ أنها لم تستعمل كمشبه به إلا قليلا وقد اقتصر ابن زمرك على الإشارة إلى التفاح وإلى الرّمان . وكلاهما ينفرد بمعنى معين فالمشبه معروف كما هو الأمر بالنسبة للأزهار فالثمر الأول يقصد به الخدّ للونه وطعمه والثمر الثاني يقصد به ثدى الحبيبة لشكله المستدير في غاية الإتقان .

وإذا تأملنا شبكة هذه المشبهات لاحظنا أن أغلبها جاء في حق الحبيبة الجميلة الحسناء ولا بد من توفر هذه الصفات فيها لتلبية أذواق العرب آنذاك وهذا ما يفسر التماثل بين الصور هذه عبر الأجيال حتى أصبحت خالية من كل طرافة .

**الظل الظليل :**

إن ابن زمرك قد أعطى لهذا المشبه به أهمية كبرى كما يدل عليه تكراره في صور عديدة إلا أن هذه الصور كلاسيكية يعثر عليها عادة في الشعر العربي منذ القديم ولعل الغاية من استعمال الظل كمشبه به التأكيد على ما يسمح به من حماية ووقاية من حرارة الشمس القاهرة وتزيد قيمة الظل في البلاد العربية حيث لا توجد فيها أشجار كثيرة يلجأ إليها . ومن المعلوم أن الجالس في ظل ظليل يجد راحة وبرودة عذبة تسمح له بأن يقضي أوقات سعيدة ممتعة ولعل هذا ما جعل ابن زمرك يستخدم هذا المشبه به لإبراز ما اتّصف به المشبه .

والمشبه الأول الذى أشار إليه شاعرنا هو الله سبحانه وتعالى الذى نشر ظله الواسع على مخلوقاته وما هذا الظل إلا رسوله ( ﷺ ) وهكذا تأتى لابن زمرك أن يقول قارنا بين الله ونبيه :

30 - خير البريـة مجتباها ذخرهــا ظـلُّ الإلٰـهِ الــوارفُ الأفيا(1)

ويذكر ابن زمرك بعد الله ورسوله ممدوحه الغني بالله داعيا إياه المولى تارة وظل الخليفة أو السلطان تارة أخرى ، وأخيراً ظلّ المملكة ( انظر الديوان رقم 68 بيت 5 ورقم 103 البيتان 28 و 75 ) . ويحدث له أحيانا أن يخاطب ممدوحه

مباشرة مكتفيا بنسب الظل له بكاف المخاطبة .

ويتجلى لنا من خلال صوره أن هذا الممدوح مصدر ظلال عديدة إذ بفضله امتد ظله إلى الرعية في ميادين شتى مثل العدل وظل الأمن والسعادة وظل الإيمان فيضمن هكذا للإنسان حياة رغدة ( انظر رقم 37 بيت 22 ورقم 42 بيت 31 ورقم 48 بيت 23 ورقم 78 بيت 31 ) .

والمشبه الأخير الذى يشير إليه ابن زمرك هو المتمثل في الشباب وهو المرحلة المرغوب فيها في حياة الإنسان لما يوجد من مرح ومتعة وراحة بال ( انظر رقم 110 بيت 8 ) .

وإن هذه الشبكة رغم اختلاف مكوناتها ترمي كلها إلى ما يجدُهُ فيه الإنسان من رحمة وهدوء ينشرح بهما صدره فيعيش سعيداً مرحاً .

**الروائح الطيبة :**

إن هذه الرياض الخضراء اليانعة بمختلف الأزهار تفوح بالروائح الطيبة تلك الروائح التي استخدمها ابن زمرك في صوره . والجدير بالذكر أن عدد هذه الصور قليل وليس فيها ما يفاجئنا من جديد فهي صور معهودة متداولة بين الشعراء عبر العصور إذ لا شيء أطيب من المسك والعنبر فاستعملا كمشبه به للتعبير عما ينشر من الموصوفات من رائحة ذكيّة مستعذبة .

فكان أول مشبه أشار إليه ابن زمرك هو بطبيعة الحال ممدوحه الغني بالله الذى حيثما سار يخلف وراءه ما يمتليء به الجو عطرا ينبعث من ذاته وسجاياه ورأى شاعرنا أن يجمع بين المسك والعنبر ليؤكد على شدة تلك الروائح وندرتها في نوعها ولم يغادر ابن زمرك الميدان هذا وبقي ملازما ممدوحه مشيرا إلى كل ما يعود عليه بالطيب فهذا لقاء به يفوح عطرا وهذه مدائح تهدى كلها مسك .

وقد حدث لابن زمرك مرة أن يعكس الأمور فجعل من المشبه به مشبها وذلك عندما ذكر الحبيبة فتأتى له أن يقول :

5- رعى الله زهراً ينتمي لِقَرَنْفُلٍ حَكَى عَرْفَ من أهوى وإشراقَ خَدِّهِ(89)

ولنشر إلى المشبهات الأخرى التي لم ترد إلا مرّة واحدة وليس فيها ما يستلفت الأنظار فهذه تحية طيبة وهذه ذكريات معطرة وهذه مقطوعة شعرية وفّق فيها صاحبها .

وينبغي أن نلاحظ أنه إذا كانت الصور العائدة إلى الشم قليلة فالصور العائدة إلى الذوق وإلى السمع وإلى اللمس فهي مفقودة تماما في شعر ابن زمرك .

**الحجر النفيس :**

إن المشبه به المتمثل في الحجر النفيس مع أنواعه قد ورد كثيرا في الصور التي أحصيناها في ديوان ابن زمرك . وإن هذه الأهمية عائدة لما يتصف به هذا الحجر من لون ورقّة وشفاف من جهة ولندرتها من جهة أخرى ندارة تجعلها عزيزة مرغوبا فيها ، وبعبارة أخرى فجمالها وصفاؤهاهما الصفتان اللتان استمالتا الشعراء لاستخدامهما في صورهم .

وما تجدر الإشارة إليه هو أن ابن زمرك قد فضل من بين الحجر النفيس الدر فاستعمله كمشبه به في صور بلغ عددها العشرين . ثم اللؤلؤ في أربع صور ثم الجمان بثلاث صور وبعدها جاءت الجواهر في خمس عشرة صورة جواهر تشكل قلائد وعقود استعملهما شاعرنا لانتظامهما وتناسقهما . ونلاحظ هنا أن الشاعر يتمتع بنوع من الحرية في استعمال حجارة محل الأخرى والعكس بالعكس فليس الأمر هنا كما لاحظناه بالنسبة للأزهار حيث تعود كل زهرة إلى مشبه معين ثابت .

إن المشبه الأول الذى أشار إليه ابن زمرك هو بيت من الشعر وجدناه في الصور الثلاث المتضمنة المشبهات بها الثلاثة الدر والجوهر واللؤلؤ . فأراد هنا شاعرنا تقييم شعر ورد عليه أثار إعجابه فأكد على نقاء الأسلوب ودقة المفردات وما تميز به كل بيت من بيان وبلاغة ثم أتى إلى القصيدة المنتظمة فذكرته بالعقد النفيس اللامع . فقال :

24 - فلذاك أنظمها قلائد لؤلؤٍ لألاؤها قد شفّ بالأنوارِ(36)

وقال أيضا :

5 - فأصدقتها من بحر فكرى جواهراً تُنَظّمُ من دُرِّ الدراريِّ في عِقْدِ(21)

والمشبه الثاني فهو المتمثل في قطر الندى فصفاؤه ولمعانه جعلا شاعرنا يفكر في الجواهر والدر واللؤلؤ وكذلك الجمان . وهي صور كانت تروق ابن زمرك الذى كان يعتبر الندى أمرا ضروريا لا بد منه ليتأتى للطبيعة أن تنتعش وتزيد نضارة[11] .

وفي الشعر الغزلي أشار ابن زمرك إلى الدموع السائلة قطرات متوالية تلك الدموع الصافية الغليظة التي تدل على الحزن العميق والتأسف الشديد لصاحبها المحروم من التمتع بحبيبته فهي غالية ثمينة تذكر الشاعر لقيمتها ولونها وانتظامها اللؤلؤ والدر والجمان التي وردت كمشبه به في ست صور[12] فذكر إحداهما على سبيل المثال :

15 - تبسم فاستبكى جفوني عبرةً ملأت بدرٍّ الدَّمْعِ منها ردائيا(99)

وقد استخدم ابن زمرك هذا المشبه به مرة أخرى في الشعر الغزلي عندما ذكر أسنان الحبيبة تلك الأسنان البيضاء المصطفة التي تذكر بالعقد لنضارته وانتظامه الشيق وقد تأتى لشاعرنا أن يجمع بين المشبهين لتجانسهما واشتراكهما في مشبه به واحد فوفق إلى صورة رائقة غير خالية من طرافة فقال مشيرا إلى الحبيب والحبيبة في آن واحد :

4 - فـــدام يعمُـــر ربعـــي في ظـــل مـــولى الموالي(68)

ثم انتقل ابن زمرك إلى السماء وشاهد نجومه المتناثرة الشديدة اللمعان في ظلمة الليل ذلك اللمعان الذى ذكره باللؤلؤ فجعله مشبها به فأصبح السماء محلّى بها . فقال :

1 - وكأن النجوم في غسق الليـ ـل جمان يلوح في آبنوس(44)

---

(11) انظر الديوان : الأرقام : 106 - 107 - 108 ، والأبيات 2 , 6 , 24 .

(12) انظر الديوان : الأرقام : 24 - 11 ، الأبيات 14 - 20 .

ومن السماء أتى ابن زمرك إلى الأنهار ملاحظاً أحجارها فبدت له ملساء مستديرة في شكلها ساطعة تحت المياه الجارية الصافية وهذا ما أداه إلى تشبيهها بالجواهر المفروشة فوفق هكذا إلى صياغة صورة رائعة طريفة . فقال :

22 - والنهر مصقول الحسام متى يرد    درع الغدير مصفقا فيه صدرْ

23 - يجرى على الحصباء وهي جواهرٌ    متكسّراً من فوقها مهما عثرْ(40)

وبعد الأنهار جاء دور الأشجار بأغصانها المزهرة في فصل الربيع . فتأمل الشاعر هذه الأزهار ورآها لؤلؤا إلى جانب الذهب والفضة اللذين دخلا في بعض الصور كمشبه بهما فأصبحت الأشجار ذا منظر رائق للحلية الثمينة الناضرة التي اكتست بها كما هو الأمر بالنسبة للفتاة الحسناء المتحلية . وهكذا تأتى له أن يقول :

11 - والحلي زهـر لـه انتظـام    يكلـل الـقضب بالـدرر(113)

وحدث لابن زمرك أن يجمع في تشبيه بين الذهب والفضة وإليك الصورة الأنيقة التي وفق إليها إذ يقول :

88 - فإن ملأت كف النسيم مع الضحى    دراهم نور ظل عنها مكافيـا

89 - فيملأ حجر الروض حول غصونها    دنانير شمس تترك الروض حاليا(99)

ولقد استعمل شاعرنا العسجد كمشبه به قاصدا به تارة الذهب وتارة الياقوت للتأكيد على اللون الذهبي أحيانا وعلى اللون الأحمر القاني أحيانا أخرى .

وهذه « الحمراء » التي كان ابن زمرك معجبا بها إلى حد بعيد فقيمتها في عينه وجمالها وكذلك لونها جعله يفكر في العسجد فشبهها به قائلا :

18 - كأنّ حمراءَهَا واللهُ يكلؤهـا    ياقوتةٌ فوق ذاك التاجِ يُعليهَا(93)

وأما المشبهات الأخرى التي عثرنا عليها عند ابن زمرك فهي مشبهات تميزت بلونها الأحمر القاني فشبهها كلها بالعسجد ولكن عددها قليل وهكذا أشار إلى الدم الكاسي السيوف في القتال مرة وإلى منقر الباز مرة أخرى وكلتا الصورتين تدل على العنف والقساوة وأما الثمر المعروف بحب الملوك الذى أهداه إليه الغني بالله فهو ياقوت لِلَمعَانِه .

وفى الأخير عاد ابن زمرك إلى ممدوحه الغني بالله وإلى أخلاقه السامية ولعل قيمة هذه الأخلاق النادرة هي التي أدته إلى التفكير في اللؤلؤ كمشبه به وقد يبدو هذا التشبيه مستبعدا شيئا ما ولنتأمل ما يقول :

8- يـأيها الملك الـذى أوصافـه درّ على جيد الزمان مفصَّلُ(62)

وكان الأمر كذلك بالنسبة لأبناء هذا الممدوح فورد ذكرهم في صور ثلاث فأرادهم شاعرنا أهلاً ليرثوا من أبيهم فضائلَهُ وشمائلَهُ حتى يكونوا حِلْية المملكة بهم تتزين وتفتخر فقال في هذا الشأن :

19- وأبنـاؤه درٌّ تنـاسق عقــدُهُ يحلى بهم من لبّه الفخر عاطلُ(61)

وينبغي الآن أن نلاحظ أن هذه المشبهات المتعددة المتنوعة تنفرد بقيمتها الثمينة من جهة وبمظهرها الشيق الرائق من جهة أخرى وهما صفتان اجتمعتا في مشبه به واحد ألا وهو الحجر النفيس .

**الأسـلحة :**

إن مختلف الأسلحة التي عثرنا عليها ليست متنوعة فهي تنحصر في السيف ومترادفاته من صارم ونصل وحسام ومنصل ومرهف وفي الرمح ومترادفاته من سنان وذابل وأسمر ومسدد وإلى القوس والسهم وهي أسلحة مستعملة كلها للهجوم إلى جانب الدرع وهو سلاح دفاعي .

إن الصور التي يدخل فيها الحسام أو الصارم كمشبه به أكثر عددا من التي تضمنت السيف كمشبه به . فضاعف ابن زمرك من استعمال الكناية حيث يقتصر فيها على الصفة مكان الموصوف فأشار شاعرنا إلى اللمعان وإلى الحدة والقساوة وهي صفات تدل على القوة والسرعة التي بها تستعمل هذه الأسلحة لبلوغ غايتها .

وإن أول مشبه لاحظناه قد تمثل بطبيعة الحال في الأمير الغني بالله وفي ابنه وخليفته أبي الحجاج فكلاهما سيف مشهر لنصرة الحق . وقد جمع ابن زمرك بين الأب والابن فتأتت له هذه المقابلة . فقال :

3- وإن ردّ سيف الملك صونا لغمده فقد سلّ من غمدِ الخلافة مرهفُ(48)

وكثيرا ما يعثر على المشبه به المتمثل في السهم في الشعر الغزلي في صور تعودنا

عليها لترددها وأصبح من المعلوم أن الشعراء العرب قد رأوا في نظر حبيبتهم سهما ثاقبا فكلما صوبت الحبيبة سلاحها نحو عاشقها أصابته برميها دائما وبدقة تاركة أياه في حالة يرثى لها . ولهذا فكل عاشق إلا وهو متخوف مما سيصاب به من ألم آت من حبيبته متجبرة طاغية واثقة بنفسها لما تكسبه من سلاح . وقد قال ابن زمرك في هذا الشأن :

13- كم شادن قاد لي الحتوفا    بمربع القلب قد سكن

14- يسلُّ من لحظه سيوفا    فالقلب بالروع ما سكن(108)

وأما المشبهات الأخرى التي عثرنا عليها عند ابن زمرك فتعود كلها إلى الطبيعة وهي البرق والنجوم والأنهار . مشبهات تشترك في صفة واحدة وهي اللمعان وهذا ما أدى شاعرنا إلى استعمال مشبه به واحد والملاحظ أن الصور التي تضمنت الأنهار أكثر تردّداً من الأخرى ولعل هذا يعود إلى إعجاب ابن زمرك بالشنيل الذى طالما تأمله بمياهه الممتدة تحت أشعة الشمس عارضا للناظر صفحة ملساء ساطعة .

وأما البرق فهو من الحوادث الطبيعية الذى طالما حير الشعراء بلمعانه في السماء وبسرعته الخاطفة فرأوا فيه سيفا مشهرا بيد فارس ماهر .

وقد حدث لابن زمرك أن يتأمل النجوم في السماء فاستعمل المشبه به في الجمع للتأكيد على مظهرها وعلى عددها العديد وهي صورة لم نعثر عليها إلا مرة واحدة .

وإذا أتينا إلى المشبه به المتمثل في الرمح ومترادفاته تبين لنا أن ما استحسنه فيه ابن زمرك كغيره من الشعراء . هو استقامته ورقته وليونته وهي صفات استعملها شاعرنا في الشعر الغزلي عند وصفه قامة الحبيبة قامة تروق الناظر لحسن استوائها وتناسق مكوناتها . ولا حاجة إلى التذكير بأن هذه الصور ليست جديدة[13] .

(13) انظر الديوان : رقم 24 بيت 10 ورقم 40 بيت 61 ورقم 75 بيت 17 .

ونبقى في الغزل بالمشبهين بهما المتمثلين في السهم والقوس فالأول يمتاز بالحدة والثاني بحسن الانحناء وكلاهما يدخل في صورة واحدة . ويشير إلى مشبهين مختلفين فالأشفار الطويلة الرقيقة للحبيبة هي سهام حادة مصوبة نحو المنظور إليه الذى يصاب لا محالة بها لجودة الأقواس التي ترمى بها وما هذه الأقواس إلا حواجب الحبيبة المتقن تخطيطها(14) حبيبة في مقام الرامي الماهر الذى لا يخطيء أبدا في رمْيه . فصور لنا ابن زمرك ذلك جامعا بين القامة والأشفار فتأتى له أن يقول :

17 - فطعنت من قدّ القوام بأسمر ورميت من غنج اللّحاظِ بأسهمِ

18 - قاتل اللـه الجفـون فـإنها مهما رمت لم تخط شاكلة الرمى(75)

وقد حدث لابن زمرك في طردياته أن يستعمل الباز كمشبه في صورة واحدة وذلك عند إطلاق هذا الحيوان صوب طريدته فينقض عليها بسرعة مدهشة تلك السرعة مع الإصابة الحتمية هي التي جعلت شاعرنا يفكر في السهم فاستخدمه كمشبه به .

ولنذكر في النهاية الدرع مع الملاحظة أنه لم يستعمل إلا قليلا فشكله وصفحته العريضة الملساء اللامعة أدت شاعرنا إلى استعماله كمشبه به في صورة معهودة حيث يكون المشبه فيها دائما الماء الهادىء الممتد مساحة كما هو الأمر بالنسبة للبحيرات أو لصهاريج قصر الشنيل حيث قال :

20 - لله بحرك والصبا قد سردت منه دروعا تحت أعلام الشجر(41)

وإذا تأملنا الآن هذه المشبهات تبين لنا أنها تشترك في صفات ثلاثة اجتمعت في الأسلحة المذكورة وهي اللمعان والاستقامة والحدة .

**الطبيعة الحيـة :**

إن المجموعة الثانية من الصور هي تلك التي ورد فيها المشبه به مقتبسا من

---

(14) انظر الديوان : رقم 29 بيت 23 ورقم 40 بيت 1 ورقم 111 بيت 14 ورقم 120 بيت 34 ورقم 125 بيت 7 .

الطبيعة الحية . والجدير بالذكر أن هذا النوع عدده قليل إذا ما قارناه بما تقدم من الصور المقتبسة من الطبيعة الجامدة .

ويتجلى لنا داخل هذه المجموعة نوعان من الصور : النوع الأول يتمثل في صور حيث ورد المشبه به حيوانا والنوع الثاني يتمثل في صور تضمنت عضوا من أعضاء الإنسان أو علامة أو حركة من حركاته .

**النوع الأول** : إن الحيوانات التي استعملها ابن زمرك كمشبه به هي الأسد والغزالة والطيور والقرد .

**الأســـد :**

إن الأسدقد ورد تارة في المفرد وتارة في الجمع في تشكيل اثنتي عشرة صورة حيث نلاحظ إن المشبه لا يتغير فهو إما الملك النصرى أو أبناؤه وإما الجيوش النصرية[15] . والأسد كمشبه به قديم الاستعمال عند العرب . والغاية من ذلك الإشارة إلى ما يتميز به الأسد من صفات ذاتية وخلقية مثل القوة والشجاعة والسيطرة وكل ما جعله ملكا على الحيوانات كلها من دون نزاع . وقد تأتى لابن زمرك أن يجمع بين سيّده وأسرته في دورهما بالنسبة للرعية . فيقول :

18 - من مبلغ قحطان آساد الشرى ما غابها إلا الوشيجُ الذبلُ

19 - أن الخليفة وهو شبلُ ليوثِهم قد حاط منه الدينَ ليثٌ مشبلُ(63)

**الغــزالـة :**

إن الغزالة ومترادفاتها من ظبي وظبية ورشأ قد ترددت مرارا كمشبه به في صور تنتمي كلها إلى الشعر الغزلي . إذ من المعهود أنه يرمز بها إلى الجمال فلطافتها وخفتها وسعة عيونها صفات يود كلّ عاشق أن يراها في الحبيبة . فإن خصصت الغزالة والظبية في تشبيه المرأة بها فالظبي والرشأ وردا في تشبيه المحبوب بهما . وقد قال ابن زمرك في كل منهم :

8 - وفي السرب من نجد تعلقت ظبية تصول على ألبابنـا وتـــغير(28)

وقال أيضا :

---

(15) انظر الديوان : رقم 56 بيت 100 ورقم 78 بيت 65 ورقم 61 بيت 107 .

1- رشأ قد صاد قلب الأمم بجمـــــــال وشرد(124)

**الطيـور :**

إن عدد الصور التي تضمنت الطيور كمشبه به قليل جدا إذ لا يزيد على خمس وكان المشبه فيها تارة الذابلات وتارة الجياد ومرة القوافي[16] . والغاية من الإشارة إلى الطيور فيما يبدو التأكيد على العدد العديد للمشبه وانتظامه وتماسك صفوفه وسرعة سيره في السماء قاطعا مسافات طويلة بقوة وعزم . وقد تأتى لابن زمرك أن يذكر هذه الطيور باسمها في تشكيل صورتين فهي عقبان جوارح وورد المشبه هنا أيضا متمثلا في جيوش بني نصر وفي الكماة المقدمين على العدو بشدة وعنف . وهذا ما سمح لشاعرنا أن يقول :

58- قد عوّدوا قنص الكماة كأنما عقبانها ينقضّ منها أجـدل(63)

ثم أشار ابن زمرك إلى القطا كمشبه به في صورتين فقط . ومن المعروف أن القطاة طائر يضرب به المثل في الاهتداء وذلك عائد إلى تأنيه في المشي وترويه حتى لا يضل الطريق فأراد شاعرنا التأكيد على ما يتمتع به المشبه المتمثل في الجياد . فقال :

48- لمن الجيادُ الصافناتُ كـأنها في الورد أسرابُ القطا الأرسال(66)

وكذلك الأمر بالنسبة للغراب فلم نعثر على هذا المشبه به إلا مرتين وكانت الغاية من استعماله التأكيد على السواد الشديد الذى رآه الشاعر في المشبه المتمثل مرة في الليل ومرة في أعالي الأمواج المتسابقة . وهذا ما أداه إلى القول:

24- غواربُ في بحر السراب نخالها وقد سبحت فيهِ مواخرُ غربانِ78

**القـــرد :**

وقد تأتى لابن زمرك مرة أن يستعمل هذا الحيوان كمشبه به ومن المعروف أن العامة تستعمل القرد بمعنى الشيطان لقبحه ودناءته وإذا علمنا أن المشبه

(16) انظر الديوان : رقم 39 بيت 50 ورقم 99 بيت 112 ورقم 11 بيت 77 .

الذى ورد في هذه الصورة هو ابن الخطيب تبين لنا أن شاعرنا كان يريد إهانة مخاطبه والحط من قيمته وأن المناصب العالية التي توصل إليها ليست صالحة له ولا هو أهل لها ومع هذا فلم يعترف بالجميل لمن كان سببا في توطئة الطريق له إلى الوزارة[17] .

**النوع الثاني** : إن هذه المجموعة من الصور تتميز بوجود الإنسان فيها بمختلف مظاهره وكانت الغاية من ذلك التشخيص وإحياء ما كان جامدا فتأتي هذه الصورة قوية شديدة الوقع على الآذان يفاجأ بها السامع فيقف عندها ويتأملها فتثير إعجابه . والجدير بالذكر أن ابن زمرك كان يستعذب هذه الوسيلة الأسلوبية البلاغية إذا ما أخذنا بعين الاعتبار العدد المتوفر منها .

وليتأتى لنا ترتيب هذه الصور بدا لنا أن نستخرج العضو أو الحركة البشرية من جهة ونحصي من جهة أخرى كل المفاهيم التي تنضمّ إلى هذه أو ذاك فتتكون لنا هكذا شبكة علينا أن نتأمل مكوناتها حتى نرى ما يربط بينهما وما يسوغ تشخيصها . « فالمشخصات » إن صح هذا التعبير ــ التي عثرنا عليها هي : اليد أو الأيدى والوجه أو المحيا والجفون مع الدموع والفم مع الابتسام والجيد والحجر والثدى ــ ثم الإنسان مع ثيابه والأفعال التي تدلّ على حركاته .

**اليد أو الأيدى** : وأحيانا الكف أو الراحة تدخل في تشكيل ثلاث وعشرين استعارة جاءت بعضها مكررة وإذا ما علمنا أن اليد عضو يرمز إليه في آن واحد إلى الحركة والقوة والسيطرة تبين لنا أن الغاية من استعمالها الإشارة والتأكيد على ما لاطاقة للإنسان أن يرده أو يتعرض له وبالفعل فإن ذلك يتجلى لنا من خلال المفاهيم التي استعملها ابن زمرك وكلها مرتبطة باليد . ويمكن تقسيم هذه المفاهيم إلى نوعين بعضهما معنوىّ والبعض الآخر حسّي .

فالنوع الأول يتمثل في « الأقذار والأشواق والنوى والبلى والردى » . والنوع الثاني يتمثل في الطبيعة من « ريح ونسيم وصبا وغمام وصباح وجو وجوزاء » فكل من هذه المفاهيم يسعى إلى تحقيق مهمة وبلوغ غاية بصفة حتمية إذ حظيت

(17) انظر الديوان : رقم 32 بيت 27 وما بعده .

يد قادرة مسيطرة على ما يتعرض في طريقها . فإذا أشار شاعرنا إلى « الأقدار » . قال معجبا بصنعها المتقن :

50 - قسما بعزمك في المضاء وإنه سيف تجرّده يد الأقدار(32)

وإذا أراد الإشارة إلى الردى قال مؤكدا على الدقة في الإصابة :

19 - ما كان إلا البدر طال سرارة حتى رمته يد الردى بمحاق(52)

وإذا التفت إلى الطبيعة مشيرا إلى الغمام فالغاية هنا التأكيد على الحركة المحكمة والإيمان بالنتائج الحسنة . فيقول :

1 - ضمان على عينيك أنني غان قد صرفت إلى أيدى الغمام عناني(79)

فاليد إذن هي نقطة اللقاء بين هذه المفاهيم التي تتسم بصفة مشتركة متمثلة في الحركة والقوة .

وأما الوجه وأحياناً المحيا فقد دخل في تشكيل ثماني عشرة استعارة ووجه الإنسان يراد به الإنسان بأكمله فهو الكاشف عما كان مختفيا المعبر عن الدواخل بملامحه وسماته إذ هو الناحية المكشوفة التي يعرضها الإنسان لمشاهدة الغير ليتأمل فيها ويطلع على ما كان مكنا وراءها من خير أو شر فمن كان حسن الوجه اعتبر إنسانا طيبا لطيفا ومن كان قبيح الوجه اعتبر إنسانا خبيثا سيئا . فجاءت المفاهيم التي استعملها ابن زمرك من صنفين : الصنف الأول يمتاز بالجمال والرونق وهو ما انتمى إلى الطبيعة من رياض وأراضي وربى وأقمار وشموس وبدور والصنف الثاني هو ما يمتاز بالشدة والقساوة وهو ما تمثل في الدهر والكفر .

وإذا أراد شاعرنا أن يشير إلى الأرض معجبا بجمالها . قال :

59 - أعاد وجه الأرض طلقا مشرقا متضاحكا بمباسم النوار(32)

وأما إذا بدا له أن يأتي بصورة قاسية مفزعة . قال مشيرا إلى الأرض دائما :

51 - ومهما غدا سفاح سيفك عاريا يغادر وجه الأرض بالدم كاسيا(99)

وإذا تكلم عن الكفر قال :

67 - واسودَّ وجهُ الكفرِ من خِزْيٍ متى ما احمرّ وجهُ الأبيضِ البتارِ(32)

فالوجه إذن قد يجمع بين استعارات متباينة وذلك عائد إلى المفهومين اللذين يسمح بهما . والجدير بالذكر أن ابن زمرك استحسن طلاقة الوجه فأكثر استعمالها في استعارات كلها جمال ورقة وبهاء .

وأما الجفن أو العين فهو عضو الرؤية والمشاهدة من جهة والنافذة التي تسمح بالاطلاع على الباطن من جهة أخرى وقد استعمل ابن زمرك الجفن وما يختص به من بكاء ولحظ في تشكيل خمس عشرة استعارة تضمنت مفاهيم من الطبيعة مدلولها وفرة ما تحمله من مياه . فأشار هكذا إلى السحب والمزن وفي الصنف الثاني ذكر النباتات من زهر ونرجس وأقاحٍ وفي الأخير أورد الليل بنجومه الرانية وشهبه الباكية وكل من هذه المجموعات الثلاث تهدف إلى غاية معينة . فأراد شاعرنا من الأولى أن يؤكد على غزارة الدموع وكثرتها عبارة عن شدة الحزن والألم . فيقول :

33 - وتبكي عليك السحب ملءَ جفونها بدمعٍ يروىّ غلّةَ المُجدِبِ الصدِى(18)

وأما الثانية فجاءت للتأكيد على الجمال والصفاء والرونق وكل ما تسمح به العين من صفات يود شاعرنا أن ينسبها إلى ما يشير إليه . فقال مثلا :

1 - هبّ النسيمُ على الرياضِ مع السحرْ فاستيقظت في الدَّوْحِ أجفانُ الزَهرْ(40)

وأما جفون الليل فهي مفتوحة متألّقة لتسهر على الطبيعة بما فيها وترافق الحزين أو العاشق في معاناتها من الأرق . فيقول واصفا الليل :

16 - تأوبني والليل يذكى عيونَـهُ ويسحبُ من ذَيْلِ الدُّجَنَّةِ ضافيا(98)

وإذا أتينا الآن إلى الثغر أو المبسم فيتبين لنا أنه استعمل في تشكيل خمس عشرة استعارة وإلى جانب ذلك عثرنا على الفعل بسم مع مشتقاته أو افتر أو قبل في اثني عشرة استعارة . والجدير بالذكر أن المفاهيم المستعملة في هذه الصور ليست متنوعة فهي محصورة في الزهور من جهة وفي البروق من جهة أخرى .

والمعروف أن الثغر مَمَرُّ الروح ومنه يتنفس الإنسان فالزهور والبروق بثغورها تتمتع بالحياة فهي سعيدة مرحة والدليل على ذلك ابتسامتها وإذا تذكرنا ما في الثغر المبتسم من معان غزلية بدا لنا أن الزهرة اليانعة تشارك الفتاة الغضة اللطيفة في جمالها ورضاها بما منحته الحياة إياها فلا غرو إذن أن جاءت هذه الصور كلها متسمة بالهدوء والاطمئنان فلنتأمل على سبيل المثال ما قاله ابن زمرك :

5 - وافترّ ثغرُ أقاحٍ من أزهارها مقبّلاً خدَّ وردٍ من نواحيها(93)

وقال أيضا :

3 - ولا عجب من مبسم الزهر في الربا فللبرق من خلفِ السحائبِ مبسمُ(70)

وأما الجيد والحجر والثدى فلم يضاعف شاعرنا استعماله إذ لم نعثر إلا على صورة واحدة مشكلة من كل كلمة وهكذا تأتى له أن يتكلم عن جيد الغصن وحجر الرياض وثدى الغمام[19] .

وأما الخدّ فقد استعمله ابن زمرك كمشبه به أربع مرات في تشبيهات كان المشبه تارة الرياض وتارة الأزهار ومن بينه القرنفل وكانت الغاية من ذلك التأكيد على النضارة والألوان الزاهية ولا سيما اللون الأحمر المورد المشرق . وهكذا تأتى له أن يقول :

5 - رعى الله زهرا ينتمي لقرنفل حكى عرف من أهوى وأشراق خده(89)

وتبقى لنا مجموعة من الصور يعسر علينا ترتيبها لكثرتها وتنوعها إلا أنه يجدر بنا أن نلاحظ أن هذه الصور أراد بها صاحبها تشخيص ما يشير إليه فتضمنت مفهوما يعود إلى الإنسان من طرق شتى . فينطلق ابن زمرك من تضمين صورة الإنسان ككل . فيقول مثلا في وصفه الإبريق :

2 - ينـــجلي الإبريـــق فيـــه كعـــروس ذى اختيـــال(67)

ويقول أيضا واصفا مالقة :

8 - عـــروسة أنت ياعقيلـــة تجلى على مظهـــر الكمـــال(113)

أو يقتصر على فعل مع مشتقاته الخاصة بالإنسان فيقول مثلا :

31 - لم يرقص الدوح بالأكام من طربٍ حتى شدا من قيان الطيرِ شاديها(93)

ويقول أيضا مشيرا إلى منبت القرنفل :

6 - ومنبتـه في شاهـق متمنـــع كما امتنع المحبوب في تيه صَدِّهِ(89)

ويشير إلى القضيب في حركاته فيقول :

19 - والقضيب مالتْ للعناق كأنّها وفدُ الأحبَّةِ قادمين من السفرْ(40)

أو يكتفي أحيانا بالإشارة إلى الثياب فيقول :

46 - عطفت على الأيام عطفة راحمٍ وألبستها ثوب امتنانك ضافيا(98)

---

(19) انظر الديوان : رقم 99 ، البيتان 85و107 .

ويقول مرة أخرى :

3- عمّم النـور رؤوس الربـا     وجلل النور صدور البطـاح(114)

ويبدو لنا من خلال هذه الدراسة للصور أن ابن زمرك كان يميل إلى استعمال الاستعارة أكثر من ميله إلى استعمال التشبيه . ولعل ذلك عائد إلى بلاغة الأولى على الثانية من جهة ومن جهة أخرى إلى رغبة شاعرنا في التنميق والرونقة حتى يبهر السامع بما يتولد عن فكره الخصب الفياض من الصور العجيبة المنسقة المطربة .

O O O

# خـــلاصــــة

إن ابن زمرك ــ كما يتجلى لنا من خلال دراستنا هذه ــ كان قبل كل شيء شاعر بلاط بأتم معنى الكلمة فقد استخدم الشعر لتحسين حالته الوضيعة في شبابه فبدأ بمدح الوزير ابن الخطيب الذى مهد له السبيل لينتمي إلى الخاصة ويلتحق بالحمراء وقد تمّ له ذلك بعد عودة الغني بالله إلى غرناطة فقربه هذا الأخير وكلفه بالوزارة في مكان مربيه والمحسن إليه . وقد أشرنا إلى الدور الذى لعبه ابن زمرك في القضاء على ابن الخطيب حتى خَلا له المكان وأصبح من كبار الدولة النصرية فكان عليه أن يحافظ على ثقة الأمير به حتى لا يفقد ما حصل عليه ولذلك كرس ابن زمرك أوقاته في المدح والإطراء على من كان بيده كل شيء وإذا تذكرنا أن شاعرنا قضى ما يزيد على ثلاثين سنة في جوار الملك الغرناطي استخلصنا أن ما أنتجه شاعرنا في المدح قد جاء غزيرا بالنسبة للألوان الشعرية الأخرى إذ كان ابن زمرك لا يضيع فرصة من الفرص ليمدح سيده وكان ذلك حتى في المولديات كما مر بنا ولكن هذه الكمية الوافرة لا تسمح بما يستلفت الأنظار من تجديد وطرافة إذ تقيد ابن زمرك بالقوانين الكلاسيكية المعمول بها عادة في نظم القصائد المدحية . ولقد رأينا في تحليل هذا اللون الشعري أن الأغراض المدحية التي تعرض إليها الشاعر فرضت عليه استعمال مفردات مخصصة وصور معينة ومعانٍ متداولة يعثر عليها في الشعر العربي القديم أو الحديث في الشرق أو في الغرب . ولعل هذه المطابقة بين القصائد المدحية هي التي تثير في أنفسنا تلك السآمة التي نشعر بها عند قراءة هذا الشعر وإن المستشرق ريجيس بلاشير يذهب هو الآخر إلى القول « بأن هذا الإنتاج الشعرىّ خالٍ من كل فائدة أدبية عند ابن زمرك وعند غيره من الشعراء وبالتالي فلا يستحق أن نهتم به » .

ولكن ابن زمرك رغم الإكثار من المدح لم يقتصر على هذا اللون الشعري فقد جاءنا بما يستميلنا في ميدان برهن فيه على براعته وسلامة ذوقه وذلك عندما تعرض إلى وصف الطبيعة تلك الطبيعة اليانعة لغرناطة وضواحيها وقد

أشرنا إلى ما هو مدين به لابن خفاجة في هذا الغرض فحاول أن يقتدى به واصفا هو الآخر الأزهار بمختلف أنواعها والأشجار بأغصانها المترامية والأودية المكتسية بنباتاتها والأنهار — ولا سيما الشنيل — بمياهها الجارية .

والجدير بالذكر أن هذه الأغراض كلها لم تأت مستقلة في حد ذاتها وإنما تخللت أغراضا شعرية أخرى . فالطبيعة موجودة في كل مكان مهما كان الموضوع الذى يحلله الشاعر فهي في القصائد المدحية كما هي في المولديات وبالأحرى في القصائد الغزلية وبقسط وافر في الموشحات فإن لم تحلّ محلّ النسيب فتأتي عن طريق الصور من تشبيهات واستعارات فالكل يسبح إذن في الطبيعة فلو جمعنا كل الأبيات المخصصة لها لتوصلنا إلى كمية معتبرة تدل على مدى حب ابن زمرك لهذه الطبيعة لما كانت تمتعه به من مناظر مشرقة خلابة .

وهكذا يتأتى لنا أن نميز بين ابن زمرك الوصاف وابن زمرك المداح فشتان بين هذا وذاك فالأول كان يرمي إلى إرضاء نفسه فخدم الفن للفن والثاني إلى إرضاء غيره . ويتبين لنا بصفة جلية أن الشاعر إذا ما سمح لنفسه بالحرية في الاختراع والإبداع أتى بما يثير الإعجاب وأما إذا حرم من هذه الحرية تجمد خياله وأتى بما يتسم بالسذاجة التي سرعان ما تثير الملل . ولعل هذا ما كان يشعر به ابن زمرك نفسه فجاءت عنده أبيات مكررة من قصيدة إلى أخرى فكان توجهه نحو الطبيعة يحطم قيوده فيجد في ذلك راحة وانشراحا فيتغنى بها مثل الحبيب بحبيبته ويعيش في أحضانها ساعات سعيدة بعيدا عن البلاط بضوضائه ومغامراته المريبة .

ويبقى أن هذه الألوان الشعرية بجميع أغراضها لم تكن من نصيب ابن زمرك وحده ، فقد سبقه إليها عدد عديد من الشعراء فمن العسير عليه أن يزيد عليهم ويأتي بما غاب عنهم فيستقلّ به وهذه الملاحظة تسمح لنا بأن نتساءل عما ضمن لابن زمرك الشهرة وبعد الصيت وبعبارة أخرى فما هي خصائصه الشعرية التي تبرر أقوال معاصريه ومن جاء بعدهم بأنه كان شاعرا مفلقا ينتمي إلى نخبة أبرز الشعراء العرب الذين يحركون مشاعر القراء فيستهوون شعرهم ويُرَدِّدُونَهُ عبر الأجيال ضامنين لهم هكذا حياة خالدة .

فإن لم يجدد ابن زمرك مضمون إنتاجه الشعرى فلقد حاول أن يجدد في مستوى العبارة بصياغة قوالب لم يسبق إليها وهذا اللغوى هنرى وبير الذى يقول : « بأن الطريقة في عرض وحشد وتبسيط الصور الخاصة بعهد الشاعر تسمح لنا بأن نميز بين الشاعر المفلق والشاعر العاجز الردىء »[20] .

وبالفعل فإن هذا ينطبق على ابن زمرك فجاء أسلوبه مفعما بالصور البلاغية والبيانية صور تتسم بالانسجام والتناسق والسهولة ولا سيما في الموشحات فساد عليها جو موسيقى عذب وقعه على الآذان ولقد برهن ابن زمرك على مدى مخيلة خصبة سمحت له بالإبداع والتوفيق إلى ما يتسم بطرافة ثابتة . ولكن عدم توفر دراسات حول معاصريه من الشعراء لا تسمح لنا بأن نقارن بين هذا وأولئك حتى نستخلص ما هو نصيب ابن زمرك في الإبداع وما هو نصيبه في التقليد . ومهما كان الأمر فإن النقاد قديما وحديثا قد أجمعوا على الثناء عليه وجعلوا منه أكبر شاعر في زمانه وقد كان آخر وتر تغنت به الأندلس آنذاك « قبل غروب الشمس » وهذا غارسيه غوماث المستشرق الإسباني الشهير الذى يقول : « بأن ابن زمرك كان آخر شاعر عظيم في الأندلس ومعه احتضر الشعر الأندلسي مجهدا عبر القرون وكان هذا الاحتضار مواكبا لاحتضار كل مظاهر الإبداع في الفكر الإسلامي » .

ο ο ο

---

(20) La Création Poetique au XVIII° S. T. II. P. 658 .

# قائمة المصادر والمراجع المعتمد عليها في هذا البحث

## 1) باللغة العربية


ابن الأحمر : — روضة النسرين في دولة بني مرين ط . عبد الوهاب بن منصور ، الرباط 1962 .

— نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان . ط . محمد رضوان الداى ، بيروت 1967 .

— البقية والمدرك من شعر ابن زمرك ( مفقود ) نقل معظمه المقرى في أزهار الرياض ونفح الطيب .

ابن حجر العسقلاني : — الدرر الكامنة في أيام المائة الثامنة .

ابن خلدون : — التعريف بابن خلدون . القاهرة 1961 .

— العبر ( تاريخ بني الأحمر ملوك غرناطة ) ط . دار الكتاب اللبناني 1968 .

ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة . ط . عبد الله عنان ، القاهرة 1973 - 1978 .

— الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة . ط . إحسان عباس ، بيروت 1963 .

— اللمحة البدرية . القاهرة . 1347 .

— أعمال الأعلام . ط . ليفي بروفنصال ، القاهرة 1956 .

— نفاضة الجواب في علالات الاغتراب . ط . العبادي ، 1968 .

— ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام . ط . محمد الشريف قاهر ، الجزائر 1973 .

ابن خفاجة : ديوان . ط . غازى الإسكندرية 1960 .

ابن رشيق : العمدة . القاهرة 1925 .

ابن القاضي : جذوة الاقتباس في من حل من الأعلام مدينة فاس ، فاس 1319 .

بابا أحمد : نيل الابتهاج ــ تكملة الديباج المحلى لابن فرحون . القاهرة 1932 .

البستاني : ــ دائرة المعارف . 11 جزءاً ، بيروت 1876 - 1900 .

ــ الموشحات الأندلسية . المشرق : 33 (1935) ص 368 - 380 ؛ المكشوف : 56 ص 10.

بلقين عبد الله : « مذكرات » ط . ليفي بروفنصال : مجلة الأندلس 36 سنة 1935 و1941 .

الجرجاني (عبد القاهر): ــ أسرار البلاغة . القاهرة 1959 .

ــ دلائل الإعجاز . دار المنار ، 1966 .

الحميرى (عبد المنعم) : ــ الروض المعطار . ط . ليفي بروفنصال ، القاهرة 1938 .

حجاجي ( حمدان ) : ــ حياة وآثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة . الطبعة الثانية ، الجزائر 1982 .

خفاجي (عبد المنعم) : ــ قصة الأدب في الأندلس . المونريه 1955 - 1956 .

خليل ( تقي الدين ) : ــ الموشحات الأندلسية : موسيقى وغناء . المكشوف رقم 223 ، ص 2 .

الركابي ( جودة ) : ــ في الأدب الأندلسي . القاهرة 1960 .

سيد نوفل : ــ شعر الطبيعة في الأدب العربي . القاهرة 1945 .

شبانة محمد كامل : ــ يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة . القاهرة 1969 .

ضيف ( أحمد ) : ــ بلاغة العرب في الأندلس . القاهرة 1927 .

ضيف ( شوقي ) : ــ الفن ومذاهبه في الشعر العربي . بيروت 1956 .

عنان ( عبد الله ) : ــ نهاية الأندلس . القاهرة 1966 .

عنان ( عبد الله ) : ـــ لسان الدين بن الخطيب : حياته وتراثه الفكري . القاهرة 1968 .

القلماوى ( سهير ) : ـــ ثم غربت الشمس . القاهرة 1949 .

كنون ( عبد الله ) : ـــ النبوغ المغربي في الأدب العربي . بيروت 1961 .

المقرى : ـــ نفح الطيب . ط . عبد الحميد ، القاهرة 1967 - 1969 .

ـــ أزهار الرياض . ط . السقاء ، القاهرة 1940 .

نبهاني : ـــ المجموعة النبهانية في المدائح النبوية . 4 أجزاء ، بيروت 320 .

○ ○ ○

## 2 - باللغة الفرنسية :


**Abbadi Med** : Muhammad al Janiyy bi Ilah, rey de Granada in Revista del Instituto de Estudios islamicos in Madride ( RIFI ) XI et XII ( 1963 - 1964 ) P. 209 - 327
XIII ( 1965 - 1966 ) P. 43 - 102
XIV ( 1967 - 1968 ) P. 139 - 173

**ARIE. R.** : - L'Espagne musulmane au temps des Nasrides 1232 - 1494 Paris 1973. 1 vol. in 8°
- note sur la maqama andalouse in Hespéris IX/2 - 1968

**Benchekroun Med** : La vie intellectuelle marocaine sous les Mérinides et les Wattasides XIIIe, XIVe, XVe, siècle, Rabat 1974. 1 vol. 654 p.

**Blachère Régis** : Le vizir - Poète : Ibn Zamrak in Annales de L' Institut d' études orientales 1936, II pp. 291 - 312

**Brunschvig R.** : Al hulul al muwassiya - Grenade et Maroc mérinide in ARABIC and islamic studies in honor 1965 of Hamilton A. R. Gibb Cambridge P. 147 - 155.

**Canard M.** : Origine de la célébration du mawlid in Bulletin des Etudes Arabes 1946 W. 27 pp. 54 - 58

**de Castries H.** : Du nom d' Alhambra donné au palais du souverain à Marrakech et à Grenade in Journal asiatique 1921 pp. 133 - 138

**Dufoureq ch. E.** : - L' Espagne Catalane et le Maghreb au XIIIe et XIVe siècle P. U. F. 1965
- Les relations de la Péinsule ibériqueet de l' Afrique du Nord au XIVe s; Barcelone 1970 - 71 - 32 p.

**Chevalier ( Jean ) et Gheerbrant ( Alain )** : Dictionnaire des symboles ed. Laffont et Jupiter 1982 Paris

**Encyclopédie de l' Islam** : EI : 1 ère et 2 ème édition

**Girault de Prangey** : Essai sur l' architecture des arabes et des Maures en Espagne, Sicile et en Barbarie Paris 1841 - 1 vol. in 4e

**Gounes GARcia** : - Ibn Zamrak, el poeta dela Alhambra in Cinco poétas musulmanes Madride. Buenos Aires 1944 1 vol. 8e
- La poésie andalouse Trad. arabe de H. Mu' nis Le Caire 1952 1 vol. in 8e
- Une française à l' Alhambra Paris 1953 1 vol. in 8e

**HADJADJI Hamdane** : Vie et oeuvre du poète andalou Ibn Hafadja 2 ème éd. Alger 1983.

**lévi Provençal** : - Grenade musulmane et la Résidence royale de l'Alhambra au XIVe et XVe siècle Extrait des "Annales universitaries de l'Algérie nouvelle sérien 5 et 6 Alger 1937
- Un nouveau texte d'Histoire mérinide Le musnad d'Ibn Marzuq in Hesféris 1925 pp. 1 - 82

**Marçais ( Georges )** : Manuel d'art musulman L'Architecture : Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile - Paris 1926 - 1927 2 vol. in 4°

**Palencia Gonzalès** : Histoire de la litteratura arabigo espagnola Barcelone-Buenos Aires 1928 1 vol. in 8°
Trad . arabe de H . Mu' nis

**Petit Odette** : Les relations intellectuelles entre l'Espagne et l'Ifriqiya aux XIIIe-XIVe s. in IBLA 1971

**SLane** : **G. de Slane :** Observations sur le sans figure de certains most qui se rencontrent souvent dans la Poésie arabe in Journal asiatique 3 ème série T VII. 1839 pp. 169 - 175

**Sordo E.** : Cités d'Art Espagne maurèsque : Cordoue, Séville, Grenade ed. Albin Michel Paris 1964 1 vcl. in 4°

**STern Samuel, Miklos** : Hispano arabic Strophie poétry Oxford Clarendon pres. 1974 252p.


O O O

# فهــــرس الأعـــــلام

○ ○ ○

# فهرس الأماكن

ο ο ο

# * الفهـــرس *

| الموضـــوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضــوع | الصفحة |
|---|---|

**○ الباب الثالث ○**



○ ○ ○ ○

أنجز طبعه على مطابع
ديوان المطبوعات الجامعية
الساحة المركزية - بن عكنون
الجزائر




ديوان المطبوعات الجامعية
رقم النشر: 4/09/2223
المؤسسة الوطنية للكتاب
رقم النشر: 123/89/01/08
الثمن 77,80 دج